كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجـــزء الثـامن

أحـمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

فهـــرس

مقـــدمـة

زاد أى شـــعب هو القراءة ، يقبل عليها ويشبع بهـا جوعه الى العلم والمعرفة وألوان الحضارة • ان الحث على القراءة خير ما يوجه الى الأفراد والجماعات ، فى جميع الأمم والشعوب ، بل هو خير ما وجه الى الانسان منـذ تحضر الى الآن •

ولقد بدىء تنزيل القرآن بفعل قصير خطير هو كلمة « اقـرأ » ، فكان أول ما خوطب به النبى (ﷺ) وخوطب به الناس من بعده هو هذا الأمر الكريم بالقراءة •

وكان صاحب المنطق ـ كما يسميه الجاحظ ـ يقول ان الانسان حيوان ناطق • وكان النطق عنده فيما يحدثنا الفلاسفة أشمل من ادارة اللسان فى الفم باللفظ الذى يبلغ السمع ، فينقل اليك ما فى نفس محدثك ، كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعبير جميعا ، لكن أرسطاطاليس لم يعرف الانسـان بأنه حيـوان ناطق فحسـب ، وانما وصـفه بأنه مدنى بالطبع ، كما ترجم القدماء ، أو أنه اجتماعى بالطبع ، كما يترجم المحدثون •

وما نعرف شيئا يحقق للانسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة ، فهى تصور التفكير على أنه أصل لكل ما يقرأ • وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ • فالكاتب يفكر قبل أن يكتب وأثناء كتابته ، والقارىء يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ •

وكذلك يمضى الانسان فى تحقيق هاتين الخصلتين اللتين تميزانه وتضـعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفـوق والرقى ، وهمـا العقل والمدنية • فاذا أمـــر الله الانسان بأن يقرأ ، فانما يأمره بأن يطمح الى الكمال ، ويسعى اليه ، واذا كانت القراءة أخص مميزات الحضـارة ، تكثر وتنتشر اذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل اذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام

أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الانسان بأنه حيوان قارىء دون أن يكون في هذا التعريف تجاوز لما قصد اليه أرسطاطاليس — كما يقول د٠ طه حسين — ٠

وكانت القراءة في أول أمر الانسان مقصورة على قلة ضـئيلة من الناس في كل شعب من الشعوب المتحضرة ، وكان رقى الحضارة واتساعها يدعوان الى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية ، التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب ما بين الطبقـات ٠

واذا القراءة تصبح حقا شائعا لكل انسان ، بل واجبا محتوما على كل انسان يريد أن يحيا حياة صـالحة ٠ واذا الدول تشعر بهذا الحـق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس ٠ ونحن نعلم أن الدول انما تعلم أبناء الشعب هـذه القراءة الآلية وقليلا جدا مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصفى الذوق ، ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعيـة الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق ٠ وحيثما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرءون ، وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا اليهم ما يقرءون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية ، وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس ٠

والانسان مشوق بطبيعته الى الرقى ، ولكنه مدفوع الى حب اليسر ، وايثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد الى ذلك سبيلا ، وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هـذه القراءة ، ووجــوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضررا هو الذى يشيع وينتشر ، مع الأسـف الشـديد ، فالكلام السهل اليسـير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة التى يكفى الانسان أن يمد يده ليتناولها، وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها القارىء دون أن يشق على ماله ويقرؤها دون أن يشق على عقله — هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القارىء بحكم هـذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه ، وهى خصلة الكسل ، وايثار الهين من الأمور ، فلابد اذن من أن تقاوم هذه الخصـلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولابد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصـبة الى النـاس حتى يستطيعوا أن يقرءوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم ٠

وليس كل ما ينتجه العقل الانسانى ميسر القراءة للناس ، فهناك الممتازون فى الثقافة ، ولكن هناك أصحاب الثقـافة المتوسطة وأصحاب الثقـافة المتواضعة ٠ وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه

الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء • وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الانسانى من الانتاج • فلابد اذن من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لابد من أن يرتفعوا اليه شيئا ومن أن يهبط هو اليهم شيئا ، حتى يكون هذا اللقاء الجلل الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب •••

كل هذه الملاحظات دعتنا الى التفـكير فى كتابة هذه السلسلة من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ، التى جمعت بين دفتيها أكثر من مائة كتاب من الكتب الرائدة والخالدة ، والتى أثرت تأثيرا عظيما على الفكر الانسانى على مر التاريخ •

ان أهمية هذه الموسوعة أن بها تعريفا لأهم الكتب الخالدة على مدى التاريخ ، يغرى القراء المثقفين بقراءة الأصـــــول ويتيح الفرصة لأصحاب المشاغل الجمة الذين لا يتسع وقتهم لقراءة أصول أمهات هذه الكتب أن يلموا بها الماما جيدا ، وكذلك يسعف ذاكرة قارىء الأصول على تذكر ما وعى منها من دروس •

وقد كان فى نيتنا فى تلك الأجزاء الثمانية أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع ، وأنفعه ، فهى تجمع من كل فرع من فروع الانتاج العقلى ، وفى كل لون من ألوان النشاط الذى يجعل العقل الانسانى منتجا فى جميع فنون المعرفة •• ذلك لأننا لا نفكر الا فى شىء واحد وهو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، ولا نريد الا أن يقرأ القارىء العربى وأن ينتفع ، وأن تدعوه هذه القراءة الى الاستزادة من الثقافة والطموح الى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى يحياها •

وبعـــد ••• فهذا الجزء الثامن من موسوعتنا « كتب غيرت الفكر الانسانى » ، التى جمعت فيها مجموعة من الكتب الهامة على مدى تاريخ الفكر البشرى والتى كان لها أكبر وأعظم الأثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللمجتمع الانسانى من حوله •

ان الموسوعة بأجزائها الثمانية ــ هى خلاصة قراءات للكتب ، عربية وغربية لفت نظرى اليها ما فيها من فكر وتجربة وخبرة •

لهذا عمدت الى أن أضعها بين يدى القارىء لعله يجد فيها ما وجدت •

والله أسأل أن ينتفع بها ويجعلها خالصة لوجهه والله المستعان أن يحقق بها الفوائد وهو حسبى وكفى •

المـؤلف

أنشودة النيل

من الأدب المصري القديم

ح ٣٠٠٠ ق.م

تقـديس قدماء المصريين للنيـل

لما رأى العالم القديم فرعون سيدا للنيل ، هالهم أمره فنسبوا اليه كل شيء : نسبوا اليـه النسيم الهفاف والريح البـاردة الآتية من البحر الأبيض التى تسير العمران فى مصر ، وكذلك القمر والنجوم والشهور والأيام والسـاعات .

ويلتمس ارمان (١) لهم العذر فى تقديسه والمغالاة به :

« ونحن نعذر المصرى اذا كان قد أفسـح لخياله المجال فى تقديس النيل ، تلك القوة التى تأتيه بالأعجوبة السنوية والتى تهيمن على حياته ، فلا غرابة اذا كان قد جعله واحدا من بين آلهته العظمى ، ومع ذلك عومل النيل معاملة أخرى ... فمع أنهم اعتادوا تقديم القرابين وتأليف الأناشيد لتمجيده ؛ فانهم لم يضعوه فى ذلك المستوى الذى وضـعوا فيه آلهتهم الأخرى . واذا كانوا قد لقبوه فى بعض أناشيدهم « بأبى الآلهة » فان هذا اللقب قد استعاروه من الاله « نون » رب الماء الأزلى والسبب فى ذلك أنه ذكر فى نص من النصوص الدينية أنه ينبع من هذه المياه ... » .

ومن الغريب أن النيل على حبهم له ومغالاتهم به ... « قد تبوأ بين الآلهة منصب الخادم لهم ، فصوروه على جدران المعابد بزي البحار أو صياد السمك على هيئة بشر نصفه أنثى والنصف الآخر ذكر يقدم منتجاته الى الآلهة الكبار » .

ويخالف صموئيل مرسيه ارمان فى عبادة النيل . فصموئيل يستبعد صفة «الألوهية»،ويرى أن تقديسهم اياه كان اعجابا أكثر منه تأليها،كان بهرا وتقديرا وعرفانا أكثر منه عبادة واعتقادا .

---

(١) انظر كتاب (مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة) تاليف ادولف ارمان وهرمان رانكه .

وتقول د. نعمات أحمد فؤاد فى كتابها « النيل فى الأدب المصرى » :

« ونحن نلاحظ أن النيل لم تكن له معابد يعبد فيها اذا استثنينا معبد حعبى الذى ورد ذكره فى بردية هاريس وبردية ولبور .. ولكنه كان يحتفل بفيضه فى كل مكان بتقديم العطايا وأداء بعض العادات ... » .

وفى الوقت نفسه انعقدت الصلة من وقت مبكر بين النيل وأوزوريس ، أحد الآلهة العظام فى مصر ، وذلك ما قدر له منزلة كبيرة فى عقائد المصريين قلت الى جانبها أهمية كثير من الآلهة . كما سمى فى بعض الأحيان أبا الآلهة . وهو كذلك أحد الآلهة فى قائمة الآلهة فى معبد خنوم فى اليفنتين ...

وقال بعبادة النيل فى مصر القديمة الدكتور باهور والأستاذ عبد القادر حمزة ...

والحقيقة فى أمر النيل أنه كان فى مصر القديمة « اله » (حعبى) ويمثل بهذه الصفة على جدران معابد غيره من الآلهة . ولكنه هو لم تقم له معابد وليس له كهنة شأنه فى هذا شأن جب اله الأرض ونوت الهة السماء . ولكن ألا يدل هذا على أن النيل والسماء والأرض أكبر من أن تقام لها معابد لأنها مظاهر كبرى للطبيعة ماثلة فى كل مكان فى ... فى كل عين ... ؟!

ان النيل لم يعبد مثل آمون أو تحوت أو أوزوريس ، ولكنه لم يكن دونها فى رأى المصريين ...

للنيل عناية خاصة

اتجهت جهود الفراعنة منذ بدء مدنيتهم الزاهرة الى المحافظة على النيل ، استخدموا الوسائل المختلفة لهذه الغاية ؛ حتى استطاعوا أن يضربوا للأمم الأخرى مثلا حسنا بتلك الأعمال العظيمة التى قاموا بها وما نزال نشاهد آثارها حتى الآن .

ولقد أولوا النيل عناية خاصة لأنه مصدر حياتهم ومنبع أرزاقهم ، فاجتهدوا فى المحافظة على مجراه ودفع الغوائل عنه .

يقول العلامة أمين سامى باشا :

« ولما كانوا يقاسون ألوانا من العذاب فى تطهير مجرى النيل من هذه الرمال التى تأتى بها الريـاح من الصحراء وتطمر مجراه الذى كان بالقرب من مكان الهرم الأكبر ، فقد فكروا فى أن يقيموا هدفا عظيما يمنع الرمال من طمر مجرى النيل ، فبنوا الهرم الأكبر ذا السطوح المائلة التى اذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس . وهذه المزية لا تتوافر فى سطح أى جسم آخر . وقد عانوا فى تشييده ما عانوا ، وأبدعوا فى هندسته ابداعا شهد ببراعتهم وأحكموا وضعه احكاما هندسيا وفلكيـا دل على سـعة باعهم ووفرة علمهم ، حتى انهم استطاعوا أن يحكموا الفتحة التى فى منتصف أسفل الجهة البحرية على امتداد محور العالم ، وجعلوا الفتحة القبلية فى أعلى السطح المقابل ، تدخل منه أشعة ضوء « الشعرى » على جثمان من سيدفن فى هذا الهرم .

ذلك هو أهم البواعث على بناء الهرم الأكبر وغيره من الأهرام ، وليس الباعث كما يقولون انه أنشىء ليكون مدفنا . نعم قد دفن فيه منشئه ولكن هذا لا يحتم أنه بنى لهذا الغرض ، فان كثيرا من المساجد فى عصرنا وفى العصور الماضية دفن فيها منشئوها ، ومع ذلك ليس هناك من يقول انها بنيت لتكون مدافن .

وبانشاء الهرم الأكبر استراح المصريون القـدماء من العذاب الذى كانوا يعانونه كل عام فى ازالة تلك الرمال ، التى كانت تعوق سير النيل وتمهد طريقه الى الوجه البحرى،وتولدت أراض زراعية فسيحة وسميت بهدية النيل . وعلى منوال هرم الجيزة بنيت أهرام أخرى من الحجر واللبن فى الجهة الغربية دون الجهة الشرقية التى كلها أحجار وجبال .

وقد عنى الفراعنة بانشاء خزانات فى مجرى النيل ــ وآثارها معروفة الآن باسم الشلالات ــ وصنعوا «سيالة» فى كل خزان تفيض منها المياه الى ما بعدها بقدر معلوم.ومما يلفت النظر أن فى وادى حلفا بالقرب من قرية «سمنه» صخورا وعرة المرتقى رأسية الوضع على حرف النيل بها كتابات بالهيروغليفية ، وعلى ارتفاع سبعة أمتار من سطح المياه فى أعلى أيام الفيضان الآن . وهى تدل على أن النيل بلغ فى عصر الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة أقصى زياداته ، اذ وصل الى موضع الكتابة فى هذه الصخور .

وقد كان الفراعنة يقيمون قراهم وبلادهم فى الجهات المرتفعة • وكان المصريون يسرون بالفيضانات العالية ؛ لأنها تكسب الأرض خصبا يغنيها عن التسميد ، ولأن بلادهم فى مأمن من الغرق ولكن كان يؤلمهم أن يتأخر هبوط النيل عن شهر بابه » •

أعيـــاد النيـــل

عرف من الآثار التى استكشفت أن المصريين كانوا يقيمون للنيـــل احتفالات تشبه الاعياد ، ولم يذكر المؤرخون عنها الا شيئا قليلا ، فمن ذلك ما قاله « بلينى » المؤرخ الشهير « ان المصريين فى عصره كانوا يقدمون الغذاء للتماسيح ويلبسونها بعض الثياب فى وقت الفيضان ويلقونها فى النيل فتبدو ألوان الثياب الناصعة فى منظر بهيج يروق الناظرين » •

والذى لا شك فيه أن كل الاحتفالات الخاصة بالمهرجانات التى تقام لفيضان النيل سنويا،كانت بمنزلة فريضة دينية يحترمها الناس كاحترامهم للنيل ، وكان رؤساء النيل يقيمون لها الزينات المعتادة للأعياد العامة •

وجاء أيضا ما نصه « يستقبل الشعب المصرى بالفرح والسرور ظهور مياه السلسلة المقدسة • ابتهاج النفوس وفرحها بمجىء النيل أمر طبيعى ، ويجب أن يعد فيضـانه فى مقدمة الأعيـاد التى بحلولها يهنىء المصريون بعضهم بعضا » •

وجاء فى أنشودة النيل المكتوبة فى ورقة أنسطاسى البردية ما نصه : « أيها الفيضان المبارك قدمت لك القرابين والذبائح ، وأقيمت لك الأعياد العظيمة وذبحت لك الطيور واقتنصت لتحيتك الغزلان من الجبال ، وأعدت لك النار الطاهرة ، وقدم لك البخور والنعم السماوية والعجول والثيران فتقبلها هدية شكر واعتراف بفضلك » •

وجاء ذكر أعياد النيل فى مائدة للقرابين محفوظة فى متحف فلورانس ويرجع تاريخها الى ملوك الأسر الثلاث الأولى •

وقال « ماسبيرو » فى هذا الموضوع : « عندما يصل الماء المقدس الى جدران مدينة «سيين» ، يقدم الكهنة أو الحاكم أو أحد نوابه ثورا أو بطا ويلقيه فى الماء فى حرز من البردى مختوم عليه ويكتب فى الحرز الأمر

الملكى الخاص بنظام الفيضان ومتى ترأس الملك نفس هذا الاحتفال ، نقشوا فى الصحراء وسجلوا هذا الحادث تذكارا تاريخيا ٠ واذا تغيب الملك عن الاحتفال ناب عنه الكهنة باحتفال عظيم ، حاملين تمثال المعبود سائرين به على ضفاف النيل والجسور مرتلين الأناشيد » ٠

من المستندات الرسمية الباقية عندنا الآن شواهد السلاسل الثلاث ويرجع تاريخها الى عهد الملك رعمسيس الثانى ومنفتاح ابنه ، ورعمسيس الثالث ، وهى تنقسم الى جملة أجزاء : فبعد مقدمة رعمسيس الثانى تقرأ أنشودة النيل وخطاب الملك بالتهليل للمعبود ، ثم القرار الذى يحدد تاريخ الأعياد ويلحق به كشف القرابين وملخص ترجمته كالآتى :

« فى السنة الأولى والشهر الثالث من فصل الحصاد واليوم العاشر فى عهد المنير الشمس الملك القادر المحبوب من الحق صاحب التيجان حاكم مصر المنتصر على البلاد الجبلية حورس الذهبى المديد العمر المبارك ، ملك الوجهين البحرى والقبلى رعمسيس المحبوب من آمون (أبو الآلهة) الذى يمنحهم الحياة والبقاء والقوة كالشمس الى الأبد فليحى الاله الطيب النيل الذى يحيى النفوس بجوهره والثروة بثرائه ٠ أنت أيها الوحيد الذى تظهر من نفسك ولا يعرف أحد ما تحويه والكل يفرح بظهورك من مخبئك فيك تربى الأسماك العديدة ومنك تفيض الخيرات على مصر ، فأنت خلقت لأجلنا ويسر بك الناس والمعبود (نون) متى قدم له القرابين بين أهالى البلاد ، واتحدوا معه فى فرح التحية بقدوم النيل المضىء ٠ فخيراته على البلاد تستفيض من صنع يديه وتتدفق ببركاته » ٠

« وقد أمر الملك بتقديم القرابين لأبيه آمون رع ملك الآلهة مرتين فى السنة ، فى زمن مياه السلسلة المقدسة وفى مكانه المكرم الذى لم تكن قبله مياه ٠ حياة وسلام وقوة » ٠

« فتقدم القرابين فى اليوم الأول من شهر سايت وفى الخامس عشر من شهر توت وفى الشهر الثالث من فصل الفيضان والخامس من شهر أبيب كضريبة سنوية » ٠

« ويلقى فى النيل عجل أبيض وثلاث اوزات وهدايا ثمينة (لا بنت عـذراء كما يزعمون) ثم الكتاب الشـامل لتفصيـلات المهرجان وأنواع الهدايا للاله آمون ملك الآلهة ورب مدينة طيبة » ٠

وحى النيل فى الأدب

ونقف الآن وقفة خاصة عند وحى النيل فى الأدب وأثره فيه ...

يعتز الأدب بقصة حورس وست وهى من أهم القصص التى أمدتنا بها أوراق البردى كاملة ... وحورس هو ابن أوزوريس وايزيس .

ويرى الدكتور أحمد بدوى أن أساطير المصريين التى تدور حول حياتهم ووسائلهم فى العيش وآمالهم فى الخير والخلود كأسطورة « اوزوريس » ... وأسطورة البعث وأسطورة (الحق والباطل) وغيرها، يراها عن يقين « انها كانت جميعا من وحى النيل وطبيعته التى صنع بها هذه الأرض ، وصنع بها الخلق المصرى والطبع المصرى والعقائد المصرية أيضا » .

وقد دارت حول النيل ، أساطير كثيرة فاذا تجاوزنا الأساطير وجدنا النيل قد أوحى من الأناشيد ما لا يزال منقوشا على حوائط الأهرام الى اليوم .

من متون الأهرام

« انهم يرتعدون أولئك الذين يشاهدون النيل عند ما يفيض ... ان الحقول تضحك والفيضان يغمر شاطىء النهر ... وتخرج قرابين الآلهة وتضىء وجوه البشر وتتهلل قلوب الآلهة » .

كما ورد فى بعض النقوش التى وجدت على حوائط الأهرام أناشيد موجهة الى النيل منها نشيد يذكر قدوم فيضانه الى مصر فيقول :

« ان ماء الحياة الذى فى السماء ... ان ماء الحياة الذى فى الأرض يأتى . فالسماء تلتهب (يريد تبرق) من أجلك (يخاطب النيل) والأرض تزلزل من أجل ولادتك ، لقد انفتحت الصخرتان وظهر المعبود ... ان المعبود يضع يده على جسمه (يريد أنه يضع يده على أرض مصر) .

كم أوحى النيل من أناشيد ! . فالفيضان لا تكاد تباشيره تبدو حتى ينطلق الفلاحون فى مصر القديمة مرنمين :

« أقبل تحوت ،

بالماء الى الحقول ،

وترتوى الأشجار ،

وحتى تغذى الأرض كلها » ·

وقد أورد الأستاذ جمال الدين الشيال أغنية يتحدث فيها الرجل عن حبه :

« سأرتقى صفحة النيل ومعى حزمة من الغاب أحملها على كاهلى ··· سأذهب الليلة · فالنهر خمر ، بتاح غابه ، وسوخمت لوتسه ، وأبارت براعمه ونفرتم أزهاره ··· انظر الى الفجر وممفيس تبدو (كاناء مترع بالفاكهة وضع أمام بتاح الاله ذى الوجه الحسن ···) ·

وكانت الأم المصرية تتلو هذه الرقية قديما لتدرأ الشر عن وليدها وتطرد عنه الشياطين فتقول :

« اخرج يا من يأتى فى الظلام وتدخل خلسة ، هل أتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله ، هل أتيت لتأخذه ؟ لن أسمح لك بأن تأخذه منى لقد حصنته منك بعشب أفتيت الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك وبالشهد حلو المذاق فى فم الأحياء ، مرا فى فم الأموات ، وبالأجزاء الخبيثة من سمك الأبدو ، وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر » ·

ومن كتاب (شكاوى الفلاح) : « كن كاله النيل يجعل الأرض الجدباء أرضا خضراء ، ولا تكن كالسيل يدمر ما يأتى عليه واحذر الآخرة » ·

وفى الأنشودة الكبرى التى صلى بها أخناتون لمعبوده الجديد :

لقد خلقت النيل فى العالم السفلى

ودفعت به الى (أعلى) حسب مشيئتك

لتحيى به البشر يا سيد الجميع

لقد جعلت نيلا يهبط اليهم من السماء

وجعلت لهم أمواجا تتدافع على الجبال كالبحر

فتجد حقولهم ما تحتاج اليه من الماء

ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية !

وهبت نيل السماء لشعوب الجبال

فاحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه

أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى ٠

ويلمحه أخناتون مرة أخرى فى نشيد ٠ مما قبسته عنه المزامير فى رأى كثير من المؤرخين وخاصة العالم جيمس هنرى برستد :

وعند ما يصبح الصباح وتطلع من الأفق ،

وعند ما تضىء كآتون أثناء النهار ،

تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،

فالأرضان فى عيد كل يوم ،

ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،

لانك أنت الذى أيقظهم

.. ..

.. ..

انهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ،

وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،

لأن الطريق كلها مفتوحة عندما تظهر ،

وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،

لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط ،

أنشـــودة النيـــل

من لوازم الفطرة الراقية ابتكار الأناشيد فى المناسبات التى ترتاح النفوس فيها الى الترنم بما يستطاب لأجلها افتخارا واستلذاذا واستبقاء لحسن الأحدوثة، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذكرى للاحتفالات. والنيل عند قدماء المصريين قد اختصوه بما ألفوا من مظاهر الأفراح ودلائل المسرات عند فيضانه ومواسم أعياده ، وقد خصوه بأناشيد رائعة تعرب عن شـــدة شعورهم ، من بينها الأنشودة التى نمقها فى عصره الشـــاعر المصرى القديم ووجدت مكتوبة فى لوحتين على الورق البردى معروفتين بورقتى ساليير وأنسطاسى ، وهما من مجموعة الأوراق البردية المحتفظ بها الى الآن فى المتحف البريطانى وترجمها العالمان الأثريان الشهيران ماسبيرو وجيمس ، وهما اللذان نقلاها من الشعر المصرى القديم .

« سلام عليك يا حابى . يا من تخرج الى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر . يا من تخفى فى الظلمات مجيئك . انك اللجة تنتشر على الحقول التى يخلقها رع . انك تعطى الحياة جميع الظمآنين ، ولكنك ترفض أن تروى الصحراء من فيض ماء السماء . ومتى هبطت فانه جب اله الأرض يشغف بالخبز على اختلاف أنواعه ، ونابرى اله الحبوب يقدم قربانه وبتاح ينشر الرخاء فى دار صناعتـــه .

« أنت سيد الأسماك ، متى جزت الشلال . لم تعد الطيور ترتمى متردية على الحقول . أنت صـــانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعيـــاد .

« أنت من اذا أضربت عن العمل أصابعه ، أو مرض ، وقع ملايين من النـــاس فى البؤس . واذا قل ماؤه فى السماء هلكت الآلهة نفسها ، وهلك الناس ، واستولى الذعر على المواشى ، وصار كل من فى الأرض كبيرا أو صغيرا يعانى العذاب .

« أما اذا أجيبت دعوات الناس ، فعلا النيل ، وصار لهم خنومو ٠ فان الأرض حين ظهوره تصيح ابتهاجا ، وكل بطن يفرح ، وكل ظهر يهتز من الضحك ، وكل سن يقطـــع ٠

« هو النيل جالب الخيرات ومفيض الكثير من المأكولات ٠ هو موجد جميع الأشياء الطيبة ٠ هو سيد جميع النطف والجرائيم ٠ هو حلو للذين يصطفيهم ٠ هو موجد العلف للمواشى ، والقرابين لجميع الآلهة ٠ والبخور الذى يأتى منه أجود من كل بخور غيره ٠ وانه ليفيض على البلدين ٠ فتمتلىء مخازن الحبوب وتزدحم المستودعات وتتوافر حاجات الفقراء ٠

« انه ليضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص شيئا منها ٠ وهو منشىء السفن ٠ وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب من الحجارة أو أن تنحت له تماثيل يوضع له التاجان عليها ٠ وهو لا يراه الراؤون ٠ ولا يدفع له الناس ضريبة ، ولا يقدمون له هدايا ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفيــة ، ولا يعرفون مكانه ولا يقفون بالكتابات السحرية على صندوق ذخائره المقدسة ٠

« وما من بيت يمكن أن تتسع له جوانبك يا حابى ، ولا من انسان يدخل قلبك ٠ وأبناؤه وذراريهم يبتهجون بك لأنك تحكم كملك تسرى أوامره على الأرض كلها ويظهر أمام أهل الجنوب وأهل الشمال على السواء، ويجفف الدموع من جميع العيون ، ويبذل خيراته بغير حساب ٠

« وأينما يوجد الألم فأنت تحوله الى فرح ٠ وحينئذ يبتهج كل قلب، ويقفز سوفكو ، التمساح ابن نيت من الطرب لأن التتسيع الالهى الذى يرافقك ينظم كل شىء ٠ فالفيضان الكافى يروى الحقول ويبعث النشاط فى الرجال ، واذ ذاك يرتوى كل رجل بعمل أخيه من غير أن يتحاكم معه الى القضـــاء ٠

« واذا كنت تدخل فى خلال الأغانى ٠ وتخرج من خلال الابتهاج ، ثم اذا كان الناس يرقصون طربا حينما تخرج من العالم المجهول ، فذلك لأن تثاقلك اضمحلال وفساد ٠ واذ ذاك يجتمع للابتهال اليك والحصول على مائك السنوى ٠ أهل طيبة جنبا الى جنب مع أهل الشمال ، وكل واحد منهم يحمل آلات مهنته ، وليس فيهم من يتأخر عن جاره ، ولا من يلبس

ملابس الأعياد التى كان قد تعودها · وأبناء توت اله الغنى ، لا يتجملون بالحلى · ومثلهم التتسيع الالهى · والليل عام شامل ولكن متى بسطت فيضانك تحلى الكل وتعطروا ·

« أيها المعطى الخيرات الحقيقية ، ومن تتجه اليه رغبة الخلق ، ها هى دى كلمات مزوقة لكى تجيب ، ان أنت أحببت وأعطيت أمواج الأقيانوس السماوى ، فان نابرى اله الحبوب يقدم قربانه ، والآلهة جميعا يعبدونك، والطيور لا تتردى على الجبل ·

« لو أن ما تعجنه يداك كان ذهبا ، أو قوالب من الفضة ، لما أكله الناس ، لأنهم لا يأكلون ذهبا ولا فضة ولا لازورد ، وانما يأكلون قمحا هو أفضل من الحجارة الكريمة ·

« لقد بدءوا ينشدون باسمك على القيثارة ، مستلهمين صدى التصفيق بالأيدى · وهؤلاء هم ذرارى أبنائك يفرحون بك ، ويمطرونك برسائل الثناء عليك·ولا عجب ، فان اله الغنى هو الذى يزين الأرض ويبسط الخير للسفن ، ويبعث الحياة فى قلوب النساء الحاملات ويحب أن يتكاثر عدد القطعان ·

« حينما ظهرت فى مدينة الملك شبع الغنى ، ولم يعد الصغير يعبأ بأزهار اللوتس ، وصار كل شيء ثابتا ومن صنف جيد ·

« انه النيل ، لأبنائه جميع النباتات ، واذا هو لم يطعم الناس هجر النعيم المساكن وأصيبت الأرض بالاضمحلال » ·

أسطورة سميراميس

أسطورة أشورية

ح ٦٠٠ ق.م

« لقد خلعت على الطبيعة صورة امرأة ولكن أعمالى قد فاقت أعمال أشجع الرجال »

اختلف المؤرخون في حقيقة سميراميس ، فقال بعضهم ان وجودها خرافة ، ويؤكد آخرون أن الأعمال التى تنسب اليها متداخلة فى تاريخ الآشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهرى دجلة والفرات ٠٠ أما المنقبون عن الآثار فيرون أن سميراميس الهة أسطورية شرقية ٠٠ هى عندهم كفينوس عند الرومان ٠٠ وأن اسمها ، ومعناه الحمامة ، انما أطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها ، وهم يرونها رمز الحب والسعادة ، وفرح الرجال ، والظفر فى الحرب ٠٠ كما يعتبرونها وسيطا أسمى بين مبدءى الخير والشر على ظهر الأرض ٠٠ !

حتى جاء عام ١٩٠١ وكشفت البحوث التى قام بها البروفيسور « لهمان هوت » الألمانى عن حقيقة هذه الأميرة ، وأعادها الى مكانتها الرفيعة فى تاريخ آشور وبابل ٠ ووضع الأمور فى نصابها ٠

وقد استطاع البروفيسور لهمان هوت أن يفند الأساطير التى أتى على ذكرها كل من « ديودور الصقلى » ، و « جوستن » وغيرهما حول هذه الملكة ، ودلل على أنها كانت حقيقة لا مراء فيها ٠

★★★

ولكن ماذا تقول الأساطير عن سميراميس ٠٠ ؟ تقول :

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات فى جبال أرمينيا ، ففاض النهر ، وتدفقت مياهه ، وخرجت الأسماك تستلقى وتتمدد على أديم الأرض ٠٠

وبين تلك الأسماك ، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء ، فسبحتا اليها ، ودفعتاها أمامهما الى الضفة ٠٠ واذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة ، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا الى مجرى النهر ٠٠

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست ، ومن داخل البيضة خرجت الربة « ديركيتو » بوجه امرأة ٠٠ وجسد سمكة ٠٠٠ !

وأعجب الاله الأعظم بالربة الصغيرة ، بعد أن كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها ، وتمثل اعجاب الاله فى وعد قدمه اليها بأن تطلب منه أى شىء تريد ٠٠ ولم تدع « ديركيتو » الفرصة تضيع ٠٠ فسألته أن يخلد السمكتين اللتين أنقذتاها من الطوفان ٠٠ فرفعهما الاله الأكبر الى السماء ٠٠ وجعلهما ألمع نجمتين فى برج الحوت ٠٠ !

ورغبت الربة « ديركيتو » فى أن تحمل ٠٠ والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن ٠٠ وحملت الربة ، ثم وضعت طفلة لها جسد انسان كامل ٠٠ يشع من بدنها النور لروعة ما منحته من الوان الجمال ٠

واطلت الربة « ديركيتو » الى ابنتها ٠٠ وملأها الذعر ٠٠ وقد أثار رعبها الا تكون طفلتها فى شكلها الالهى ٠٠ مما يجعل الربات الأخريات ينظرن اليها بعين الريبة والشك ، ويعيرنها ، ويتهمنها بما هى منه براء ٠

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة الى البادية ٠٠ حيث تركتها هناك عارية مهملة ٠٠ ليس حولها من شىء على الاطلاق سوى البرد والريح والزمهرير ٠٠ والجوع القاتـل ٠٠ !

وكان بيلوس ٠٠ اله نينوى العظيم ٠٠ يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى فى العراء بغير سلاح أو معين ٠٠ فارسل من السماء رسوله « ينبو » يرعاها ويحميها ، ويحمل معه سربا من الحمائم يرف بعضها عليها باجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل ، وتنطلق الأخريات الى حيث ينزل الرعـاة فتحمل اليها بمنـاقيرها نقطـا من الحليب تقطرها فى فمها لتغذيها وتروى ظمأهـا ٠٠٠ !!

ومع مرور الشهور والسـنين ، تحولت الحمائـم الى الأمكنة التى يضع فيها الرعاة ما يصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ما تسع مناقيرها، لتقدمه للطفلة التى عاشت مع حمائمها سعيدة لا تعرف قط طعم الشقاء ٠

وكان الرعاة اذا عادوا فى المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون ، ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا أن يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون ٠٠

وشهد الراعى الحمائم وهى تحط حول الجبن وتلتقط قطعة صغيرة فتحملها بمناقيرهـا الى مكان تطير اليه · وأخبر الرقيب رفاقـه فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا الى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة·· فاخذوها الى خيامهم ، واتفقوا على أن يحملوها معهم حيث يبيعونها فى سوق « نينوى » العظيم ··

وحمل الرعاة الصبية الحسناء الى نينوى ·· وكانوا قد سموهـا سميراميس ·· وهى تعنى الحمامة البيضاء ·

واتفق أن كان يوم وصولهم الى المدينة يوم الزواج الذى يقام كل عام ، حيث تجتمع فى السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحى المملكة ، لينتقى كل شاب عروسـا شابة ، أو ينتقى صـبية يحملها الى داره فيربيها الى أن تبلغ سن الزواج ·· فيتزوجها ·· أو يقدمها عروسـا لأحـد بنيـه ·· !

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسـناء الى حيث يعرضونها للبيـع ·· وبينما هـم يضـعونها فى أول الصف ، اذ شاهدهم « سـيما » ناظـر مرابط خيول الملك ، وكان « سيما » عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه الى سميراميس ، ورغب فى تبنيها ·

ودعا « سيما » الرعاة وساومهم على ثمنها · وعندما تمت الصفقـة حملها الى منزله ، فما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها ·· وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت ·· وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء ·· !

★★★

وذات ربيع ، جاء مينوتس ــ قائد الملك ووزيره ــ الى مرابط الخيل يتفقدها · وشهد الوزير « سميراميس » الحسناء فراعه جمالها وبهاؤها وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور ·· ورنت اليه « سميراميس » بفتور يحمل الدعوة ، فوقف الوزير فى مكانه حائرا مبهورا ·· حتى انتبه الى نفسه آخر الأمر فدعا الفتاة وسار بها الى حديقة القصر يتحدث اليها وتتحدث اليـه ·

وانطلقت « سميراميس » على استحياء تتبع الوزير ، وعندما وقف فى بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام،ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه،واخذ يسألها من تكون ٠

ولم تستطع « سميراميس » أول الأمر أن تجيب ٠٠ ثم لم تجد الا أن تقول له انها ابنة ناظر المرابط الملكية ٠

ونادى الوزير على سيما ، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر ٠٠ واضطر الى أن يقص قصتها كاملة على الوزير ٠٠ منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم فى البيداء ٠٠ حتى اتخذها ابنة له ، لا يطيق فراقا لها أبدا ٠٠ !

وأحس الوزير من طريقة الرجل فى الحديث ، أنه لا يمانع فى تركها مقابل مبلغ كبير ٠٠ فأخرج « صرة » من المال قذف بها اليه ٠٠ ثم انطلق بالفتاة فى الطريق الى العاصمة ٠

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا ، وعندما بلغ القصر كان أول مافعله أن سلمها للمزينات والماشطات ، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها الا فى كنوز الملك ٠٠ وأخذتها نساء القصر الى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر ، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلته على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر ٠٠ ثم ألبسنها الأرجوان الفينيقى الموشى بالذهب وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ما عرفت « نينوى » من عرائس ٠

واحتفل « مينوتس » بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل ٠ وكان لابد أن يصبح لسميراميس المقام الأول بين محظيات الوزير ونسائه ٠٠ حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولا يطيق عنها فراقا لحظة ، وكأية امرأة، استطاعت سميراميس أن تغذى ذلك الشوق والحب وتستغلهما لتتحكم فى الرجل الذى عبدها ، فخضع لرغباتها ، واحترم أفكارها ، وصار يأخذ بآرائها فى كل ما يلم به من أحداث ومهام !!

ومرت الأيام ، وسميراميس كل شىء فى حياة الوزير ٠٠ وكل شىء أيضا فى حياة الجماهير ٠ الا أن شيئا أكثر من جمالها كان سببا فى تعلق الشعب والوزير بالعروس الالهية ٠٠ هو ذلك النصر الذى استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها ٠٠ عندما عرفت كيف تسقط أضخم حصن من حصون الأعداء ٠

★★★

من النصر الى المجد

كان ذلك يوما خالدا فى تاريخ البلاد.وكان الملك « نينوس » قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه ، وراح يبحث عن السبيل الى أمجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته الواسعة الأطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه « مينوتس » على تجنيد جيش كبير ضخم ، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة ، ثم لم تمض أيام أخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخما بالغ القوة لا قبل لأحد به على الاطلاق ، فلم يكن عجيبا ألا تثبت أمامه بلدة أو جيش ، الا أن الذى أثار « نينوى » وأغضب ملكها ، هو أن ذلك الجيش الضخم ، وعلى رأسه القائد ، والملك نفسه ، عجز من اقتحام عاصمة الأعداء .. « بكتريا » لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الأسوار المحيطة بالقلعة الشامخة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحاما ، ومع ذلك فقد أبى الملك الا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله ، ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سميراميس ، أرسل اليها يستدعيها لترافقه فى ميدان القتال .

وحضرت سميراميس ، ولم يعرفها رجال الجيش الا بعد أن تأملوها طويلا . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضىء . فقد كانت ترتدى ملابس الرجال على غير ما كانوا يعهدون .. !

وطلع صباح .. ووقفت « سميراميس » على باب الخيمة تتأمل العاصمة الرائعة التى أنهكت الجيش الذى لم يهزم أبدا ، ولاحظت سميراميس أن الهجوم كان موجها الى قسم المدينة القائم فى السهل ، لا ضد قلعتها ، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة ، وخطرت لها فكرة .. ألا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة..وهل يمكن أن تقوم هى نفسها بهذا الهجوم..!!

وانطلقت « سميراميس » الى الخيمة فأيقظت زوجها ، ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التى رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة .. !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليها فرقة قوية من الجنود اختارتهم سميراميس بنفسها وتقدمتهم الى اقتحام القلعة الشامخة ٠

وانقضت ساعة وبعض الساعة ٠٠ وانتبه الملك ، والوزير مينوتس ، والجيش جميعا ٠٠ فاذا سميراميس واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها أن تقدموا ٠٠ !!

وعرف الكل أنه النصر ٠٠ وادركوا أن المرأة التى قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التى انهارت ٠٠ وان العاصمة قد باتت بين أيديهم ٠٠

والتفت الملك الى قائده مينوتس يسأله :

ـ من تكون هذه المرأة يا مينوتس ٠٠ ؟!

وشعر مينوتس بدنو الكارثة ٠٠ وأدرك أن سميراميس قد راقت فى عينى الملك ، فسكت على رعب كأنه لم يسمع ، وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيب :

ـ انها زوجتى يا مولاى ٠٠ !

وعاد الملك الى العاصمة ٠٠ ودخل قصره ٠٠ وتفرق الجند والناس ٠ وأرسل الملك الى قائده يأمره بدعوة « سميراميس » اليه ٠ ولم يستطع الوزير الا أن يحنى هامته ٠

أما سميراميس ٠٠ فقد وجدتها فرصة للوصول الى المجد الذى طالما حلمت به ٠٠ وحملت على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود ، وتصاحبها فيها وصيفتان جميلتان ٠٠ هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة أمامها تلبى الرغبات ٠٠

وعندما دخلت على الملك ٠٠ ووقعت عليها عيناه فى إتكاءاتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها ٠٠ انهار قلبه فى هوى عربيد ٠٠ زادت هى من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور ٠٠ لم يدع له مجال الاختيار ٠٠ !

وعندما صارا وحدهما ٠٠ اتفق معها الملك على أن تترك زوجها ٠٠ لتكون له وحده ٠

وعادت سميراميس الى قصر زوجها وفى أثرهـا رسول الملك يقول لمينوتس :

— ان سميراميس قد راقت فى عينى الملك ، فهو يريد أن يراها فى قصره بين محظياته ونسائه ٠ فاذا كنت فى حاجة الى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك ما يمنعـه من أن يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس ٠٠ !

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التى لا يمكن أن ترد ، ولبث أمدا لا يدرى ما يفعل ، واستدعى سميراميس زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك ٠٠ فاذا بها تشير عليه بتلبيتها ٠٠ على أن تسعى هى خلال اقامتها فى البـلاط ٠٠ بما أوتيت من فطنة ودهاء ٠٠ لعلها تقنـع الملك باعادتها اليـه ٠٠ !!

ونزل القائد على اشارة سميراميس ٠٠ وكله حزن ويأس ٠٠ ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر فى محفتها ٠٠ حتى اسودت الدنيا كلها فى عينيه ٠٠ وانطلق الى شجرة قائمة فى أقصى المدينة ٠٠

ومن غصن قوى من أغصان الشجرة العجوز ٠٠ تدلت جثة لم تجد من يواريها التراب ٠٠

وكانت هى جثة الوزير ٠٠ الذى حكم على نفسه بالاعدام ٠٠ !!

حب المجد والسلطان !!

بلغ الخبر « سميراميس » وهى بعـد لا تزال فى طـريقها الى قصر الملك ٠٠ ولكن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه ٠٠ أبدا ما أحبتـه قط ٠٠ وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ، والسلطان، والسيطرة، وهى تستطيع أن تجدها جميعا فى قصر نينوس٠٠!

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبـل أبدا ٠٠ وعندما دخلته كانت تعلم أنها لن تكون أولى المحظيات فحسب ٠٠ بل ستكون هى وحدهـا الملكة ٠٠ ولا محظيات سواهـا ٠٠

وكان هذا هو بالضبط ما حدث ٠٠

فقد عرفت « سميراميس » اللعوب كيف تجعل الملك يكتفى بها هى وحدها ‥ ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن ‥ كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس ‥

ورفعها الملك من محظية الى ملكة ‥

وولدت له الملكة ولدا أسماه ميناس ٠

وظلت الحياة تسير ٠

عرفت « سميراميس » كيف تجعل من نفسها كل شىء فى قصر الملك ‥ وعرفت كيف تجعله لا يطيق فراقا لها لحظة ‥ حتى ولو كان خروجا للحرب ‥ أو لاخماد ثورة فحسب ‥

غير أن خروجها معه فى كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا ٠ فقد كان يستعمل فى حروبه أبشع وأقسى أنواع التنكيل والارهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل وآشور ‥ فكيف تطيق وهى التى رعتها حمامات السلام فى البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك‥وفى كل مكان‥؟!

وكان آخر ما شهدته من حروب الملك، عندما خرج الى بلاد الطورانيين الثائرين عليه ‥ فعندما ظفر بأعدائه وفتحت له أبواب مدينتهم ٠ أمر بسلخ جلود كل الشبان وهم أحياء ‥ وعلق الجلود على جدران بناهـا أمام أبواب المدينة الثائرة ٠ ولم يكتف الملك الوحشى بكل ذلك ، فقد أمر بقطع رءوس الثوار ‥ ونظمها فى حبل على شكل عقد ، وحكم على من بقى حيا من الرجال بأن يأكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم ‥ أما من أبى فقد قطع أنفه وأذناه وشفتاه ‥ ثم سيق مع الآخرين الى العاصمة ‥ ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين ‥ !!

ولم تطق « سميراميس » كل تلك الفظائع ‥ وكرهت الرجل الذى عرفت فيه أقسى من وجد على ظهر الأرض ٠ ودفعتها تلك الكراهية ـ جنبا الى جنب مع حب الطموح والسـيطرة ـ الى أن تسـعى للتخلص من هذا الزوج ‥ عن أي طريـق ‥ !

ملحمة الراماينا

فالميكي

ح ٤٠٠ ق.م

مصـــــادر الأدب الهنـــدى

كانت السهول الفسيحة القريبة من بحر قزوين فى الماضى السحيق موطنا لطائفة من قبائل الرعاة ، تربطها وشائج القربى ، واتحاد اللغة . وكان يسمى بعضهم بعضا (آرياس) أى الأصدقاء . ولكن سرعان ما دب بينهم التنافس ونشب القتال ، وانتهى الأمر ببعضهم الى الهجرة جماعات جماعات ، وأخذوا يضربون فى مسالك الأرض شرقا حتى ألقوا عصـــا التسيار فى غاب كثيف فاتخذوا الفؤوس من الصخر القاسى الغليظ ، يحطمون بها الشجر ثم يحركون بأغصانها التربة ويفلحونها ، وبهذا تحول هؤلاء الرعاة الرحـــل الى فلاحة الأرض ، لكن فلاحة الأرض لبثت زمانا طويلا مزدراة لا تليق بغير العبيد . ولهذا أخذ سادة هؤلاء الرعاة يملكون الأرض ويستخدمون الطبقات الوضيعة فى حرثها وفلاحتها .

ولكن هل تقنع تلك القبائل الراحلة الطامحة ببقاع ضيقة محصورة فوق الجبـــال ، وعلى مقربة منهم — فى الشمال الغربى من بلاد الهند — سهول خصبة غنية تمتد ما امتد البصر ؟ الى تلك السهول الفسيحة الخضراء شدوا الرحال فلقيهم أهلوها « الداسيون » بعنف المستميت فى الذود عن حياضها ، لكن ماذا تجدى الحماسة أمام قوة الغزاة ؟ فلهؤلاء الآريين كتب النصر ، فاستقروا وطاب لهم المقام وأصبح يطلق عليهم فيما بعد اسم الهندوس . وأما «الداسيون» فقد خضع منهم فريق استخدمه السادة الظافرون فى فلاحة الأرض ، وهم من أطلق عليهم فيما بعد اسم «شودرواس» وهم أدنى طبقات الهنود ، وأبى فريق آخر أن يستسلم فلاذ بالفرار الى الدكن ، وأوى الى مستنقعاته وغاباته حيث لا يزال الى اليوم رابضا .

وكانت هذه الحرب بين الآريين الغزاة وأهل البلاد الأصليين مصدرا لطائفة كبيرة من الأساطير والأغانى والترانيم والدعوات ، أخذت تتجمع على مر الزمن وتكتسب قداسة فى أعين الهندوس ومنها يتـــألف « الفيدا » الذى هو الكتاب المقدس عند الهندوس ، وعقيدتهم فيه أنه وحى من الله أوحى به الى قادة العهد الغابر وأنبيائه ، وعن هؤلاء تلقاه « البراهمية » ،

وهم طبقة الكهان الذين أخذوا على أنفسهم صيانة الفيدا من الدنس . والترانيم التى فى الفيدا دعوات موجهة الى قوى الطبيعة ، فهذا الفجر الذى يبدد ظلمة الليل وينشر ضوءه على جبين الصباح ، وهذا الغروب الذى ينعش النفس المكروبة بعد عناء النهار وشمسه المحرقة ، وهذا الغيث الذى ينبت لهم الحب ، كل هذه نعم تستوجب الحمد ثم ماذا يجنب القوم غضبة الصواعق وثورة العواصف غير الترانيم الدينية والقرابين ؟ ففى الفيدا صلوات ودعوات ليكثر الله الحب والماشية ويطيل الاعمار ويبارك الأبناء ، وفيه دعوات لله أن يكون للآريين مولى ونصيرا ، وأن يكون على الأعداء نقمة وبلاء ، وفيه ترانيم عن الحياة الآخرة وخلود الروح .

وبعد أن استقر الأمر للهندوس فى سهول البنجاب ، استأنفوا الزحف شرقا وأسسوا ممالك على ضفاف الكنج ، وغلبت منهم قبيلتان على غيرهما من القبائل هما : « بانجالا » و « بهاراتا » ، ثم نشبت بين القبيلتين حروب فى الوقت الذى كانت فيه جيوش الاغريق تحاصر مدينة طروادة ، وهذه الحروب هى موضوع ملحمة شعرية طويلة يمتزج فيها التاريخ بالأساطير وتسمى قصة « ماهابهاراتا » .

ولم تكن أغانى « ماهابهاراتا » وحدها مستأثرة بألسنة المنشدين ، بل قامت الى جانبها قصيدة أخرى أوسع منها انتشارا بين عامة الهنود ،وهى قصيدة تروى مغامرات (راما) وشاعرها هو « فالميكى » ، ولئن كان أساس « ماهابهاراتا » هو الفروسية فى الحروب ، فان محور « رامايانا » هو الحب معينا لاينضب للمسرح مدى ألف عام أو يزيد .

ويختلف الباحثون فى تاريخ الرامايانا فمنهم من يقول انها ترجع الى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ومنهم من يقول انها ترجع فقط الى عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، وهى ملحمة كتبها شاعر الهند العظيم « فالميكى » الذى تحتفل الهند الحديثة بذكراه احتفالا قوميا كل عام ، والرامايانا واسعة الانتشار بين كل طبقات الشعب الهندى، تحكى للأطفال قبل النوم وكثيرون يرتلون جزءا منها كل يوم وتروى شعرا فى الأعياد والمناسبات وتقدم دراما غنائية راقصة على خشبات المسارح كاحدى روائع الأدب العالمى عبر العصور ، ويجمع (الهندوس) على أنها « كتاب فلسفتهم الخالدة » ، مبرهنين على

ذلك بأن شخصياتها الشريرة ما تزال تتغلغل حتى اليوم فى كل العالم ٠٠ سواء فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، بل وفى شتى الطبقات الاجتماعية وحتى بين أفراد الأسرة الواحدة أينما يوجد الانسان ٠

وقد كان لهذه الملحمة تأثير كبير على شعراء الهند عبر العصور ، فقد استلهمها بعضهم ليكتبوها مرات أخرى عديدة ٠٠ كل منهم بحسه وشاعريته الخاصة ، ولما كانت الهند بلادا متعددة اللغات وكل لغة من لغاتها تغطى مساحة محدودة من أراضيها الشاسعة ٠٠ فانك تجد الرامايانا الأصلية والرامايانات المستلهمة منتشرة فى كل اللغات الهندية الخمس عشرة ٠

ولقد قضى الشاعر الفيلسوف الناسك « فالميكى » سنوات عديدة من عمره فى الغابة يكتب ملحمته الرائعة وسماها «الرامايانا» ، نسبة الى بطلها « راما » ، وقد بدأ الشاعر ملحمته بنفس الأبيات التى تخيل أنها أمليت عليه من الخالق الأعظم « براهما » والتى تقول :

ستظل الرامايانا باقية ما بقيت الجبال ٠٠٠

وما بقيت على هذه الأرض مياه تتدفق عبر الأنهار ٠



وفيما يتعلق بالأبواب والفصول فى ملحمة « الرامايانا » يقول الأستاذ «رومش دوت» ـ باحث هندوكى شهير فى الآداب السنسكريتية ـ انها فى الأصل تحتوى على ستة أبواب فقط وتنتهى عادة بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة؛ ولكن الباب السابع الذى ألف بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو فى الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتى ، اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ٠

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوى على ستة أبواب أصلية وذيل فى الآخر يكون الفصل السابع ٠

ثم تنقسم الملحمة كلها والتى ألفت بالشعر الى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤ ألف بيت ٠٠ وبدراسة الباب السابع ، يظهر لنا بكل وضوح أنه ألف قبل الميلاد ، اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف فى مصر

« راما » البطل واخوته بالمرة ٠ وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ؛ ولكنها سجلت فى هذا القالب الشعرى فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ٠

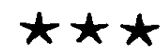
وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجــه التحديــد ٠

وقد جاء فى « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكى » الذى ساعد « راما » فى محنته فى الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهده البطولية، هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى « ايودهيا» ، ففى هذه الآونة لجأت اليه « سيتا » زوجة « راما » وماتت فى ديره ، لأن راما نفاها الى الغابة ولذلك أتيحت للراهب فرصة تربية ابنى « راما » اللذين عاشا فى كنفه تربية رهبانية ، وقد جال بخاطره فى هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد « راما » ومواقفه البطولية كلها بالشعر ، فبدأ فى نظمها وقد اســتغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما ٠ كلما قرض « والميكى » مقطعا حفظه ابنــا راما فى نفس الوقت ٠ وبهذا حفظاً الملحمة كلها والتى تتكون من خمسمائة مقطع تتضمن ٢٤ ألف بيت ٠ وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا فحضره « والميكى » مع ابنى راما ، اللذين أنشدا فى هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا » كلها ٠

وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها ، فأقبل النــاس على حفظها بشوق ورغبة منقطعى النظير، وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا ، الى أن سجلت كتابة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ٠

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين فى الهند فى القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى فى العالم ، لم تسجل انتاجها الأدبى والفكرى من أول وهلة ؛ بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرا طويلا وحفظتها الصدور زمنا غير يسير حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها فى الكتب ، بعد أن انقطعت الهند مرحلة طويلة فى ميدان العلم والفــكر ٠

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين، بل ساهم فى أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد ، كما هو الشأن لملحمة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهى « المهابهاراتا » ٠



ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحي الادبية والفنية في هذه الملحمة؛ وما من شك في أنها من أول نماذج الأدب والقصص فيالادب السنسكريتي، بل الأدب الهندي قاطبة ، وهي غنية بالأحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر النواة الأولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد ، مثل : « نالا » و « ساوتري » و « شكنتلا » ، وهي صادقة فيما تحكي عن نفسها في موضعمن المواضع ، اذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهي التي تغذي جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهي درة يتيمة للشعر والشعراء ٠

ان «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الاخلاقية والأعمال البطولية التي تمثل جوانب انسانية رائعة ، فيها الدرس والعبرة لكل انسان يقرؤها ، كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقة والعاطفة ٠ والهدف الاساسي فيها هو المرأة والبيت ، في حين أننا نجد ملحمة «المهابهاراتا» تدور حول الرجل والحرب، وبما أنها أقدم تراث وصل الينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها ٠

أما الناحية الفنية فيها فهي تعطي بوادر أولى وأسسا ثابتة للأساطير الهندية التي ظهرت فيما بعد ، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة المتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار ، والتي غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة « سيلان » الشهيرة التي منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين « الجنجا والجمنا » مثل «أوده وقنوج واله آباد» ، ولكن لايكاد يبين لنا في خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل « دلهي » و « أجين » اللتين لعبتا دورا كبيرا في الأدب السنسكريتي القديم ولا سيما في ملحمة « المهابهاراتا » ومسرحية « شكنتلا » ٠ وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق ٠ ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها ، مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها ٠

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود في هذه الفترة من الزمان ، فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري ، اذ مرت حياتهم حينا بالمادية البحتة وحينا

آخر بالروحانية المحضة ، وبما أن « الرامايانا » تصور أولى مراحل حياة الآريين فى الهند ، فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادىء السامية ٠

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الانسانية ، وتذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية ٠ والسبب فى ذلك أن الانسان فى كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة فى الايمان بالله وقدرته وجبروته فى هذا الكون ٠ ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيرا ، مما حدا به فى بعض الأحيان الى الكفر بالله والجرى وراء المادية والشهوانية ، وقد وقعت الهند فى هذا اللون من الحياة فى العصور التى تلت « الرامايانا » كما تصورها ملحمة « المهابهاراتا » ، وهذا هو السبب فى أن « كرشن » الشخصية الأسطورية فى هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة ٠

وحينما ننظر الى القيم الروحية والمبادىء السامية فى « الرامايانا » ، نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان فى هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك ٠

الأسطورة أو الملحمة

رامايانا هى أوديسة الهند فى تاريخ الأدب الأسطورى وهى أشهر أساطير الهند وأحبها الى النفوس ٠٠ وتتناول حياة بطل اسمه راما نفاه أبوه فى غابة الشياطين حيث لقى من المصائب والأهوال ألوانا شتى ، ونشب صراع جبار بينه وبين رافنا ملك الشياطين الذى تمكن من خطف زوجته ، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم ليأس أبدا ٠

والهندى يعتبر رامايانا كتابا مقدسا ويعتبر راما صورة مجسدة للالوهية ولا يزال يتوجه اليه بالصلاة،وهو حين يقرأ الأسطورة انما يشعر بأنه يستمد من قراءتها سموا دينيا ، كما يستمد متعة أدبية وارتفاعا خلقيا ٠٠ اذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعا وتجعله ينجب ولدا حتى ولو كان عقيما ٠٠ !!

كان الجميع سعداء الا الملك ٠ فبرغم العصر الذهبى الذى كان يعيش فيه كل الشعب ، الا أن شيئا واحدا كان ينغص على الملك الحياة ٠٠ فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد يتولى من بعده عرش البلاد ٠

ولقد كان سكان مدينة « أيوذيا » يعرفون تلك الحسرة التى تأخذ بقلب الملك « داشاراذا » سيد بلاد « كوسلا » ٠ الا أنهم ما كانوا يملكون شيئا قط سوى أن يرفعوا أيديهم ، وهم يقـــدمون القرابين يدعــون « براهما » أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد ٠

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين ٠ فذات يوم بينما كان الملك مجتمعا بكهنته يقدمون القرابين لبراهما ، اذ ظهر الاله « فشنو » فى شكل نمر ، متربعا وسط النيران وقال للملك : خذ هذا الأرز المقدس ، واللبن الحليب ، ووزعه على زوجاتك فقد أرسلنى براهما لأبشرك بغـــلام اسمه راما يكون له ثلاثة اخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات ٠٠ !

وحمل الملك اللبن والارز الى زوجاته ، وقسمه عليهن فلم تمض ايام حتى أنجبت (كوشالا) زوجة الملك الأولى ولدا سماه « راما » ، ثم تبعتها « كايكى » بولد سماه « بارتا » ٠ أما الثالثـة فقـد أنجبت ولدين هما « لاكشمان وساتروجنا » ٠

وعاش الاخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا ، ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه بارتا ٠

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة ، وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شىء ، ويدربه على أن يكون ملكا من بعده على كوسلا ٠ ومن أجل أن يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سيتا ٠٠ كبرى بنات « جاناك » ملك « ميثالا » ٠

والحق أن سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر ، غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك ٠٠ فقد كان ذات يوم يحرث بستان قصره بالمحراث واذا بالأرض تنشق من تحته وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان وأسنان تسطع بلمعة اللآلىء ، كانت هى نفسها سيتا ٠٠ التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة فتعهدها فى قصره حتى شبت وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناك ألا يزوجها الا لمن يستطيع أن يثنى القوس المقدس الذى أهدته الآلهة لاجداده الأقدمين ٠

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير أن أحدا لم يستطع أن يثنى القوس ·· فقد كان قوسـا ماردا عملاقا صنعه الاله شيفا لنفسه ثم أهداه لأجداد جاناك · ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة ولا المردة ولا الشياطين ·· كانوا يملكون القوة حتى تستطيع أن تثنيـه ·

وقـرر راما أن يشترك فى المباراة ، وانطلق الى ميثالا حينما كان الملك يستعد لاقامة عيد الضحية ·

وكان الشعب كله يحيى الملك حين دخل راما الساحة ، وأعلن عزمه على خطبة سيتا ·· ابنة الملك !

وتحولت اليه كل الأنظار ·· لقد كان صدره بارزا كليث ، وجسده فارعا كفيل ، وعيناه مهيبتين كنسر ·

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان يجرها خمسة آلاف عملاق ، ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه ، وارتعد الجميع ، فما كان أسهل ما انحنى القوس فى يد راما الذى ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه ، ثم تحطم فى صوت كالرعد وهزة كالزلزال ، حتى ان آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض عدا جاناك وراما والأميرة التى فتحت عينيها فى ذهول ·· !

وأقيمت الأفراح ، وأرسل جاناك الى جاره الملك داشاراذا يدعوه الى حفل الزواج ، فجاء ومعه أبناؤه الباقون ، وعندما عادوا الى ايوذيا ·· كانت مع كل منهم عروس أخرى رائعة··من بنات ملك ميثالا الجميلات ·

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا ·· حتى دخلها الشر عن طريق كايكى ·· الزوجة الثانية للملك ·· !

فذات يوم أعلن الملك أنه يدعو الشعب فى الغد لحضور حفل تنصيب ولى عهده ، وملأت الأفراح كل « ايوذا » التى امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب « راما » وزوجته الأميرة « سيتا » ابنة الالهة · غير أن قلبا واحدا كان يمتلىء غما وحسدا هو قلب الملكة كايكى ، فقد أحزنها أن يكون العرش لابن ضرتها دون ولدها باراتا الحبيب ·· !

ولعل تلك الغيرة التى ملأت قلب كايكى ، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز « منتارا » ، فقد أشعلت العجوز فى أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد ، وراحت تحرضها على التخلص من راما ليكون العرش خالصا لولدها باراتا ٠

وبكت كايكى غيظا ويأسا ٠٠ فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من اعلان ولاية العهد لأى ولد ٠ غير أن منتارا ابتسمت فى خبث وهى تقول :

ــ ان فى امكانك يا مولاتى أن ترغمى الملك على ايلاء العهد لولدك ٠٠ وارسال ابن ضرتك الى أعماق غابة الشياطين فلا ينافسه على العرش أبدا ٠

قالت الملكة كايكى :

ــ كيف يكون ذلك يامنتارا !

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمى الحقد،راحت منتارا تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال احدى معاركه مع شياطين الجن ، ففى ذلك اليوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان ، وتصادف مرورها من نفس الطريق الذى سقط فيه الملك غارقا فى لجة من الدم ، وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان ، وبذلت كل ما تملك حتى ارتد اليه الصواب ، وأخذت تعنى بجراحه حتى أنقذته من موت محقق ، وعندما شفى الملك تزوجها ، وأقسم أن يحقق لها أى أمنيتين تطلبهما منه ٠٠ فى أى وقت تريد ٠٠ ومضت الأيام والشهور والسنون ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئا بعد ٠٠٠

ودار رأس كايكى بنشوة الخمر ٠٠ وقد بدأت تدرك ما تقصد اليه منتارا ، واستمرت العجوز تقول :

ــ لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك أمنيتك ، اطلبى منه أن يتخلى عن العرش لولدك باراتا وأن ينفى راما فى غابة الشياطين أربعة عشر عاما ٠ وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يستأثر بحب الشعب ولا يخشى منافسة أخيه ٠

وانطلقت كايكى الى الملك تذكره بوعده ، وأقسم لها أنه لم يحنث فيه ، وأنه سيحقق لها فى الحال كل ما تطلب كائنا ما كان ٠ وهنا ألقت الملكة بالمفاجأة على رأس الملك الذى وقف كالمشدوه وما خطر بباله أنها تجرؤ على مثل ما تطلب الآن قط ٠٠٠

غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده ٠٠ وبقلب حطمته الأحزان أحنى رأسه للمرأة التى خدعته ٠٠ !

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك داشاراذا فيها رأسه ، ولقد اضطر الى احنائه مرة ثانية أمام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط ، فى انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد ٠ فاذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيرا محطما وهو يولى العرش لباراتا ، ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاما فى غابة الشياطين ٠٠ !!

وهتف الفتى فى حيرة :

ــ ولكن ما الذى صنعته يا أبتاه ٠٠٠ ؟!

وأشار الملك الى كايكى وكأنه يشير الى الشيطان ٠ وراح يقص على الجمع قصة الأمنيتين الخبيثتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع أن يحنث فيه ٠٠ !

واندفع باراتا نحو أخيه راما ٠ وأمسك بيده وهو يقسم أنه لا يمكن أن يمس عرشا من حق أخيه وحده ٠ غير أن راما هز رأسه وهو يقول :

ــ أبدا أيها الأخ الكريم ٠٠ لقد انتقل التاج اليك ، ولابد من تنفيذ الوعد الذى أعطاه أبى ، ستجلس أنت على العرش ٠٠ أما أنا فسأنطلق لفورى وحدى الى غابة وانداك فلا أعود الا متى انقضت الأعوام الأربعة عشر كاملة ٠٠ !

واندفعت سيتا نحو زوجها ، وسجدت أمامه تتوسل وتقول له :

ــ خذنى معك يا زوجى الحبيب ٠٠ فما أستطيع أن أعيش فى هذا المكان بعدك ٠ ان العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة ، وهى تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود ٠ ان سيتا ستهيم معك فى كل مكان فى الغابة ٠٠ فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله ،

انها لن تفكر فى بيتها لحظة ، أو فى أهلها ما دامت ناعمة فى حب الزوج الذى اختارها لتشاركه الحياة ، وستجمع الثمار البرية فى الغابة العبقة ، فطعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سيتا الوفية ٠

وكذلك فعــل لاكشمان ، فقد راح يتوســل الى أخيــه أن يأذن له بمرافقته ٠ فاذا لم يكن يريده صاحبا فليكن حارســا له ، ولســيتا من هجمات ســكان الغــاب الملاعين ٠٠ !

وحاول راما أن يثنى زوجته وأخاه عما أصرا عليه ، غير أنهما ظلا يلحان ويتوسلان ٠٠ ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتهما ٠٠ وانطلق الثلاثة معا فى الطريق الى وانداك ٠٠ غابة الشياطين ٠٠ !

★★★

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون ، حتى سقط الملك ميتا لفرط ما ألم به من حزن ٠ وبرغم أن كايكى ملأها الفرح لوفاة زوجها ، الا أن باراتا رفض العرش وأقسم الا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه ٠

ومضــت أعوام عشرة طويلة ٠ عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنايا الغابة الموحشة ، يقتاتون فاكهة ويجمعون عشبا ويصطادون طيرا وحيوانا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التى قيل انها تملأ الغابة ٠

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم ، اذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاى ٠ لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم ، وأقسم الا أن يستضيفهم أياما عددا ٠

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك ٠ وخلال الأيام التى قضاها لديه عرف راما أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذى يقيم فيه الناسك ، الا أنه لا يجرؤ على الاقتراب منه لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين ٠٠ ولعله كان أجدر براما ، أن يبتعد بزوجته وأخيه عن ذلك المكان ، غير أنه — وهو الشجاع الذى لا يعرف الجبن قط — أبى أن يستسلم للخوف وأقسم الا أن يستمر فى تجواله حتى تنقضى مدة النفى ٠٠ !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضـــان الا أن يمضـــيا فى طريقهما ، أقسم أن يساعدهما بما يقيهما شر الطريق ، فأخذ بأيديهما الى مغـــارة تحت الأرض حيث آلات حـــرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين٠٠فأعطاهما شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لا تحصى ٠ ومنح لكشمان سيفا ذهبى النصل يثير الرعب فى قلب كل من يراه ٠٠

وأخذ راما ورفيقـــاه طريقهم من جديد فى أعماق الغـــاب ، وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا وأحست حاجة الى الراحة ٠ وهنا فقط حط ثلاثة الرجال وقرروا أن يبنوا مســكنا صـــغيرا يأوون اليه وترتاح ســـيتا فيـــه ٠٠٠

★★★

ومرت الأيام سعيدة هانئة ٠٠ حتى كان ذات يوم ٠٠٠

كانت « سوريا ناجا » أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه فى الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجى زوجته وأحست « سوريا ناجا » نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تتحين الفرص لتنفرد به ٠ فلما واتتها الفرصـــة وراحت تصب فى أذنيه ترانيم الهوى ، صد عنها ورفض أن يستجيب لعـــاطفتها ٠

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التى تمنعه عنها ٠ وراحت « سوريا ناجا » تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها،غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع اليها ، وبحد ســـيفه البتار قطـــع أنفها وأذنيها ٠ وصرخت الشيطانة فى غضب ، وانطلقت تجرى والدم ينبثق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا ٠ وعندما عرف كارا الأمر أقسم لينتقمن وأرسل أربعة عشر تنينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة ٠٠٠

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة ٠ فان التنانين لم تكد تهاجم مقر راما ورفيقيه حتى نهض هو فخنقها جميعا بيديه بغير سلاح ٠٠٠

وهنا جن جنون كارا ٠ وأعلنها فى الغـــابة حربا شـــعواء على راما ورفيقيـــه ٠٠٠

خرج كارا على رأس أربعمائة ألف تنين ، يثير كل منها رعب عالم بأسره ٠٠ !

ولمح راما صفوف الجيش الزاحف فأمر زوجته وأخاه بالاختفاء ، ثم لبس درعه واستل سيفه وأخرج رمحه ووقف وحده ينتظر التنانين ٠

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر ٠ وتحتك حراشيفها فتخرج أصواتا رهيبة كالرعد ٠ وملأ الرعب قلوب كل من في الغابة ، الا راما الذي وقف صامدا تطل النبال من كنانته ٠ وظل ساكنا في وقفته حتى ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقترابا منه ، وهنا مد راما يده الى نباله وسهامه وراح يرسلها نارية عميقة على التنانين التي ملأها الرعب والفزع، وبدات تتراجع وتتلوى تتلمس النجاة ٠ غير أن سهام راما كانت تلاحق الهاربين ، وأخذت أرض الغابة ترتوى بالدماء ٠٠ والتنانين تتساقط واحد في أثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده وليس حوله أحد قط ٠٠!

واقترب كارا من راما ٠ ونشبت معركة عنيفة مهولة ، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة ٠ ثم فجأة رفع راما قوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا الى قلب الشيطان ٠٠

غير أن المعركة لم تكن لتنتهي عند هذا الحد ٠٠٠

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنبـاء مصرع أخيه وجيوشـه فجن جنونه ٠٠ ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ليقتلن راما ويمثلن به ٠

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبـة قاسية مع راما وصاحبيه ٠ غير أنه لم يكد ينهض حتى انحنى عليه أخوه « ماريشي » يحذره من قوة راما ، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التي منحها له الناسك ، ويقص عليه قصة الآلهة التي اختارته ليقضي على الجن والشياطين ويشتتهم أجمعين ٠

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور ، وانحط على عرشه ساخطا يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيـه ٠

ان له لعشرين ذراعا يستطيع أن يحمل في كل منها سلاحا جبارا ، وان له لعشرة رءوس يستطيع كل منهـا أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر ٠ ولكنه مع هذا أحس بالجبن فقد أقنعه أخوه « ماريشي » أن النصر لن يكون حليفه اذا دارت المعركة بينه وبين (راما) وجها لوجـه ٠٠

واذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال ! وراح كل رأس من الرءوس العشرة يبحث الأمر · وفجأة قفز رافانا فى فرح كبير ، فقد خطرت له بعد طول التفكير فكرة رائعة ، فقتل « راما » لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ، ولكن الذى يذله وينغص عيشه هو أن يفقد أعز شخص لديه ··· وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه مازيشى ليخطف سيتا ·· زوجة راما الحنون · !!

★★★

فى ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يتلمسون الظل ويتذاكرون بلادهم وأهليهم · وفجأة لمحت سيتا منظرا أطلقت له صيحة فرح · لقد كان هناك ظبى صغير يقفز على مدى البصر رائع الجمال له شعر يبرق كما يبرق الذهب ·· !

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمرأى الظبى · وعندما تمنت أن تملكه وتحتفظ به لأيام عودتها ، أقسم ليتأتينها به ·· حيا بغير جروح ··

وقفز « راما » من مكانه يعدو وراء الظبى ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا وألا يغفل الطرف عنها قط أو يتركها مهما جرى من الأحداث ·

وأحس الظبى بالمطاردة فاندفع يقفز ويعدو يظهر آنا ويختفى آنا آخر · والأمير من ورائه لا يريد أن يفلته ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسعى خلفه داخل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه ·

وظل الظبى يخترق قلب الغاب والأمير وراءه حتى أنهكه الجهد وأخذ به اليأس ، وأطل خلفه فاذا هو قد ابتعد تماما عن مكان زوجه وأخيه··وهنا فقط ملأه القلق وأحس أن فى الأمر مكيدة دبرتها له الشياطين ·· فقرر أن يعود ولكن بعد أن يقتنص الظبى بسهامه ويحمل جلده البراق الى سيتا الحبيبة ·· !

وأرسل « راما » سهمه المسحور فأصاب الظبى وأسرع يجرى نحوه ليحمله · وعندما اقترب منه وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان الظبى يتلوى على الأرض ويتحول شيئا فشيئا الى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته · وحدق « راما » جيدا الى حيث كان الظبى المحتضر - فاذا هو « مارتشى » نفسه ·· شقيق ملك الشياطين ·

وأحس « راما » فرحا ضخما عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول،فقبل أن يلفظ النفس الأخير أرسل فى الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما ؛ ليوهم بها من يسمعها بأنه هو « راما » نفسه يطلب النجدة والغوث .. !

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى اليه . فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان وخيــل اليهما أن « راما » يســتغيث بعــد أن دهمه خطر مخيف .

ونسى لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجرى الى الجهة التى خيل اليه أن الصوت يصدر منها ، بينما جلست سيتا تنتظر وفى قلبها هلــع وذعر .

ومضت لحظات ، راحت « سيتا » خلالها تلوم نفسها اذ أغرت زوجها بالسعى وراء الظبى . وبينما هى تفكر وتنتظر طرق سمعها وقــع أقدام تقترب منها ، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هرما يتوكأ على عصا ، وقد أحنت السنون ظهره وقوست قامتــه وقربت ما بين خطواتــه .

وطلب منها الناسك أن تاذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفى أدب ورفق أذنت له سيتا وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت اليه وهو يسألها عن سبب وجودها فى ذلك المكان ، وبرغم الدهشة التى ملأتها للسؤال الغريب ، طفقت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبى .

وهنا توقفت فى ذعر ، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم اذا بقامته تعتدل وظهره يستقيم ، واذا به ينتفض ليصير شابا قويا له عشرون ذراعا وعشرة رءوس .. !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافــانا نفســه . وانقض ملك الشياطين على (سيتا) وهو ينادى على مركبته ودفع الأميرة الى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو فى طريقها الى جزيرة سرنديب حيث مقــر عرشــه ... !

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوهة حائرة لا تكاد تعى . وأطلت فاذا ملك النسور يطير غير بعيد فاســتغاثت به وانتبه ملك النسور الى الاستغاثة ، فاذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة حملها فى عربته

السحرية الطائرة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ، غير أن الشيطان كان أسرع منه فطعنه فى جنبه بخنجر طعنة قاتلة سقط النسر على أثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق فى بحر من الدم ٠٠ !

واستمرت العربة تطير ، حتى اجتازت غابة وانداك ثم حطت قليلا على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرود ٠ وعندما استأنفت الطيران كانت الأميرة قد عمدت الى القاء وشاحها وعقدها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدى القرود ٠ ولم يتنبه ملك الجن الى سقوط الوشاح والعقد حين كان يسرع الى جزيرته ٠ أما هى فقد ملأها الأمل فى أن يعثر راما عليهما اذا كان قد نجا ، وتدله القرود على المكان الذى اتجهت اليــه ٠

★★★

بينما كان كل ذلك يحدث كان « راما » قد انطلق فى طريقه عائدا الى الوادى ، بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى ٠ وبينما هو فى طريقه اذ التقى بأخيه لكشمان الذى كان قد انطلق لنجدته ٠ وصرخ « راما » اذ وجــد أخاه وحده ، وراح يؤنبه اذ لم يستمع الى تحذيره وتوصيته بألا يترك « سيتا » وحــدها ٠٠ فقد كان أدرك أن المؤامرة قد نجحت فى ابعادهما عنها لينفرد بها « رافانا » ويخطفها ٠ وأسرع الأخوان الى حيث تركا الأميرة ، فاذا المكان خال وآثار المعركة بادية ولا شىء هناك سوى الكون ٠ !

لم يستطع « راما » احتمال الصدمة فسقط غائبا عن الوعى ٠ وعندما انتبه الى نفســه طفق يبكى ويصرخ ، وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى ٠ وأحس لكشمان خطورة الأمر اذا ما طال انتظارهما فى ذلك المكان ، اذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن ٠ فأخذ يدعو أخاه الى مغالبة اليأس والاسراع الى الجنوب حيث تقع مملكة « رافانا » التى يتحدث عنها الجميع ٠٠٠ !

أخذ الأميران طريقهما الى الجنوب ٠ وبينما هما يسيران ، اذا بهما يبصران شيئا ضخما يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم ٠ واقترب الأخوان يتأملان فاذا به ملك النسور يحتضر والدم لا يزال يسيل من جنبه ساخنا حارا ٠ واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح فقص عليهما القصة ، وأشار الى الطريق الذى سلكه ملك الشياطين ٠

وقبل أن يستأنف الأميران السير ، شقا بدفنا للنسر الذى فقد حياته وهو يدافع عن فتاتهما • ثم أمعنا فى السير الى حيث أشار لهما ، وبلغا آخر الأمر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران فى وسيلة لارتقائه • وبينما الحيرة تأخذ بهما اذا بقرد كبير يخرج عليهما من احدى مغارات الجبل ، ويسألهما عن سر وجودهما فى ذلك المكان • وقال له راما :

— ومن تكون أنت •• وما اسمك ؟

قال له القرد :

— أنا « هانومان » سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقى لهذا الجبل• فما الذى تبغيان من حضوركما الى هذا المكان !!؟

وقص عليه راما قصته • وهز هانومان رأسه وهو يقول :

— لقد رأيت بنفسى مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب • لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة فى اعياء بداخلها ، وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدها ، ربما لتدل الباحثين عنها الى المكان الذى اليه تطير •

وأخذ « هانومان » بيد راما • وانطلق به الى الملك سجريفا ، لعله يمد له يد العون • وبينما هم فى الطريق قص القرد على راما كيف أن « سجريفا » يعيش الآن مغلوبا على أمره ، وحوله قليل من الأتباع بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل •• ووعد (راما) القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية اذا هو وعد بمساعدته فى الوصول الى زوجته •

وكان هذا هو ما حدث بالفعل ، فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة • وحمل راما قوسه وسهامه ونباله فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذى اغتصب عرش أخيه • وبعد صراع عنيف استطاع « راما » الفوز بالنصر فهزم الغاصبين ، وأعاد سجريفا الى عرش الجبل••!

ومن أجل ان يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التى تضم آلافا من القردة العملاقة الهائلة الى جهات العالم الأربع ، وأمرها أن تسير فى الأرض باحثة عن المكان الذى نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة•

وكان على « راما » و« لكشمان » أن ينتظرا فى مملكة القرود عودة الجيوش الأربعة . وانقضت أيام طويلة كأنها السنون عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة ، ولم يبق غائبا سوى الجيش الذى كان قد توجه الى الجنوب ، وعلى رأسه هانومان سفير الملك الذى أخذ معه خاتم راما .

والحق ، ان جيش الجنوب ظـل يلقى من الأهوال والمخاطر ما لم يتصوره أحد قط ، ولقد بلـغ اخلاص هانومان لصديقه راما حـدا جعله لا يهتم أبدا بما يقاسيه هو وجيشه فى سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين . وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطىء المحيط ، وأطل فاذا هناك على مسـافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف .

وأدرك هانومان أن هـذه الجزيرة هى المكان الذى يسعى اليه . وبرغم طول المسافة التى تمتد بين شاطىء المحيط والجزيرة المسحورة ، قرر هانومان الوفى أن يقفز قفزة جبارة هائلة .. اما أن تصل الى الجزيرة ، وأما أن تورده الهلاك .. !

وكان هانومان يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتـلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطىء ثم قفز قفزة هائلة فى الهواء .. !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هانومان يصطدم بالسماء . واذا به قد عبر المحيط الواسـع وحطت قـدماه على شـاطىء جزيرة سرنديب .. !

وعنـدما أحس هانومان أنه قد نجح فى الوصـول الى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول الى قرد صغير ، حتى لا يلفت اليه الأنظار ، وأخذ يتنقل بين بيوت الشياطين باحثا عن قصر « رافانا » حتى بلغه ، وعندما اجتاز أسواره شهد سرادقا صغيرا يمتد فى حديقة القصر الواسعة ، واقترب من السرادق ومد بصره يتلصص فى حـذر ، واذا به يقف مبهورا يمتلىء عجبا فقد كانت سيتا هناك بارعة الجمال كملاك ترقد على فراش مريضة منهوكة .. ومن حولها ماردات من العفاريت يحرسنها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : ان صبره قد نفد لطول ما أمعنت فى رفض الزواج منه والاصرار على الوفاء لزوجها راما .. ! وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا ـ كما كان يعجز كل يوم ـ غادر السرادق وقد

أقسم أن لن ينتهي ذلك اليوم حتى يكون قد أرغم أنفها وأذل كبرياءها ، وما كاد رافانا يغادر السرادق حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ثم همس باسم راما ٠٠ وانتفضت الأميرة ، وتلفتت حولها ، فاذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك ، وظنت أنها كانت تحلم فاغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ففتحت عينيها من جديد ، فاذا بالقرد يخرج خاتما ذهبيا ما كادت تراه ، حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب ٠٠ ! وقبل أن تصرخ من الفرح ، كان هانومان قد أشار اليها في سرعة خفية يحذرها من الصراخ ٠

وأشار القرد من طرف خفي الى « سيتا » أن تنتظر وتطمئن ٠ وفهمت هي اشارته وعرفت أنها النجاة ٠ وغادر هانومان المكان ، وقد قرر الرجوع سريعاً الى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه « راما » لينزل النقمة بملك الشياطين ٠ ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى ملأت رأسه فكرة جديدة هي أن ينزل نقمته هو أيضا بمملكة الشياطين ويحطم كبرياء ملكها ويذله ٠

وفي لمح البصر رفع « هانومان » عن نفسه السحر فعاد قردا ماردا ضخما ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر ٠ ولم يكد يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب ٠ وأطل حوله فاذا هو وحيد ، وهم كثيرون وأدرك بعد فوات الأوان مقدار خطئه وتهوره وعرف أنه واقع لا محالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة فاقتلع من بهو القصر عمودا كبيرا من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ، ففرق شملهم ثم قفز في الهواء قفزة هائلة كان واثقا أنها تبلغه شاطىء المحيط ، الا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه ٠ وبرغم أن الاصابة كانت خفيفة الا أنها كانت كافية لأن تجعله يهوى قبل أن يبلغ الشاطىء ٠ فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال وقادوه الى « رافانا » الذي كان ثائرا يرغي ويزبد ويهتز كزلزال ٠٠ !

وأصدر رافانا أمره في الحال باحراق هانومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار في القطن الذي أحاط بذيله ٠ واشتعلت النار وبدأت تتسرب بطيئة الى جسد القرد ٠

وشهدت السماء ذلك العذاب الذي نزل بالمنقذ ٠٠ فأشفقت عليه ، وتجمعت السحب وأمطرت مطرا غزيرا ، كان فيه الكفاية لاخماد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن أحرقت النار وثاقه ففكت قيده ٠

وأقلعت السماء فجأة ، واطـل هـانومان فاذا طرف ذيله لا يزاله يشتعل به بعض النار ٠٠

وخطرت له فكرة جديد ٠ لقد كانت الأميرة تجلس فى سرادق بعيد عن القصر ، فلا خوف عليها اذا هو أحرق القصر نفســه ٠٠

ونهض لفوره وراح يقفز هنـا وهنـاك ، يدور بذيله فى كل اتجاه ويشعل النار فى كل شىء حوله وشبت النيران بكل جزء فى القصر ٠٠ ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول الى شعلة كبيرة هائلة ٠

وفى نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة بلغ بها شاطىء المحيط وأسرع فى مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل وراح يقص الأمر على « راما » الذى أسرع الى الملك (سجريفا) يطلب منه أن يمده بباقى الجيوش ٠

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطىء المحيط ووقفوا فى مواجهة جزيرة سرنديب ٠

وأطل الشياطين من بعيد وملأهم الرعب ٠ لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم وانزال الخـراب بقصر الملك ٠٠ فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القرود بالجزيرة التى ملأها هانومان وحده من قبل رعبا ٠٠ ؟!

وكان « رافانا » على يقين من الهزيمة بعـد أن تحالف ضـده راما وهانومان ، فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه ٠

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة ٠ ونهض « فهبشان » شقيق رافانا الأصغر ، يطالب بتنحية أخيه وتسليم « سيتا » الى زوجها ليحل السلام محل الحرب ٠ غير أن « رافانا » ثار عليه وكاد يقتله فهرب هذا من أمامه وقد أقسم أن ينتقم ٠٠٠

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطىء ٠ وانطلق الى « راما » يقص عليه قصته ويعرض عليه خدماته، وظنه « راما » أول الأمر جاسوسا، لولا أنه أشار عليه باقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر ٠

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير · واقتنع بصواب الفكرة ونفذها ··

ولم تكد تمضي خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر · وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش في جنح الظلام ·

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا · ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرحى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش « راما » الذى استعمل سهامه المسحورة فأخذت تعصف بالشياطين عصفا مخيفا ·

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين· وعندما وجد (رافانا) أنها الهزيمة امتلأ غيظا وحنقا وانتفض مقسما أن يقتل « راما » ولو كلفه ذلك حياته ·

ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا ·· وكان ملك الشياطين عنيفا في مبارزته حتى لقد بدأ راما ينهار وكاد يستسلم ·· لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه · وأخذ السهم طريقه سريعا الى قلب رافانا فأرداه ··

وردت نشوة النصر الى راما قوته ، وانطلق يجرى نحو السرادق الذى تقيم فيه زوجته يقوده هانومان الوفى · ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان··الا أنهما عندما انتبها كان الهدوء قد ساد المكان · وكان فهبشان الشيطان الحليف واقفا على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران ·· !

وانتصب « راما » قائما من جديد · وأصدر أوامره بالصفح عمن بقى من الشياطين ، على أن يحكمهم فهبشان ويمنعهم من الهبوط الى الأرض بعد ذلك ·· !

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة الى الوطن ، كانت الأنباء قد سبقتهم الى هناك على لسان هانومان ·· فخرجت أيوذا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا الذى رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة ·· وظل محتفظا به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما ·· وزوجته سيتا الحسناء ·· !

★★★

خطب ديموستين

ديموستين

٣٦٠ - ٣٢٢ ق.م

الخطب والخطباء على مدى التاريخ

الخطابة فطرة فى الانسان ؛ ولهذا لم تخل منها أمة حفظ التاريخ آثارها ، ففى الماضى البعيد كان بوذا يخضع الجماعات لكلامه المنزل وكانت نبوءات اسرائيل تهز الملوك والأمم ، وكانت اليونان حافلة بالبلغاء أى برجال قادرين على تحريك الشعب واثارته لعهد هوميروس وقبل ذلك العهد . ولكن فرقا عظيما بين هذه البلاغة الغريزية التى يولدها وحى الساعة ثم تزول غير تاركة أثرا والبلاغة العلمية التى امتازت بها العصور الراقية حيث كان الخطيب على حظ موفور من الفلسفة والتاريخ فكان يلقى خطابه بعد التفكير ويمكنه أن يكتبه فلا تزيل تلاوته من حسنه شيئا .

هذه البلاغة الناتجة عن درس واف وثقافة عالية وتمرين متصل أوجدتها أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ولا عجب ، فقد كانت أثينا حينئذ فى مكان سام من الحضارة وشرف باذخ .

وكانت فرص القول متعددة ؛ لأن الأعمال الاجتماعية كافة كانت تقضى جهارا أو يجادل فيها أمام الجميع وكانت المسائل العامة تدرس فى مجتمع الأمة ، حيث يحق لكل وطنى أن يبدى رأيه وكانت الدعاوى تعرض أمام المحاكم الشعبية فيباح الكلام لمن أراد حتى المتهم . أضف الى ذلك اجتماعات الأدب والعلم التى لم يكن للساسة ضلع فيها ؛ فكانوا يجتمعون بخطيب بارع يتحدث اليهم فى موضوع ما كالثناء على الأبطال الذين يموتون فى سبيل الوطن أو غير ذلك .

وأشهر خطباء هذا العهد برقليس وازدكرات وأشين وديموستين ، وقد كان كل من الآخرين زعيما لحزب سياسى ؛ فقضيا العمر فى عراك محتدم الوطيس والغاية واحدة هى استقلال الوطن .

كان فيليب ملك مقدونيا ينتهز فرصة الخلاف القائم بين اليونان للوصول الى اخضاعهم بالقوة أو الحيلة ، وكانت أثينا منقسمة على نفسها : فقسم محافظ على ماضيه المجيد غير راض عن فيليب ولكنه ضعيف الهمم لما ساور الأخلاق من التخنث فلا قبل له بالاقدام على أمر ذى خطر . وقسم يريد التحالف مع فيليب وكان ديموستين حاملا لواء الحزب الوطنى وأشين

الحزب المقدونى ، وهذا الاختلاف فى موقف الخطيبين خلع مسحة خاصة من البلاغة على كل منهما فلم يخل كلام أشين من الزخرفة ، بينما كان ديموستين كله روحا وعصبا . وكانت بلاغة ديموستين مرآة صادقة لخلقة القوى الشديد ونفسه الملتهبة : فكانت تنم عن عزيمة أدبية لا تقهر يصرفها ذهن صاف ومنطق محكم واباء عظيم ولسان هجام فكان تارة جادا وطورا هازلا يستخدم العقل حينا والعاطفة حينا آخر هادئا غضوبا ساميا بسيطا ، وحتى اليوم لا تزال خطبه حافظة أثرها ، فنشعر به عند قراءتها كأنما صوته يدوى فى آذاننا .

وكان صوت ديموستين آخر ما سمعته أثينا ، فان البلاغة لا تعيش بدون الحرية ، وقد جاء انتصار مقدونيا ضربة قاضية عليها فبقيت أثينا مدينة العلم والأدب وملاهى العقل ولكن منابرها أقوى من تلك النغمات الساحرة . ان الذى جعل أثينا عاصمة اليونان هى حيلتها السياسية فلما ذهبت أغراض السياسة منها ، أصبحت كباقى المدن وامتدت فتوحات الاسكندر ناشرة بنور اليونانيين فى الشرق فقامت عواصم جديدة كالاسكندرية وانطاكية وبيزانس،وبقيت أثينا كمعرض يؤمه كل من أراد الدرس أو التذكار .

ولم يبلغ خلفاء ديموستين شأوه فى الخطابه ولكن اليهم يرجع الفضل فى نقلها الى الذرية ، فان المدارس التى أقاموها فى الشرق كان يحج اليها الناس من كل صوب لتلقى هذا الفن وعلى هذا الوجه لقنوا الرومان أسرار بلاغتهم فتعشقها هؤلاء وأخذوا يدربون عليها فتيانهم كما يدربونهم على الحرب والحكم ، الى أن ظهر شيشرون الذى يعده العارفون أعظم محام لذلك العهد فأرجع للخطابة مجدها السابق وسطع نوره فى سمائها ، كما سطع من قبل نور ديموستين ، ثم هوت الخطابة ثانيا وانطوى بساط عزها باستبعاد أوغسطس روما كما استبعد فيليب والاسكندر أثينا .

ولما جاءت المسيحية بعثت فيها روحا جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء اذ قيل لهم سيروا فى الأرض وعلموا الأمم . وقامت الكنائس على آثارهم وكان هذا الدين الجديد فى حاجة الى ارشاد مستديم فنبغ خطباء بين آباء الكنيسة أعادوا للخطابة بعض عزها . ولكن لم يطل ذلك بما تطرق الى اللغة اللاتينية من فساد لغات غريبة هى لغات الأمم المختلفة التى دخلت تباعا فى المسيحية ، وأخذ العى يملك ألسنة الوعاظ فصاروا بنسخ الخطب القديمة والقائها حتى اذا طلع القرن السادس استيقظت الخطابة من ضجعتها وارتفعت أصوات جديدة كان لها أثر عظيم فى الجماعة وكان من نتائجها الحرب الصليبية . وبلغ من كثرة عدد الخطباء

لذلك العهد والمنافسة فيهم أن الخطابة تحولت الى واسطة للكسب وجمع المال والهدايا ، فنزلت عن مقامها السامى وأخذت معالمها تتلاشى الى العصر السابع عشر ، عصر بوردالو وفنلون وبوسيه ودعاة الاصلاح والندوة العلمية التى أنشأها الكردينال ريشليو ٠

وأجمل أيام الخطابة بعد هذا هى أيام الثورة الفرنسية فقد أطلعت فى عشر سنوات من الخطباء عددا لم يسبق به عهد ، وكان للبلاغة فيها من التأثير ما لم يعرف له نظير والسبب فى ذلك ضخامة المشروع الذى أخذت الثورة على نفسها القيام به ، ثم السلطان الفجائى الذى ألقى اليها الدهر مقاليده والسرعة الهائلة التى كانت تتعاقب بها الحوادث ، ثم شدة العراك يختلط به غريزة البقاء وأعمار الخطباء وأكثرهم فى شرخ الشباب٠ولم تكن مشاغل النفوس وأهوالها لتمنع أولئــك الخطبـــاء من العناية بالشـــكل والديباجة والباس أفكارهم حللا براقة من الألفاظ والتعابير بما اتصل بهم من تأثير العصر السابق : فكانوا يكتبون خطبهم قبل القائها،على أن ذلك لم يكن مانعا من الارتحال عند الضرورة فتجىء أقوالهم ملتهبة كنفوسهم وفيها على بساطتها من اخلاص الشعور وتأثيرات النفس ما يبعث القوة والحرارة ٠

ثم خفتت الأصـــوات بمن طاحت بهم الثورة من أمراء الكلام وجـاء نابليون ، وكان لا يحب الخطباء ، فلم يعد يسمع الا ضجيج المواقع الحربية ومن فوقها صوت واحد يملأ الكون هو صوت ذلك القائد العظيم ٠

أما اليوم فقد عادت الخطابة الى الظهور بنور أسـطع ومجد أكمل وامتدت أعراقها الى كل فؤاد ونشرت ألويتها فى كل ناد من قصور الأغنياء الى أكواخ الفقراء ، ومن معاهد العلم الى ملاعب التمثيل الى مجالس الأدب والطرب الى الأسواق ٠

وكان للعرب فى الخطابة نصيب وافر أتاحه جوهم وأحوال معاشهم وأخلاقهم وآدابهم؛فان الحرية التى وجدوا فيها واستنشقوا هواءها والحماسة التى طبعوا عليها والاحساس الشديد الذى اشتملت عليه نفوسهم ، جعل للبلاغة أثرا عظيما فيهم فكانت الجملة البليغة تقيمهم وتقعدهم بما تثيره فى خواطرهم من النخوة لحماية جار أو أخذ ثأر أو غير ذلك ٠

وكانوا متفرقين قبائل ونحلا ، متعودين على الغارات والحروب فوجدوا فى الخطابة عونا لهم على الحض والترغيب أو التنفير والمفاخرة أو المناظرة ، بل صارت عندهم مظهرا من مظاهر الفروسية يتباهى بها شجعانهم ويدرب عليها فتيانهم كما فى الرومان ٠

قال عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجماهير يقدم على الخطيب ؛ لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا فى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » .

ولم تكن الخطابة عندهم عن طول فكرة واجتهاد رأى ودراسة كتب بل بديهة وارتجالا ، وكان لهم بها غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان : « ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون ، الا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره ؛ لأن الخطيب انما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا قضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر ، فانه لا يضيع منه بيت واحد » قال : « ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام ، وهو أن النبى (ﷺ) هو الذى رواها عنه فأطار ذكرها ما تميزت عن سواها » .

وقال القلقشندى : « وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة ، فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل وسبق الى ذرى المجد ، ويخصون بذلك المواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والمجامع الحفيلة فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد الله ويثنى عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر أو فخر أو صلاح أو نظام أو غير ذلك مما يقتضيه المقام » .

وقال الحافظ : « ونحن — أبقاك الله — اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج فمنعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنمط الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك الا فى اليسير والنزر القليل . ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون

وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان ، لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير ، وأحرى أنك متى أخذت بيدى الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلص ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مفلق أو خطيب مصقع ، علم أن الذى قلت هو الحق وأبصرت الشاهد عيانا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عنى فهمك الله ما أنا قائل » ٠

وكان يسمى خطيب القوم الزعيم أو المدره ، وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة ، وعمرو بن كلثوم ، وأكثم بن صيفى التميمى ، والحارث ابن عباد ، وقس بن زهير وغيرهم ٠

ولما جاء الاسلام ساعد على انتشار الخطابة تأييدا للدعوة الكبرى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فكان لها من آى القرآن معين لا ينضب وأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلا أو اشارة أو تهديدا ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله ٠

واتخذت الخطابة حينئذ صنيعة غير التى كانت عليها فى الجاهلية فكانت لغتها أرقى وأصفى وعلا شأنها الى درجة لم يسبق لها عهد ؛ لانصراف العرب عن الشعر اليها واعتمادهم فى الدين والسياسة عليها ٠

وأعظم خطباء هذا العصر هم بعد النبى دعاته وقواده وخلفاؤه ٠

ولما ثارت الفتن بعد مقتل عثمان وافترق المسلمون أحزابا اشتدت الحاجة اليها عند كل فريق للدفاع عن مبادئه والطعن فى خصومه ؛ فكان فى الجانب الواحد العراقيون وعلى رأسهم على بن أبى طالب وفى الجانب الثانى الشاميون وفى طليعتهم معاوية ٠

ثم أخذت تضعف ملكة الخطابة بعد الفروغ من الفتوح والاستسلام الى الترف حتى صدر الدولة العباسية ، فاذا بالخلفاء ودعاتهم ينعشونها بعد الذبول وينهضون بها بعد الخمول كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وداود بن على وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه ٠

ولما استوثق الأمر لبنى العباس وقام الأجناب والموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيوش وقل النضال باللسان والسنان ، ذهبت البلاغة من الألسنة وحلت محلها الرسائل والنشرات ، وقصرت الخطابة على الجمع

والعيدين والأملاك • على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم الى عهد الخليفة الراضى ، وعهد بالخطابة والامامة الى الأكفاء من العلماء فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة كالبغدادى والتبريزى • ولما استعجم المسلمون وملك العى ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا انشاء الخطب فى الموضوعات المختلفة ، عمدوا الى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصرى وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها ، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى اليوم (راجع تاريخ الآداب العربية لزيدان والأدب للزيات والوسيط لأحمد الاسكندرى ومصطفى العنانى) •

واليوم بعد أن تنوعت أسباب الحياة وتعددت مظاهر الاجتماع وتبدل شكل الحكومات وتغيرت سلطة الحكام ، عادت الخطابة الى الظهور لابسة ثوبا آخر غير ثوبها الدينى ، فظهر فى الشام لعهد غير بعيد أديب اسحق والشيخ العازار وغيرهما ، وفى مصر عبد الله النديم والشيخ محمد عبده ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، أعظم خطباء هذا العصر الحاضر وأقواهم حجة وأبعدهم تأثيرا وأكثرهم بيانا •

★★★

حياة خطيب أثينا العظيم :

ان تمثال الخطيب العظيم القائم فى متحف الفاتيكان ، ليعد من الروائع الفنية الواقعية التى أخرجها العصر الذى انتشرت فيه الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان الأصلية ، فوجهه يبدو عليه الهم والقلق كأن كل نصر أحرزه فيليب (ملك مقدونيا) قد أحدث غضنا جديدا فى جبهته، والجسم نحيل منهوك ومظهره مظهر الرجل الذى يوشك أن يدعو الناس للأخذ بيده للدفاع عن قضية يرى أنه قد خسرها • وتكشف العينان عن حياة قلقة وتتنبآن بموت مدبر •

★★★

تعتبر حياة « ديموستين » نموذجا فريدا للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان • كانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته ؛ فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كونتيليان » ان طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب •

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة؛ ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام ٠

واذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا ، فقد اكتسب معرفة بالقانون واجراءات القضاء ، وامتلأت نفسه أيضا كراهية لكل ظلم واعتداء ٠ أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على « اسايس » ، الذى كان من علماء القانون والذى اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق ٠

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة ٠ لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظا من التعليم ثم قرأ كتب التاريـخ والأدب وأعجبته فصــاحة الخطباء وفتنــه ما يحظون به من تصفيق الناس واعجابهم،فتاقت نفسه الى أن يكون خطيبا، وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريـخ الى ولايات ومدن مســتقلة وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية،كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى:فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع اليهم الأمر فى شئون الحكم ٠ وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب الى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمرا يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام ٠

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير ، وانه ليطمح الى أن يكون خطيبا يشترك بفصاحته فى ادارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير فهو ضعيف الصوت قصير النفس مرتبــك فى اشارته ، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام ٠ وفى غمرة يأسه وحيرته صـــادفه « ساتيروس » الممثل الشهير ، الذى اكتشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء وقلب يشتعل حماسة ونفس تضطرم بالطموح ونفخ فيه من روحه وأعاد اليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه الا حسن الالقاء واجادة النطق وهو شيء يكسب بالمران ٠

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها « ديموستين » فى تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته طموحه الى التحليق ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل الى القمة التى يريدها ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس ٠

ويروى المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شـيد لنفسه حجرة تحت الأرض ، كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة وكان يقف أمام المرآة ليتخير الاشارات المناسبة وقت الالقاء ، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ويصعد الجبل عدوا وهو ينشد أبياتا من الشعر بصوت مرتفع أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج وكان يحلق نصف رأسه ؛ ليرغم نفسه على ملازمة حجرته بالشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا الى دراسته وتمرينه ٠

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية بل خطيب أثينا الأعظم !!

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه أصبح لسان أثينا، الذى ينفث السـحر ويلهب الحماسة حتى قال عنـه « فنيلون » المؤرخ الكبير :

« اننا اذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شىء يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ؛ لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا » ٠

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم ، يشعر فيها بصدق اللهجة والاخلاص الذى يوحى اليه الثقـة فى الخطيب ، ويروعـه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ويجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور ٠ وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى ٠

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريدا فى العالم القديم : فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار ٠

وقد خصص « دايونيسياس » بحثا عنه فقال انه سما بالنثر اليونانى الى حد الكمال ، بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق مدرسة « انتيفون » فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » فى الحماسة ، ومدرسة « ايزوكرات » فى التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته ، فما الدور الذى هيأه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه وقضى حياته كلها مجاهدا فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب ، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .

★★★

مراحل الكفاح السياسى :

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف الى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لم يطلبها لالقائها فى المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال اجازة رسمية فى الحقوق وطفق يترافع بنفسه فى مجالى القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة وكانت مناقشات المجلس الاثينى العام — وهو البرلمان الشعبى الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوق المدنية — ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد تدفعه الى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة الى النهوض بروح الشعب الأثينى ، الذى نبذ تقاليده وخمدت حميته وانغمس فى اللهو . كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى احداها على الأخرى ، ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولا أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لاصلاح

الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية وتزيد فى ثروة الدولة وتضاعف قوتها العسكرية،وأخذ يطالب باصلاح القوانين واجراءات التقاضى ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان. ومن كلماته قوله : « ان الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبدا أن تؤدى الى قوة حقيقية ، انها قد تؤدى الى سيادة وقتية ؛ ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف .. » .

الخطب الفيلبيـــة :

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ومات فى سبيله ، كان فى تنبيه الأثينيين الى خطر «فيليب» ملك مقدونيا ، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الاسكندر الأكبر ملكا لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ؛ فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحا شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الاغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستفز شعب أثينا للقتال ويحث شعب الاغريق على الثبات والنضال،وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيلبيات .

فلنستمع اليه فى خطبه الفيلبية الأولى يحاول أن يشـعل الحماسة والوطنية فى شعب أثينا فيقول :

يا رجال أثينـا ..

ربما كان فيكم من تهوله عظمة فيليب ويرى ما هو عليه من ضخامة الملك ، وقوة الجيش وكثرة البطش فيظنه لا يقهر ، فاذكروا أثينا وانه أتى عليها عهد كانت فيه أيضا عزيزة الجانب ، وكان لها من سعة السلطان ورفعة الشأن مثل ما له الآن . وهذه الأمم المنضمة اليوم تحت لواء فيليب كانت حرة تؤثر التحالف معنا عليه . فلو أن فيليب فكر يومئذ كما نفكر نحن

اليوم وقال فى نفسه لا طاقة لى على محاربة الأثينيين وقد ملأوا البسيطة عدة وعديدا ، لمـــا أقدم على عمل ولكنه لم يدع لهذا الفكر ممرا بباله ولا معلقا بخاطره ، بل عرف أن الفوز للجسور دون سواه .

فاذا كنتم أيها الأثينيون تريدون ان تقوموا اليوم بما قصرتم عنه أمس،اذا كنتم قد عزمتم العزم الأكيد أن تستقلوا غير متواكلين ولا متخاذلين فقد فزتم باذن الله وأصلحتم حالكم واسترجعتم مالكم.لا تحسبوا فيليب هذا الها لا ينال ، ان هو الا هدف دائم للبغض والحسد والخوف لا يأمن حتى أقرب المخلصين له فان من حوله بشر مثلكم لهم أهواؤهم وشهواتهم وعواطفهم المتباينة ولكنهم فى حاجة الى نصير . تلك الأهواء والشهوات قد ضغط عليها الخمول كما ضغط عليكم وهذا ما أسألكم أن تنفضوه عنكم.

★★★

الام يا رجال أثينـــا تظلون « غرضا يرمى وفيئا ينهب ؟ » ما الذى تنتظرون ؟ الساعة الموافقة ؟ وحق جوبتر لا أعرف ساعة أنسب لتحريك الهمم فى النفوس الحرة من ساعة الذل والهوان أتريدون أن تطوى أعماركم وأنتم تتساءلون ماذا من جديد ؟ ترحا لكم وهل من جديد مثل هذا المقدونى قاهر أثينا ومخضع الاغريق . تعللون النفس بالآمال ترقبون موت فيليب أو اعتلاله ، وتنسون أن ذلك لا يبدل من حالكم شيئا ؛ لأن ما يساوركم من الخمول والعجز والضعة لا ينفع لديكم الا أن يسلط (فيليب) آخر عليـــكم .

وله من خطبة أخــرى :

أيها الأثينيون .

رب معترض فيكم يظن افحامى اذا سأل : ماذا نفعل اذن ؟ أما أنا فأجيب ، لا تفعلوا شيئا مما تفعلون الآن وافعلوا كل ما لم تفعلوه ، على أنى سأزيدكم بيانا ، على الذين سارعوا الى السؤال أن يسارعوا الى العمل فاذكروا أيها الأثينيون ان فيليب نكث عهده معكم وكان البادىء بالعدوان ثم اذكروا أن فيليب هو عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وسماءها بل يكره منكم حتى أولئك الذين يغتبطون بأنهم نالوا حظوة عنده .

ان أبغض ما يبغضه فيليب وأخوف ما يتخوفه هو حريتنا هو نظامنا الديمقراطى وفى سبيل القضاء على هذه الحرية وهذا النظام ما فتىء ينصب الشراك ويدبر المكائد . هو يعرف حق المعرفة أنه لو أخضع بلاد الاغريق

بأسرها وبسط عليها سلطانه من أقصاها الى أقصاها ، لما جعله ذلك منها في جناح آمن ما دامت ديمقراطيتكم سالمة ، وهو يعرف أيضا أنه اذا خانته الأقدار يوما وقلب الدهر له ظهر المجن ، فكل هذه الشعوب التى أخضعها عنوة تبادر الى خلع نيره والانضواء تحت لوائكم ٠

أفي العالم ظلم يجب دفعه ؟ هاكم أثينا ! أفي العالم أمة مقهورة تطلب نصيرا هاكم أثينا أفتعجبون بعد هذا إذا كان فيليب لا يطيق صبرا على هذه الحرية التى تقف منه موقف الرقيب على جرائمه المحاسب على آثامه ٠٠!

وله خطب أخرى ، منها :

أيها الاثينيون ٠ حتى متى سكونكم واخلادكم الى التوانى ؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق ؟ انه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم ٠

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضا عما جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد انه مات ويقول الآخر بل هو مريض !! يا عجبا ٠٠ !! عجبا يمزق القلب أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعا ؟ ماذا عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا فى الشدة عليكم ٠ فان فيليب ما قوى اليوم الا بضعفكم ولا تحرك الا بسكونكم ٠

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول :

« لا تقولوا المرتزقة ٠ نريد رجالا أحرارا أنبتتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها،ومن أرضها كانت بدايتهم وفى أرضها نهايتهم ، منها خلقوا واليها يعودون كرة أخرى أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى » ٠

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو الى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :

« ان الحروب لا ضابط لها ولا قانون · فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الاغارة المفاجئة ؛ فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصه وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها · اذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله · أما الآن وقد عظم الخطب وتفاقم الأمر وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة الى تغيير هذه الخطة الخرقــاء » ·

وقد كانت الخطبــة وتهيؤ فيليب للاســتيلاء على حصن للأثينــيين بالقرب من بيزنطة باعثا لهم أثينا ، فأصدرت قرارا بتجهيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن فعدل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجــم بعــد ذلك « أولنتوس » وهى المدينة الوحيدة من دون بحر ايجه التى بقى فى وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا فأسرع ديموستين الى المنبر يدعو الى نجدتهــا ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب فيقول :

« انكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون اذا أخــذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلام للجميع · لا وحق أبنــائنا الأولين الذين قابلوا العدو عند (ماراثون) لا وحق بحارة « سالاميس » لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم فى أرض الوطن والذين كللوا هاماتنا بالمجد · أقسم بهم جميعا وبكل من مات فى سبيل البلاد ·· » ·

وقد استجابت أثينــا لندائه وأرسلت حملة عســكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود والمرتزقة · غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضــاة « أولنثوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة؛فأباحها للنهب والسلب وباع أهلها بيع السلع وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء وعادوا الى بلادهم ؛ فكانوا دعاة للهزيمة وأعوانا لفيليب ·

وبسقوط أولنثوس وفشل أثينا فى انقاذها ، قوى فى أثينا الحزب الذى يدعو الى مسالمة فيليب ، والذى يضم خليطا من الزعماء منهم المخلص ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذى كان صنيعة فيليب ·

وكان ديموستين قد انتخب عضوا فى مجلس الخمسمائة وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التى فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر الى مسايرة دعاة السلم فأرسلت أثينا وفدا للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليدوم ما دام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقى المدن الاغريقية ، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب،ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للقتال ويقول لهم :

ـ ان الصداقة التى تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التى يركن اليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون اذن أن ألقاب فيليب نفسها هى انكار لهذه الحرية التى تنشدونها ؟ ان كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون انكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكننى أخشى أن تقودكم هذه المحاولة الى الوقوع تحت نير الاستعباد .. » .

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء فى خطبه ، فستظل كلماتها رمادا متخلفا عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائما بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

شهادة من عدو !!

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية من خطبة له فى المجلس :

« ان منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يحرج الخطيب اذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنى أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم : لا تفعلوا شيئا مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شىء لم تفعلوه وانه لجواب حق وصدق ولكنى سأزيد لكم الأمر ايضاحا ولعل أولئك الذين سارعوا الى السؤال يسارعون أيضا الى العمل . اذكروا أولا أن فيليب قد نقض عهدكم وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا محل للخلاف عليها ، ثم اذكروا أيضا أنه عدو أثينا الألد عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . ان أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطى وانه ليهيىء أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذا

النظام ، لأنه يعلم جيدا أنه لو أخضع جميع بلاد الاغريق ، فسوف يظل غير آمن ما دامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة ، فان جميع هـذه البلاد التى قهرها سوف تســارع الى الانضمام اليكم لاستعادة حريتها . ان فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه فهو يعبىء جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوه ؟ يجب أن يسارع كل منــكم الى التبرع بنسبة ما يملك ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية، حتى اذا تهيأ فيليب لغزو الاغريق وجدتم الجيش اللازم وامداد حلفائكم . لا تحدثونى عما يحتاج اليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فانى لست أنكرها ولكنها تهون كلها اذا نظرنا الى الخطر الذى يهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى اذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فانى لا أشير به عليكم ! أجل .. انه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى واستمعوا لأقواله اذا أردتم ، أما اذا كنتم تشعرون بما أشعر به وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب ، كان فى ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر الى مكافحته .. اذا كنتم ترون ذلك فلم تترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهـــة .. فان مجرد النطق بهذه الكلمــات ذل ومهانــة .. » .

بهذه الكلمــات التى تتقد حماســة واخلاصا ، كان ديموستين يدعو الأثينيين الى القتال ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين ، ولكنها كانت تحوى من أدلة الاقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين : « انى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيــوش .. » .

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفــا لسهام بلاغتــه والفضل ما شهدت به الأعداء !!

★★★

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا ، وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائما فى انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصـــدا لها يلقاها أقوى ما يكون ايمانا وأثبت جنانا ، وأفصـــح لسانا لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح من حوله ، بل كان لذلك يزيد ايمانا بصحة فكرته وصدق دعوته • وعبثا حاول «فيليب» أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها •

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيرا من مدنها ولما رأت بلاد الفرس تقدم «فيليب» وتوغله عملت على محاربته ، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبـــة الفيلبية الأخـــيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيزنثوس وبيزنطة من فيليب ، وســـيرت أثينا اليها أسطولا ضخما تبرع ديموستين بشراء وتجهيز احدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر الى رفع الحصار عنها والعودة خائبا • وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينـــا فأهدوه تاجا من الذهب اعترافا بفضله وتقديرا لجهاده •

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين الى الحرب وسافر الى بيوثيـــا ، وحملها بسحره على التحالف مع أثينـــا والتقى الجيشان ولكن فيليب هزمها هزيمة نكراء ، وان كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الاسكندر الأكبر •

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه الى المجلس العام ، وعلى رأسه اكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ودعا مواطنيه الى الثورة على الاسكندر • وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها الى البلاد اليونانية تدعوها الى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ؛ فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان •

ولكن الاسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى ؛ لاخماد حركات التمرد وزحف على «ثيبا» وسحق ثورتها ونكل بأهلها ودمر جميع منازلها، ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » •

وبدأت « أثينـــا » تســـتعد للحصـــار وقد عصف بها الرعب ولكن الاسكندر لم يزحف اليها ، واكتفى بارسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له وكان فى طليعتهم ديموستين ٠

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب وتناقش فيه مجلسها واشترك ديموستين فى المناقشة وروى قصة قال فيها ان الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع اذا سلموها كلاب الحراسة فقبل الرعاة ، ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به ٠

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل الى الاسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد فى مسعاه وتم الصلح بين أثينا والاسكندر المقدونى ٠

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه وحقق انتصارات كبيرة فى كل مكان ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند ٠

وكان « ديموستين » فى خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار ٠ وامتزجت حياة ديموستين فى هذه الفترة بقصة غريبة ٠ ذلك أن « هاربال » الذى كان وزيرا لمالية الاسكندر تمرد عليه وانتهز فرصة انشغاله بالحرب فى آسيا ، فاستولى على مبلغ طائل من أمواله وجهز أسطولا من ثلاثين سفينة وجيشا من المرتزقة وهرب الى شاطىء أثينا ليشعل الثورة على الاسكندر ؛ ولكن أثينا رفضت قبـوله بنصيحة ديموســـتين فذهب « هاربال » بمفرده الى « أثينـــا » وأعلن فى مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها،موهما اياها أن قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليـــه وانقسم أهل أثينـــا الى فريقين : فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال » واعلان الحرب على الاسكندر الذى كان مشغولا بحربه فى آسيا ، بينما رأى فريق آخر على رأســـه ديموستين ابعاد «هاربال» وعدم الزج بأثينا فى حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوة الاسكندر ، التى بلغ من تعاظمها أنها أطمعت صاحبها فى غزو العالم كله ٠ وفى غمرة الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدونى « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا وفدا الى المجلس الأثينى العام يطلبان منه تسليم «هاربال» والمال الذى فى حوزته ، واقترح «ديموستين» القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الاسكندر وحفظ المال الذى معه فى

الاكربول فوافق المجلس على الاقتراح ، ولكن (هاربال) هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعا فى الأكربول قد اختفى • ولما كان المال محفوظا تحت اشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصـــومه بالاهمال الجســـيم فى مراقبة الحراس • وأثاروا الشك حوله فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة للتحقيق فى الموضوع ، وأعلن أنه يقبل حكم الموت اذا تبين أنه أخذ شيئا من هذا المال ، وانتهى التحقيق بادانة ديموستين دون تقديم دليل مادى على هذه الادانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة •

ولكن ديموستين هرب الى احدى الجزر حيث قـــام فى منفاه بعيدا عن أثينـــــا •

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفى الاسكندر فى مدينة بابل عام ٣٢٣ ق•م بتأثير الحمى وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى وانهارت مكانه صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قرارا بدعوة ديموستين للعودة الى بلاده ؛ فعاد الى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاه والحكام والكهان •

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ولجأ المجلس العام الى نوع من الحيلة ؛ لاعفائه من الغرامة الضخمة التى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون الغاءها : فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الاله « زيوس » مبلغا من المال ، فعهد المجلس الى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل « خمسين وزنة » وهى قيمة الغرامة•

وكانت الحرب قد اشتعلت بين انتيباتر ، الذى خلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان وبين البلاد الاغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر ؛ ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعة كرانون سنة ٣٢٢ ق•م واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا •

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها الى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم ؛ فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من انتيباتر •

وأعلن أنتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا ، بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين •

واستطاع « ديمادس » أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر •

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية فهرب الى جزيرة كالوريا ، ولجأ الى معبد الاله « بوسيدن » الذى كان حرما يقدسه أهل اليونان .

وكان « انتيباتر » قد أرسل عملاقا من أتباعه يدعى « أركياس » الذى بدأ حياته ممثلا للقبض على ديموستين،فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتا يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمرا ثم نظر الى أركياس وقال له متهكما :

انك يا أركياس لم تستطع يوما أن تؤثر فى بتمثيلك ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بوعودك !

فغضب أركياس وبدأ يهدد ويتوعد فقال له ديموستين :

— انك تتكلم الآن كمقدونى أما قبل ذلك فقد كنت ممثلا زائفا .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب فقال لرسول انتيباتر :

— انتظر حتى أكتب لأصدقائى .

ثم انسحب الى داخل المعبد ولكنه كان ظاهرا لمن فى الخارج ، وتناول قصاصة ورق ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه،كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه الى الخلف وسحب عباءته فغطى بها وجهه ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد ؛ فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ودخل اليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته .

وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

— يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور « كريون » كما تشتهى ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث ؛ ولكننى أيها الاله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك ومازلت حيا ، كى لا أسمح لانتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب اليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة ولم يكد يتخطى عتبة معبد الاله حتى انهارت قواه فسقط ، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح .

★★★

ديوان أبو نواس
أبو نواس

أبو نواس ٠٠ أمير المستهترين ورائدهم !!

من غريب المصادفات أنه لما استقرت موازين الأدب فى العصر الحديث، برزت ناحية جديدة لم يفطن لها الكتاب القدامى ، وهى الواقعية فى الأدب وأثرها فى الاثر الفنى ومنزلته فى موازين النقد والخلود ٠

وبرزت هذه النـاحية قوية شـائكة لما اجتمع أعضـاء لجنة جائزة (نوبل) لسنوات خلت ، لاختيار الأديب العالمى الذى يستحق جائزة نوبل للآداب ، فقد اختلف أعضاء اللجنة حول منح الجائزة للكاتب (ارنست همنجواى) ، وذهب بعضهم الى أنها من حق كاتب آخر ، ولكن الأغلبية تأثرت بواقعية همنجواى فى قصصه ورواياته ، فقررت أنه أحق بها من سواه ومعنى هذا الحكم الأدبى الخطير أن الادب المعاصر أخذ يتطور نحو الواقعيـــة ٠

وهنا تبرز خطورة الأثر الأدبى الذى تركه الحسن بن هانىء للأجيال التى أتت بعده فى ديوانه ، فقد استبق المذهب الواقعى المعاصر بأجيال وأجيال وكان أجرأ شاعر عربى فى موازين الخلود والابداع ٠

— يقول الأستاذ عمر أبو النصر فى تقديمه لكتاب « أبو نواس فى تاريخ الشعر » تأليف ابن منظور المصرى :

وهذا الكتاب عرض رقيق لين هين لكبير من عظماء العرب ، وعظيم من علمائهم ، ابن منظور صـاحب (لسـان العرب) أكبر موسوعـة فى تاريخنا العربى القديم والحديث يتناول حياته اللاهية العابثة بشىء من الرفق والتورية ، وما تنفرد به من الوصف الناعم للاماء والجوارى يلبسن زى الغلمان ، ويقمن بالخدمة فى المجالس والحانات ، واصفا حياته المخمورة وعبثه المتواصل ومخالفته لما تواضـع عليه الناس من التقاليد والأخلاق ونذر الفضيلة ، وما اتصل بهذا وتعلق به وأسبابه ودوافعه ٠

وأنت حين تقرأ هذه الحياة الغريبة العجيبة ليبلغن بك العجب مبلغه وليأخذنك الذهول الى أبعد الحدود والغايات ، حين تستشعر أن هذه الحياة التى كان يحياها النواسى فى العهد العباسى الأول أو منـذ ألف ومائتى سنة ليست مما أداله الدهر ، وأزاله الزمن ، فهى ما تزال ظاهرة حية قائمة تجدهـا فى كهوف (سـان جرمان دى بريـه) فى باريس معقـل الوجوديين والوجوديات والمخنثين والغلاميات ٠

واذن ، فمثل هذه الحالات من الحيــاة الجارفة الخارجة على التقاليد المتواضع عليها ، قائمة فى باريس ، كما كانت أمرا واقعا فى بغداد عهد الحضــارة العربية الاسلامية ، وفى هذا ما يؤكد أن الحضــارة حين تبلغ ذروتها وتصل الى غاياتها فى كل عهد وقطر ، لابد وأن تنفر من عقال الأخلاق المتفق عليهــا ، ويتجه أفراد الناس سواء أكانوا من الأدباء أم الشعراء أو سواهم من رجال العلم والفنون الى سبل جديدة وطرق لم تحدها المسالك ولم تعبدها التقاليد ، حيث ينشئون لأنفسهم أساليب خاصة فى الحياة وحيث يخلقون ألوانــا جديدة من الأخلاق تســاير مشــاربهم وترتضيها نفوسهم وهى أخلاق قد تكون ، وفى كثير من الأحايين ، مخالفة للأخلاق القائمة والتقاليد المقررة ٠

ومن المؤكد أن هذه المقاييس الجديدة فى الأخلاق والتى تكون عند المثقفين نواة تفكير عميق ومحاكمات منطقية متشعبة ٠٠٠ حين تنتقل الى جمهرة الناس وعامة الشعب تصبح شيئا عاديا ، ليس يجد فيها العامة غير وسيلة الى المتعة المطلقة واللذة الشاملة الكاملة ٠

وواقع الأمر أن الترف اذا توافر فى عهد من العهود ، اشتد تهافت الناس على ألوان اللذة ومشتقاتها وغرائبها ، فيندفعون عندئذ الى اكتشاف أشكال جديدة للذة لم يكن للسابقين عهد بها ولا معرفة ، سواء أكانت هــذه اللذة فى الأشربة والمخــدرات أم فى المتع الجســدية وأمثالها ٠٠ وما شــاكلها ٠

وفى التاريخ الانسانى أمثلة عديدة تؤيد ما نذهب اليه : فقد أغرق الاغريق ثم الرومان فى المتع الجسدية ، كما يغرق اليوم رواد الحضارة الغربية فى مثل ذلك ، وان كنت تجد هذه الحياة العارمة أشد وأقوى فى العواصم والمدن الكبيرة منها فى غيرها من المدن الصغيرة والقرى المتواضعة ٠

★★★

وأنت تدرس فنون الأدب والشعر فى حياة أبى نواس ، انما تدرس ناحية من نواحيه وطرفا من حياته فليس أثره فى تاريخ الأدب العربى ليقوم على شعره فحسب وانما يقوم ــ وبالتأكيد ــ على ما اختطه من سبل جديدة فى الحياة ، وعلى ما درج عليه من مخالفة الأخلاق القائمة فى عصره ، وعلى ما سيره بين الناس من شعر يؤيد مذاهبه ويروج لها فى أسلوب رائع وشــعر رقيــق ٠

واذا كان الانجليز لا يتحرجون فى الافادة من بعض كبـار كتابهم وشعرائهم مع انكارهم لأخلاقهم ومذاهبهم (كاوسكار وايلد) مثلا ، واذا كان الفرنسيون يجلون (أندريه جيد) وهو من يعلم القارىء خطرا فى الأدب وشهرة فى العالم ، مع شذوذه وغرائبه .

واذا كان الايطاليون يتبـاهون بشاعرهـم (دانونزيو) مع تهوره واستهتاره ، فلسنا نجد سببا يمنعنا من التحدث عن أبى نواس على النحو الذى وصفنا ، وهو أمير المستهترين ورائدهم .. وقد شق لنفسه الطريق الى حياة الانفلات من المقاييس الاخلاقية القائمة قبل الوجوديين المعاصرين وقبـل الجميع .

ان القداسة التى نتغنى بها ، والتى نحاول أن ندعو لها ونحارب المفكرين المجددين فى سبيلها لا تنفى الأمر الواقع .. من أننا نغالط أنفسنا ونتجاهل مسئولياتنا ... فمكافحة الرذيلة لا تكون باخفاء أخبارها وانما تكون بنشرها واذاعتها ... ليعرف الشباب مواطن الخطر ومكامن الشر ، فمهما اشتدت نزوات الشر عند أمة من الأمم ، فانت تجد أبدا فيها قوما يدعون الى الخير ويحاولون الاصلاح ويقولون بالرجوع الى النهج القويم والمثـل العليـا .

ان فى تاريخ العرب والاسلام من قصص الاصلاح الاجتماعى والدعوة الى الخير والخلق القويم ما لا مثيل له عند أمم العالم كله ، وليس يضير الأدب العربى فى كثير ولا قليل أن يظهر فيه شاعر على غرار (أبى نواس) استهتارا ومجونا وتكالبا على اللذة ، فالأمة التى تخلق العبقريات الأخلاقية خليقة بأن تخلق العبقريات المسـتهترة أيضا ، لتنتظم عنـدها مقاييس العبقرية ، وليستطيع الأديب وهو يكتب تاريخ الأدب أن يؤديه على أحسن ما يكون وانبل ما يكون وأصدق ما يكون .

حيـاة أبى نواس :

ليس فيما جاءنا عن نسب أبى نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان اليه ، فالأقوال فيه متضاربة والاختلاف غير قليل ، على أن المشهور عنه أنه الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن الصباح ، وأن جده كان مولى من جند مروان بن محمد وهو من أهل الشام ، وأن أمه فارسية من الأهواز واسمها جلبان .

وكان يكنى فى أول أمره أبا على ثم تكنى بأبى نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه وهو صبى ، وقيل ان أستاذه خلفا الأحمر كان له ولاء فى اليمن ، فقال له يوما : « أنت من اليمن فتكنى باسم ملك من ملوكهم الأذواء » . فاختار ذا نواس ، فكناه أبا نواس بحذف صدره ، فغلبت عليه .

واختلف فى مولده فقيل : كان مولده فى سنة ست وثلاثين ومائة . وقيل : سنة خمس وأربعين وقيل : سنة ثمان وأربعين وقيل : سنة تسع وأربعين .

وكانت ولادته فى الأهواز من فارس ، ذلك أن أباه هانئا انتقل اليها مع الجيش للرباط ، فتزوج فيها جلبان ، فولدت له عدة أولاد منهم الحسن ومات أبوه وهو طفل فانتقلت به أمه الى البصرة وله من العمر سنتان . فنشأ هناك ولما شب أسلمته الى عطار يبرى عود البخور .

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة ، وبها نزوع شديد الى الأدب ، فكان لا يفتر عن مخالطة أهل المسجد ، والأدباء المجان ، وأخذ يتردد على باب أبى عمرو بن العلاء . وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده فاتصل بهم وهو فى العقد الأول من عمره فاكتسب منهم أدبا وعلما ولكنهم أضروا بأخلاقه .

ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه ، فكان أصحاب المجون اذا أرادوا الخروج الى نزهة استأجروه بدينار فيحمل لهم أدواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا .

وكان الأقدار أبت الا أن تذيقه كأس الادناس حتى الثمالة ، فأرسلت اليه والبة بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الخليع ؛ فلقيه عند العطار يبرى العود فافتتن به وأعجبه ذكاؤه،وأدبه فحمله الى الكوفة وعنى بتخريجه فى الشعر فأدبه بأدبه وخلقه بأخلاقه وعرفه بأصحابه المجان ، فأصبح لا يطيب له الا الاجتماع بهم وفيهم أمثال مطيع بن اياس وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد وحسبك بهم من عصابة سوء .

ولم ينشأ أبو نواس أن يعرف بالشعر قبل أن يخالط العرب الخلص ويأخذ عنهم الغريب ويستوى لسانه على الكلام الفصيح ، شأن كل شاعر يريد أن ينبه فى ذاك العصر . فسأل أستاذه والبة أن يسمح له بالخروج

الى البادية مع وفد بنى أسد ، فأخرجه مع قوم منهم فاقام فى البادية سنة ثم قدم الكوفة فلبث فيها مدة قليلة ، ثم فارق والبة ورجع الى البصرة فاختلف الى كبار أئمتها فأخذ عنهم شيئا كثيرا ثم شخص الى بغداد ·

قدم أبو نواس بغداد وسنه آربت على الثلاثين ، ومقاليد الخلافة فى يدى هارون الرشيد فأتيح له أن يتصل به فقربه الرشيد وأحبه وأنعم عليه · وتغاضى عن فسقه وسكره واستهزائه بأحكام الدين · وعفا عنه مرارا وأطلقه من سجنه على أنه لم يخصه بذاته ، فلقد كان الرشيد شديد الحرص على وقار الخلافة ، شديد الحفاظ على تقاليد الدين ، ولا سيما أمام الرعية · فلم ير من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليع مختصا بقصره ، لذلك لم يحظ أبو نواس الحظوة التى كان يأملها عند الرشيد ، فتفرغ لصاحبة المجان فكانوا يجتمعون فى سوق الكرخ أو فى روضة أو فى منزل ، فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ويستمتعون بأنواع الملذات التى ألفتهم ، فما يتركون محرما الا اتفقوا على اتيانه غير متورعين ولا مستحين ، وأشهر أصدقائه الخلعاء فى بغداد : داود بن رزين الواسطى ، والحسين بن الضحاك الأشقر الخليع ، والفضل الرقاشى ، وعمرو الوراق ، والحسين الخياط وعنان جارية الناطفى ، واسماعيل القراطيسى ، ورزين الكاتب أخو دعبل · وربما تولى أحدهم دعوة رفاقة فيهيىء لهم مجلسا فى بيته أو فى غير بيته فيكونون فى ضيافته · وقد تكون هذه الدعوات بأن يقول كل واحد منهم شعرا يصف به ما عنده من أسباب اللهو والملذات ، فمن افتن فيها أكثر من غيره قبلوا دعوته وصاروا اليه · فهذه الحياة الماجنة المسرفة كانت تدفع شاعرنا الى التبذير فى نفقاته وهو مشهور بسخائه فلم تكفه عطايا الرشيد على جزالتها · فكان يشكو ويتذمر حتى اضطر الى أن يقصد مصر ويمدح الخصيب أميرها، ولولا حاجته لما ترك بغداد وما فيها من أصحاب وملاه وحانات ·

انتجع الشاعر مصر صفر اليدين متألما من كساد سوقه وفى ذلك يقول :

انى لآمل يا خصيب على يدك اليسارة آخر الدهر
وكذاك نعم السوق أنت لمن كسدت عليه تجارة الشعر

ومدح الخصيب بعدة قصائد فأحسن الخصيب صلته وأخذ أبو نواس ينادمه على الشراب ويلهو واياه ويعبثان معا حتى أصبحت للشاعر دالة عليه · ويسرت حاله بعد عسر . فتفرغ للهو والمجون فعله فى بغداد ·

على أن عطايا الخصيب لم تكن لتغنى أبا نواس أو تنسيه ملاهى بغداد وقصر الخليفة العباسى • فنوابغ الشعراء لم يكن لهم غير دار السلام حاضرة تستثير قرائحهم ، وتذكى عبقريتهم ، وتشبع مطامعهم • ولعل الخصيب ضاق ذرعا برغبات الشاعر ، فان بعض الرواة يتحدثون بأنه بعد أن أعطاه ثلاث جوائز كل جائزة بألف دينار قال له : « ارتحل فما لك مقام عندنا » ويؤيد هذه الرواية ما نعلمه من أن أبا نواس ترك الخصيب غير راض عنه وعن عطاياه فكان اذا سئل : « كم وهب لك الخصيب مع مدائحك فيه وقصدك من العراق اليه ؟ » ، قال : « لا والله لم يهب لى الا مائة دينار والناس يكثرون فى ذلك » • وقد هجاه بعد مفارقته اياه ورماه بالتقتير على بنيه •

ولكن لم يوفق فى الرجوع الى بغداد ، فانه شرع يهجو القبائل النزارية لما اشتدت صولة الشعوبيين ، ولم يعف عن قريش وفيها الخلافة وقبلها النبوة فحبس وطال حبسه حتى مات الرشيد واستخلف الأمين •

اتصاله بالأمين :

عرف أبو نواس أولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب • فنادم أولا ولد المهدى ولازمهم ، فلم يلق مع أحد من الناس غيرهم • ثم نادم القاسم بن الرشيد ولكنه لم يلبث أن فارقه وتقرب من أخيه الأمين، وكان يومئذ صبيا يدرس النحو واللغة على الكسائى • وزاده اتصالا بولى العهد أن الرشيد أمر الكسائى أن يحضر أبا نواس لينشد الأمين الشعر النادر ويعلمه الغريب • فلزمه شاعرنا ولم يفارقه ، وراقت الأمين صحبة أبى نواس فاتخذه نديما • وشاطره اللهو والمجون فانحطت أخلاقه فى صباه ، وكان انغماسه فى العبث والفسوق من الأسباب التى أضاعت ملكه •

ولما بويع بالخلافة بعد أبيه جعل الشاعر فى بطانته فكان ألزم له من ظله • ولا ريب فى أن خلافة الأمين كانت أسعد أيام أبى نواس وان لم يطل عهدها أكثر من خمس سنوات ، وخمس سنوات شىء يذكر فى عمر الشاعر المتنعم • على أنها لم تخل بعض الأحيان من تنغيص ، اذ كان الخليفة يضطر الى حبسه على أعين الناس، حين يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر •

وألحف عليه بالتشديد يوم اعصوصب الشر بينه وبين أخيه المأمون. وكان الفضل وزير المأمون فى خراسان يخطب بمساوىء الأمين ، وقد أعد رجلا يحفظ شعر أبى نواس فاذا انعقد المجلس قام فذكر الأمين وقال : « ومن جلسائه رجل ماجن كافر مستهزىء متهكم يقول كذا وكذا » .

وينشد من قبائح شعره . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق وفجور وخمور وماخور » ويلعنهم من يحضر من أهل خراسان .

كان للأمين عيون فى خراسان فكتبوا اليه يخبرونه بالأمر . فجزع له وتوعد أبا نواس وحرم عليه شرب الخمر وذكرها فى شعره . فكان صاحبنا يتألم لهذا المنع فيطيع مكرها لا خوفا من غضب الامين وبطشه ، وانما حبا له وحفاظا على سمعته . وربما مرت به ساعات فما يستطيع عن الخمر صبرا فيشربها غير مبال ويسب الأمين ويهزأ به ، والأمين يتغاضى عنه ولا يطيق أن يؤذيه ، ورمى مرة بالثنوية وشهد عليه عدة نفر فأمر به الأمين الى السجن فتذمر أبو نواس وشكا واستنجد بالمأمون اذ يقول :

أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى فمن لى اليوم بالمأمون

وكان المأمون يود أن يرى عنده شاعرا كأبى نواس فلما بلغه استنجاده به قال : « والله لئن لحقته لأغنينه غنى لا يؤمله » . على أن الشاعر لم يشأ أن يترك الأمين مع ما لقى منه فى آخر عهده ، وكان من حقه أن يناصر المأمون لو جارى نزعته الشعوبية ، وميله الى الفرس والشعوبية ، والفرس منهم يظاهرون المأمون . ولكنه آثر البقاء مع الأمين لأسباب منها أنه كان يحبه وتلذ له معاشرته ومنادمته فلا طاقة له بالابتعاد عنه ، ومنها أن له من الدالة عليه ما لا يأمل أن ينال مثله عند المأمون . ومنها أن أهل خراسان شيعيون يشددون فى أمر الغفران كأصحاب الاعتزال ، وكان أبو نواس عظيم الاتكال على عفو الله ، ففضل عليهم أهل السنة لأنهم لا يحظرون العفو على مسلم ارتكب الكبيرة اذا خرج من الدنيا على غير توبة ، بل يجعلون حكمه عند الله ، فاما أن يغفر له برحمته واما أن يشفع به النبى اذ قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » واما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يدخله الجنة برحمته ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار .

فهذه الأسباب كانت تدفع الشاعر الى ايثار الأمين على أخيه ، مع ما رأى فيه من ضعف وخمول وتقلب آراء .

توبته وزهده وموته :

ولما قتل الامين وظفر المأمون بالخلافة ، أصاب أبا نواس شيء من الجزع والقنوط وتنكر له الدهر فتبرم بالحياة وسئم ملاذها وغرورها ، وأبى أن يتقرب من المأمون أو يمدحه ، وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة في خراسان ، ولبث هناك نحوا من ست سنوات حتى استتب له الأمر في بغداد فانتقل اليها .

وكان بوسع الشاعر أن يتصل به ويستميله بالمديح ، ولكن اليأس الذي ساوره بعد مقتل الأمين جعله يزهد في الحياة الدنيا ، وتراءى له شبح الموت فراعه وأحس أن قواه تحطمت من كثرة فسوقه واستهتاره ففزع الى ربه يستغفره ، وأقلع عن المجون وشرب الخمر ، وتنسك حتى هلك وهو على أشد ما يكون من الندم . وكانت وفاته في بغداد وله من العمر نحو من أربع وخمسين سنة .

آثار أبي نواس :

لأبي نواس ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه ، فانه عني بجمعه رهط من الأدباء ، منهم أبو بكر الصولي ، وعلي بن حمزة الأصبهاني ، وطبع غير مرة في فينا ومصر وبيروت وفي صدر الطبعة المصرية فصل لجامعه الأصبهاني في منزلة شعر أبي نواس ونقده . وهذه المجموعة تتضمن أكثر من ثلاثة عشر ألف بيت رتبت على اثني عشر بابا : فالأول في نقائضه مع الشعراء وأخباره معهم ومع القيان ، والثاني في المديح . والثالث في المراثي ، والرابع في العتاب ، والخامس في الهجاء ، والسادس في الزهد ، والسابع في الطرد ، والثامن في الخمر ، والتاسع في ما جاء بين الخمر والمجون . والعاشر في غزل المؤنث ، والحادي عشر في غزل المذكر ، والثاني عشر في المجون . وقد أهمل الناشر الباب الأخير فلم يثبته في الطبعة ، لأنه رأى فيه ما يصم الآداب وحسنا فعل ، ولكننا لا ندري بأي عين نظر الى الباب التاسع ، فان فيه من التعهر ما لا يقل عما ورد في الباب الثاني عشر .

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ أبي نواس ونوادره وشعره ومجونه في كتاب سماه أخبار أبي نواس . وقد طبع الجزء الأول منه في مصر سنة ١٩٢٤ مضبوطا بالشكل مشروحا بعض الشرح ، ولكن الحكومة المصرية منعت متابعة نشره لما فيه من فحش مضر بالأخلاق .

وكتب الأدب حافلة بأخبار أبى نواس وأشعاره لشدة اهتمام الناس بروايه شعره ، فانهم كانوا يتفكهون به ويؤترونه على أشعار القدماء ، فسار على الأفواه كل مسير ، فرويت له فى مصر أشعار لم يعرفهـا أهل العراق ، وضاعت له قصائد لم يبق منها شىء أو بقى بيت أو بيتان • ونحل شعرا كثيرا لم ينحل مثله أحد ، ذلك أنه سلك طريقا جديدا فى الشعر : فان أكثر أشعاره فى اللهو والتشبيب والمجون • وكان فى عصره طائفه من المجان يذهبون مذهبه وليس لهم من الشاعرية والشهرة مثله ، فأصبح الناس يلحقون به كل شعر فى الخمر والمجون لم يعرف صاحبه ولم يعن الرواة بشـعره •

وأضيف اليه من النوادر والأخبار كما أضيف اليه من الأشعار ، فقد وضع عليه ابن الداية ، وكان مشهورا بصحبته ، روايات لا صحة لها • وفى أخبار أبى نواس لابن منظور المصرى نوادر أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة ، مما يدل على أن أهل مصر شغفوا بالشاعر كأهل العراق ، فراحوا يتفننون فى اصطناع الأخبار الغريبة عنه فحملوه أحمالا ثقيلة زادت سمعته تشويها • ونحن وان كنا لا يخامرنا ريب فى خلاعته وحوادثه المجونية ، لا يسعنا الا أن نشك فى بعض نوادره التى يظهر عليها التفنن وحب التفكهة والاغراب • وسنعتمد فى درس شعره على المشـهور منه الذى لا يشك فى نسـبته اليـه •

★★★

مختارات من ديوان أبى نواس

قال فى عزة النفـس :

ومسـتعبد اخـوانه بثـرائه
لبسـت له كبرا ابرا على الكبر
اذا ضمنى يومـا وايـاه محفـل
يرى جانبى وعرا يزيد على الوعـر
أخالفـه فى شـكله وأجـره
على المنطق المبرور والنظر الشـزر

وقد زادنى تيها على النـــاس أنـــنى
أرانى أغناهــم وان كنت ذا فقـــر
فوالله لا يبـدى لســانى لحاجــة
الى أحــد حتى أغيــب فى قبرى
فـــلا يطمعن فى ذاك منى طامـــع
ولا صاحب التـاج المحجب فى القصر

الخمـــر

شهر فى خمارة !

وفتيان صدق ، قد صرفت مطيهم
الى بيت خمار ، نزلنـا به ظهرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما ،
ظننـــا به خيرا ، فظن بنـا شرا
فقلنا : على دين المسيح بن مريم ،
فأعرض مزورا ، وقال لنا هجرا
ولكن يهودى يحبـــك ظـاهرا ،
ويضمر فى المكنون منه لك الغدرا
فقلت له: ما اسم؟ قال: سموءل،
ولكنــنى أكنى بعمــرو ولا عمرا
وما شرفتــنى كنيـة عربيـــة ،
ولا أكسبتنى لا ثنـاء ولا فخـرا
ولكنها خفت وقلت حروفهـا ،
وليست كأخرى، انما جعلت وقرا
فقلت له عجبا بطرف لسانـه :
أجدت أبا عمرو ، فجود لنا الخمرا
فأدبر كالمزور ، يقســم طرفـــه
لأرجلنـا شطرا ، وأوجهنا شطرا
وقال : لعمرى، لو أحطتم بوصفها،
للمناكم ، لكن سنوســعكم عذرا
فجـاء بهـا زيتية ذهبيـــة ،
فلم نستطع دون السجود لها صبرا
خرجنـا على أن المقـام ثلاثـة ،
فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا
عصابة سوء ، لا ترى الدهر مثلهم
وان كنت منهم لا بريئا ولا صفرا
اذا ما دنـا وقت الصـلاة رأيتهم
يحثونها ، حتى تفوتهم ســكرا

الخمر والغفران :

دع عنك لومى ، فان اللوم اغراء ،
وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ،
لو مسها حجر ، سمته سراء

★★★

قامت بابريقها ، والليل معتكر ، فلاح من وجهها ، فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية ، كأنما أخذهـا بالعـين اغفـاء
رقـت عن الماء ، حتى يلائمها ، لطـافة ، وجفـا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نـورا ، لمازجها ، حتى تولد أنـوار وأضـواء
دارت على فتية دان الزمان لهم ، فما يصـيبهم الا بما شـاؤوا
لتـلك أبـكى ولا أبـكى لمنزلة ، كانت تحـل بها هنـد وأسـماء
حاشا لدرة أن تبنى الخيام لها ، وأن تروح عليها الابل والشـاء
فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة : حفظت شيئا ، وغابت عنك أشياء
لاتحظر العفو، ان كنت امرأ حرجا، فـان حظـركه بالدين ازراء

العيش سكرة بعـد سـكرة

ألا فاسقنى خمرا، وقل لى: هى الخمر! ولا تسقنى سرا اذا أمكن الجهـر
فعيش الفتى فى سكرة بعد سكرة، فان طال هذا عنده ، قصر الدهر
وما الغبن الا أن ترانى صاحيا ، ولا الغنم الا أن يتعتعنى السكر
فبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى، فلا خير فى اللذات من دونها ستر
ولا خـير فى فتـك بغير مجانـة ولا فى مجون ليس يتبعـه كفر
بكل أخى قصف كأنـه جبينـه هلال، وقد حفت به الأنجم الزهر

نشوتـان

لا تبك ليلى ، ولا تطرب الى هند ، واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاسا اذا انحدرت فى حلق شاربها، أجدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة ، فى كف جارية ممشوقـة القـد
تسقيك من طرفك خمرا، ومن يدها خمرا ، فما لك من سكرين من بد
لى نشوتان ، وللندمان واحدة ، شيء خصصت به، من دونهم وحدى

قصص الأمـم

يا شـقيق النفس من حـكم ، نمـت عن ليـلى ، ولم أنـم
فاسـقنى البكر التى اختمرت بخمار الشـيب فى الرحـم
ثمت انصـات الشـباب لها ، بعـد ما جـازت مدى الهرم

فهى لليوم الذى بزلت   وهى ترب الدهر فى القدم
عتقت حتى لو اتصلت   بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم مائلة ،   ثم قصت قصة الأمم
فرعتها بالمزاج يد ،   خلقت للسيف والقلم
فى ندامى ، سادة زهر ،   أخذوا اللذات من أمم
فتمشت فى مفاصلهم ،   كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت اذ مزجت ،   مثل فعل الصبح فى الظلم
واهتدى سارى الظلام بها ،   كاهتداء السفر بالعلم

ثورة على القديم

عاج الشقى على سرم يسائله ،   وعجبت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد ،   لادر درك ، قل لى : من بنو أسد ؟
ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟   ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ،   ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ،   وبين باك على نوى ومنتضد
دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة ،   صفراء ، تفرق بين الروح والجسد

أدب المنادمة

ولست بقائل لنديم صدق ،   وقد أخذ الشراب بمقلتيه
تناولها ، والا لم أذقها ،   فيأخذها ، وقد ثقلت عليه
ولكنى أدير الكأس عنه ،   وأصرفها بغمزة حاجبيه
وأحبسها الى أن يشتهيها ،   وآخذها برفق من يديه
وان مد الوساد لنوم سكر ،   دفعت وسادتى أيضا اليه
فذلك ما حييت له ، وأنى   أبر بمثله من والديه

الغزل

حامل الهوى

حامل الهوى تعب   يستخفه الطرب
ان بكى يحق له   ليس ما به لعب

تضـــحكين لاهيـــــة والمحـــــب ينتحـــب
تعجبـــين من ســـقمى صـــحتى هى العجـــب
كلما انتفى ســـبب منـــك ، جـــاءنى ســـبب

★★★

المـــدح

مدح الرشـــــيد

حى الديار اذ الزمان زمان ، واذ الشباك لنا خوى ومعانه
يا حبذا سفوان من متربـــع ، ولربما جمع الهوى ســـفوان
واذا مررت على الديار مسلما ، فلغـير دار أميمـة الهجـران
انا نســـبنا والمناســـب ظنـه ، حتى رميت بنا ، وأنت حصان
لما نزعت عن الغواية والصبا ، وخدت بى الشدنية المذعـان
سبط مشافرها ، دقيق خطمها ، وكأن ســـائر خلقها بنيـــان
واحتازها لون جرى فى جلدها ، يقق ، كقرطاس الوليد ، هجـان
والى أبى الأمناء هارون الذى يحيا ، بصوب سمائه ، الحيوان
ملك تصور فى القلوب مثاله ، فكأنما لم يخـل منـه مكان
ما تنطوى عنه القلوب بفجرة ، الا يكلـمه بها اللحظـــانه
فيظـل لاستنبائه ، وكأنــه عـين على ما غيـب الكتمان
هارون ألفنـا ائتـلاف مـودة ، ماتت لها الأحقـاد والأضغان
فى كل عام غزوة ، ووفادة ، تنبت ، بين نواهما الأقران
حج وغـزو مات بينهما الكرى ، باليعملان شـعارها الوخـدان
يرمى بهن نيـــاط كل تنـوفة ، فى الله ، رحال بها ، ظعـان
حتى اذا واجهن اقبـال الصفا حن الحطيـم ، وأطت الأركان
لأغر ، ينفرج الدجى عن وجهه ، عدل السياسة ، حبـه ايمانه
يصلى الهجير بغرة مهديـة ، لو شـاء صان أديمها الأكنان
لكنـه فى الله مبتذل لها ، ان التقى مسـدد ، ومعـان

ألفت منادمه السماء سيوفه ، فلقلما تحتازها الأجفان
حتى الذى فى الرحم لم يك صورة، لفؤاده ، من خوفه ، خفقان
حذر امرىء نصرت يداه على العدى كالدهر ، فيه شراسة وليان
متبرج المعروف عريض الندى ، حصر ، بلا ، منه فم ولسان
للجود من كلتا يديه محرك ، لا يستطيع بلوغه الاسكان

مدح الخليفة محمد الأمين

كان للأمين خمس من السفن المعروفة بالحراقات : احداها على مثال الأسد ، والثانية على مثال العقارب ، والثالثة على مثال الدلفين ، والرابعة على مثال الفيل ، والخامسة على مثال الحية · فركب ذات يوم فى سفينة الأسد متنزها ، وركب أبو نواس معه ينادمه ، فقال فى ذلك :

سخر الله للأمين مطايا ، لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا ، سار فى الماء ركبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يعدو ، أهرت الشدق ، كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس ، اذ رأوه ، على صو رة ليث ، يمر مر السحاب
سبحوا ، اذا رأوك سرت عليه ، كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات زور ، ومنسر ، وجناحيـ ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما اسـ تعجلوهـا بجيئه وذهاب
بارك الله للأمين · وأبقا ه وأبقى لنه رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه هاشمى موفق للصواب

★★★

الهجاء

هجاء اليمانية

كان أبو نواس قد ادعى أنه من العدنانية ، فأخذ يتعصب لها وهجا هاشم بن حديج الكندى :

يا هاشم بن حديج ، ليس فخركم بقتل صهر رسول الله بالسدد
أدرجتم فى اهاب العير جثته فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ان تقتلوا ابن أبى بكر فقد قتلت حجرا ، بدارة ملحوب بنو أسـد
وطردوكم الى الأجبال من أجا طرد النعام اذا ما تاه فى البلد
وقد أصاب شراحيلا أبو حنش ، يوم الكلاب ، فما دافعتم بيـد
ويوم قلتم لزيد ، وهو يقتلكم قتل الكلاب : لقد أبرحت من ولد
وكل كندية قالت لجارتها ، والدمع ينهل،من مثنى ومن وحد :
ألهى امرأ القيس تشبيب بغانية ، عن ثأره ، وصفات النوى والوتد

هجاء الخصيب

خبز الخصيب معلق بالكوكب ، يحمى بكل مثقف ، ومشطب
جعل الطعام على بينه محرما قوتا ، وحلله لمن لم يسغب
فاذا هم راؤوا الرغيف ، تطربوا طرب الصيام الى أذان المغرب

هجو الرقاشى

قل للرقاشى اذا جئته : لو مت ، يا أحمق لم أهجكا
لأننى أكرم عرضى ، ولا أقرنه يوما الى عرضكا
ان تهجنى ، تهج فتى ماجدا ، لا يرفع الطرف الى مثلكا
والله لو كنت جريرا ، لما كنت بأهجى لك من أصلكا

★★★

الزهديات

خداع الدنيا

ألا رب وجه ، فى التراب عتيق ، ويارب حسن ، فى التراب ، رقيق
ويارب حزم فى التراب، ونجدة ، ويارب رأى ، فى التراب ، وثيق
فقل لقريب الدار : انك راحل الى منزل نائى المحل سحيق
وما الناس الا هالك وابن هالك ، وذو نسب ، فى الهالكين ، عريق
اذا امتحن الدنيا ، لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

العمل الصـــالح

أيـــة نار قـــدح القـــادح ، وأى جـــد بلـــغ المـــازح ؟
لله در الشيب من واعـــظ ، وناصح ، لو خطىء الناصـــح
يأبى الفتى الا اتباع الهوى ، ومنهـــج الحـــق له واضح
فاســم بعينيك الى نســوة ، مهورهـــن العمـــل الصالـــح
لا يجتلى العذراء من خدرها ، الا امـــرؤ ميزانـــه راجـــح
من اتقى الله ، فذاك الذى ، ســيق اليـــه المتجـــر الرابح
شمر ، فما فى الدين أغلوطة ، ورح بما أنت له رائـــح

صـــلاة خاطىء

يارب ، ان عظمت ذنوبى كثرة ، فلقد علمت بأن عفوك أعظـم
ان كان لا يرجوك الا محسن ، فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
أدعوك ، رب ، كما أمرت تضرعا ، فاذا رددت يدى ، فمن ذا يرحم
ما لى اليـــك وسيلة الا الرجـا ، وجميل عفوك ، ثم انى مسلم

على سرير الموت

دب فى السقام سفلا وعلوا ، وأرانى أموت عضـــوا فعضوا
ليس تمضى من لحظـة بى ، الا نقصتنى ، بمرهـا فى جـزوا
ذهبت جدتى بحاجة نفسى ، وتطلبت طاعـــة الله نضـــوا
لهف نفسى على ليـال وأيـــا م تجـاوزتهن لعبـــا ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة ، فاللـ ـهم صفحا عنا ! وغفرا ! وعفوا !

***

كتاب الزهرة

ابن داود الظاهري

٨٩٥ م

طلائع الدراسات العربية لموضوع الحب والعشق

لم ينل الحب الانسانى ما يستحق من اهتمام الباحثين اذا ما قيس الى الحب الالهى ، فاننا نجد سيلا دافقا من المؤلفات أحصى منه ريتر ثلاثة عشر مؤلفا ، تمتد ما بين القرن الثالث الهجرى والقرن الحادى عشر ، وأحصت لويزانيتا جيفن تسعة عشر مؤلفا عن المدة نفسها تقريبا وسنضيف بدورنا عددا آخر ؛ ليتأكد فى النهاية أن التأليف عن الحب كالحديث عن الحب كالحب نفسه لا يتوقف الا ليبدأ من جديد وأنه كظاهرة امتدت بطول العصور ، على أن البداية ستبقى غامضة بعض الشىء شأن البدايات فى أى شىء ، الا أن هناك شبه اتفاق على أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) قد فتح باب الحديث فى الحب بمقالتيه عن النساء وعن القيان ، والمقالة الثالثة : مفاخرة الجوارى والغلمان ، ثم ما كتبه أحمد بن الطيب السرخسى (٢٨٦ هـ) • وينقل الزركلى عن القفطى وغيره أنه قرأ على الكندى الفيلسوف وأن من مؤلفاته المدخل الى صناعة النجوم — والجلساء والمجالسة — واللهو والملاهى ، وهذا الأخير — كما يصفه — فى الغناء والمغنين والمنادمة والملح ، وكتاب القيان • ثم يأتى ابن داود صاحب الزهرة (٢٩٦ هـ) الذى نعتبره مؤسس اتجاه جديد فى دراسة الحب ، ثم محمد بن أحمد ابن اسحاق الوشاء صاحب « الموشى » — أو الظرف والظرفاء • ثم محمد ابن جعفر الخرائطى (٣٢٧ هـ) ، صاحب كتاب « اعتلال القلوب » فى أخبار العشاق وهو مخطوط ، ثم محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) ، مؤلف كتاب « الرياض » فى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين المحدثين وكتاب (أشعار النساء) ثم الحصرى القيروانى (٤٥٣ هـ) صاحب « المصون فى سر الهوى المكنون » وهو مخطوط ، ومؤلف « زهر الآداب وثمر الألباب ؟ ، ثم ابن حزم (٤٥٦ هـ) صاحب « طوق الحمامة » وهو أشهر ما كتب فى هذا الباب ثم جعفر السراج (٥٠٠ هـ) مؤلف « مصارع العشاق » ، ثم ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) صاحب « ذم الهوى » ، ثم أحمد بن سليمان الكسائى (٦٣٥ هـ) . مؤلف : « روضة العاشق ونزهة الوامق » وهو مخطوط ، ثم شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد (٧٢٥ هـ) مؤلف « منازل الأحباب ومنارة الألباب » وهو مخطوط أيضا ويضيف اليه الزركلى « مقامة العشاق » ، ثم

ابن قيم الجوزية « ٧٥١ هـ » صاحب : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ثم مغلطاى بن قليج (٧٦٢ هـ) مؤلف : « الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين » وهو مخطوط ، ثم ابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) مؤلف ديوان الصبابة ، ثم ابراهيم بن عمر الرباط البقاعى (٨٨٥ هـ) ، وقد اختصر مصارع العشاق فى كتاب مخطوط سماه « أسواق الأشواق » ثم داود الأنطاكى الطبيب الضرير (١٠٠٨ هـ) صاحب « تزيين الأسواق فى أخبار العشاق » ، ثم مرعى بن يوسف (١٠٣٣ هـ) مؤلف : «منية المحبين وبغية العاشقين» ، وأخيرا : السلاطى — وقد ألف « صبابات المعانى وصبابات المعانى » .

هذه المصادر الأساسية لمادة الدراسة فى موضوع الحب نراها منتشرة على مساحة زمنية تبلغ ثمانية قرون دون توقف ، على أن هناك كتبا أخرى قد تكون أقل أهمية ولكنها تعطى ملامح اضافية لابد من الوعى بها ، ليكتمل تصور الظاهرة فى كافة أبعادها فكتاب « المحاسن والاضداد » المنسوب للجاحظ ، يكتسب أهمية لا تقل عن أهمية رسائله المشار اليها ، وكذلك بعض آرائه فى كتابه الضخم «الحيوان» ، مع افتراض تأثره بكتاب « طباع الحيوان » لأرسطو وهناك كتاب آخر للمرزبانى بالاضافة الى « أخبار النساء » المنسوب الى ابن القيم ، وتضيف الى هذه الكتب الأخبارية نوعين آخرين من الكتب التى اهتمت بالحب الاول : كتب القصص والنوادر التى تقترب فى مادتها من « مصارع العشاق » وان ظهر طابع الصناعة أكثر وضوحا ، مثل كتاب « الفرج بعد الشدة » للقاضى التنوخى (٣٨٤ هـ) ، ففى الجزء الرابع من هذا الكتاب عدد وافر من قصص العشاق لا نجازف اذ نقول انه يخضع لمجموعة من القيم الفنية والأخلاقية تؤكد معنى مهما وهو أن مؤلفى هذا النوع من الكتب كانوا يختارون ما يتجاوب ورؤيتهم الخاصة للحب وأنهم — على الأرجح — كانوا يتدخلون فى الصياغة وفى تطوير الأحداث ، وستجد مصداق ذلك فى هذه الطائفة من القصص التى سبق بها الجاحظ وتردد صداها عند جعفر السراج ومن جاءوا بعده .

أما النوع الثانى فهو تلك الفصول التى جاءت فى سياق الكتب الموسوعية العربية وصحيح ان بعض ما فيها من مادة يعتبر ترديدا لما جاء فى كتب سابقة ،ولكن الاهتمام برصدها وتحديد اتجاهاتها سيعنى الكثير فى التعرف على فترات الازدهار فى التأليف عن الحب ووجهة الكتاب فى طرح الظاهرة ومعالجتها ، فضلا عن أن بعض هذه الفصول كتب فى فترة مبكرة ، وهذا يعنى أنه كان مصدرا أصيلا بعد ذلك ، ففى

« عيون الأخبار » لابن قتيبة (٢٧٦ هـ) نجد المجلد الرابع كله قد تصدره عنوان واضح الملامح وهو : « كتاب النساء فى أخلاقهن وما يختار منهن وما يكره » وفى « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) نجد : « كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن » ، وقد عقد الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) فصلا فى كتابه : « محاضرات الأدباء » — وهو الحد الثالث عشر — تحت عنوان : « فى الغزل وما يتعلق به » ومادة هذا الفصل ذات تقسيم طريف وان يكن المحتوى تقليديا مكررا ٠

★★★

من هو ابن أبى داود المشهور بأبى بكر الأصفهانى

(٢٥٥ هـ) — (٢٩٧ هـ)

هو محمد بن داود بن على بن خلف الأصفهانى ، المشهور بأبى بكر الأصفهانى (٢٥٥ هـ — ٢٩٧ هـ) فقيه وعالم وشاعر ٠٠ ثم نستطيع أن نعده من عشاق العرب ، مع أن عهد العشاق العرب أموى ومكانهم البوادى — وأبو بكر هذا عباسى وعاش ومات فى القرن الثالث الهجرى ؛ ولكنه عشق فعف وعانى ما كان يعانيه أولئك العشاق ، وكان من حصيلة عشقه أن ألف كتابا لا نظير له فى الكتب وهو كتاب « الزهرة » فى الحب ومعانى الغزل التى حومت عليها قوافى الشعراء فى الأدب العربى منذ الجاهلية حتى عصره ٠

وأبو بكر الأصفهانى هو ابن داود الظاهرى الفقيه المجتهد ، الذى ينسب اليه مذهب أهل الظاهر وهم الذين يأخذون بظاهر الكتاب والسنة ويعرضون عن تأويل ورأى وقياس ، وكان داود أول من جهر بهذا الرأى وكان على علم ، زاهدا متقللا كثير الورع وانتهت اليه رياسة العلم ببغداد وكان من عقلاء الناس ، حتى قيل فيه : « كان عقل داود أكبر من علمه » وله تصانيف كثيرة عددها صاحب الفهرست فى زهاء صحيفتين ٠ ومن أقواله : « خير الكلام ما دخل الأذن بغير اذن » فهو أول من جانس هذا الجناس اللطيف ويشتم من كلامه الأدب محضا ، ونسق فى التعبير لعله البشرى بابن له أديب شاعر ظريف مبين ٠

وقيل فى داود الظاهرى انه أصفهانى الأصل ، من بليدة قرب أصفهان (قاشان) وقيل بل هو عراقى وأمه الأصفهانية ، وأيا كان

فمولده فى الكوفة ومنشؤه وشهرته ببغداد وفيها توفى سنة سبعين ومائتين للهجرة ٠

ولد أبو بكر سنة خمس وخمسين ومائتين (أى فى السنة التى توفى فيها الجاحظ) ونشأ فى كنف أبيه محببا اليه ، أثيرا جدا لديه ، وكان أبو بكر نحيفا وفى لونه صفرة ٠

نشأته العلمية ومجالسه العلمية

وقد نشأه أبوه على مذهبه وخرجه فى مدرسته فلما أينع ، فشت له فى بغداد شهرة علم وأدب ونبغ ووقع منه الناس على عقل راجح وأدب جم٠ يقول المسعودى فى عقه : « وكان ممن علا فى رتبة الأدب وتصرف فى بحار اللغة وتفنن فى موارد المذاهب وأشفى على أغراض المطالب وكان علما فى الفقه منفردا وواحدا فيه فريدا » ٠

وبعد أن توفى أبوه ، تصدر للاشتغال والفتوى وجلس مكان أبيه فى حلقته ، وعمره اذ ذاك خمس عشرة سنة فتعجب الناس واستصغره أكثرهم وأرادوا اختباره فدسوا له رجلا فقالوا : « اذا جلس فأته واسأله عن حد السكر ومتى يكون الانسان سكران ؟ » فلما أتاه الرجل — والمجلس حاشد — فقال : يا أبا بكر أخبرنى متى يكون الانسان سكران ؟ أجابه أبو بكر من فوره فقال : « اذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم » فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم وشرح جوابه من عقله وتمكنه وأدبه ما أراد مختبروه ٠٠ ان ما قاله لحد دقيق وفصل لطيف بين الصاحى وبين السكران فى بيان موجز وسجع مرسل فكلامه كما قال أبوه قبلا : يدخل الأذن بغير اذن ٠

ولم يكن أبو بكر أول من استصغر للعلم ثم كبر عند مستصغريه ، ولكن أخبار الأدب والعلم وافرة فى اناس أذكياء نجموا كواكب فى مجتمعهم وأقوامهم وهم صغار ، نذكر منهم اياس بن معاوية ويحيى بن أكثم قاضى المأمون الذى لما ولى قضاء البصرة وهو ابن ثمانى عشرة سنة قال المأمون : كم « سنك ؟؟ » فقال يحيى دون تلكؤ : « كعتاب بن أسيد حين أقره النبى ﷺ على مكة » فأعجب به وبجوابه المأمون ، ثم علا عنده علوا ٠ وعتاب بن أسيد من مسلمى الفتح ، أمره النبى (ﷺ) على مكة حين خرج الى حنين والطائف وله يومئذ عشرون سنة ٠

وكان أبو بكر ممن تنبه الى ما يقوله الحسين بن منصـــور الحلاج فى ذلك الوقت وأفتى بكفره وندد به ولكنه توفى قبـــله فلم يعش الى سنة تسع وثلاثمئة ليراه مقتولا مصلوبا ٠

ذكر الفقيه الشافعى أبو العباس الحضرى قال : كنت عند أبى بكر محمد بن داود فجاءته امرأة فقالت له : « ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممســكها (أى لا يقــدر على نفقتها) ولا هو مطلقها » فقال : « اختلف فى ذلك أهل العلم فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب ، ويبعث على التطلب والاكتساب وقال قائلون : يؤمر بالانفاق والا يحمل على الطلاق » ٠ قال أبو العباس فلم تفهم قوله وأعادت فسألته فقال : « يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك الى طلبتك ولست بسلطان فأمضى ولا قاض فأقضى ولا زوج فأرضى انصرفى رحمك الله ٠٠ » ٠

وقال عبد الله بن أبى الدنيا : حضرت مجلس أبى بكر محمد بن داود ، فجاء رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلا وظن تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها الى صاحبها فنظرنا فاذا الرجل هو الشاعر المشهور ابن الرومى واذا فى الرقعة :

يــا بن داود يــا فقيــه العــراق
أفتنــــا فى قواتـــل الأحـــداق
هل عليها فى ذى الجروح قصاص
أم مبـــــاح لهـــا دم العشـاق ؟

واذا الجواب :

كيف يفتيــكم قتيـــل صريـــع
بســـهام الفـــراق والاشـتياق
وقتيـــل التـــلاق أحســن حـالا
عنــد داوود من قتيــل الفــراق

هذا ما رواه ابن خلكان وهو يدل على توفر أدب أبى بكر ورقـة طبعه وبروز ظرفه من فقهه وحرارة حب يتلمسها القارىء فى أبياته ، مع قدرة على الشعر فى غير مناسبته وجوه وخلواته فما كان أظرفـه فقيها مفتيا وأحلمه مسئولا وأبلغه وأرقه مجيبا !!

مؤلفـاته

قال المسعودى : ألف أبو بكر محمد بن داود فى عنفوان شبابه وقبل كمـاله وانتهائه الكتاب المعروف « بالزهرة » ، ثم تناعت فكرته وبسقت قوته فصنف الفقهيات ككتابه فى «الوصول الى معرفة الأصول» وكتاب « الانذار » ، وكتـــاب « الاعذار والابحار » وكتـابه المعروف بـ « الانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشير ، وعيسى بن ابراهيم الضرير » . قال ابن خلكان : وله غير ذلك فمن كتبه ما ذكره الصفدى فى (الوافى بالوفيات) وهى : مختار الأشعار والايجاز فى الفقه والبراعة والتقصى فى الفقه واختلاف مسائل الصحابة والفرائض والمناسك والانتصار لأبيه من الناشىء المتكلم .

فأغلب كتبه فقهى علمى والأدبى منها قليل ولكن كتاب الزهرة يعدل كتبا كثيرة ، فأسلوبه عجيب وتبويبه فريد وما فيه من شعر وخبر بليغ كريم وطريف .

شـــعره

ولأبى بكر شعر كثير معظمه فى الغزل العفيف ؛ ولكنه لم يجمعه فى ديوان فمنه ما رويناه آنفا فى جواب ابن الرومى وأكثر شعره مقطعات ومنه هذه الأبيات :

يا يوسف الحســن تمثيـــلا وتشبيها
يا طلعــة ليس الا البــدر يحكيها
من شك فى الحور فلينظر اليك فما
صـيغت معانيــك الا من معـانيها
ان الدنانير لا تجـــلى وان عتقت
لا يــزاد على النقـــش الذى فيها

واذا روى أبو بكر فى كتابه (الزهرة) شعرا يستحى من نسبته الى نفسه وهو مؤلف الكتاب غزليا وعزاه الى « بعض أهل العصر » فهو له ، وهو شىء هناك ليس بقليل . فمن ذلك قوله :

تمتــع من حبيبـــك بالـــوداع
فما بعـــد الفـــراق من اجتماع
فكـــم جـــرعت من هجـــر وغـــدر
ومـــن حـــال ارتفـــاع وانضـــاع
وكـــم كـــأس أمـــر من المنايـــا
شربـــت فلـــم يضـــق عنها ذراعى
فلـــم أر فى الذى قاسيت شـــيئا
أشـــــد من الفـــراق بـــلا وداع
تعـــــالى الله كل مواصـــــلات
وان طـــالت ــ تـــؤول الى انقطـــاع

★★★

شخصية ابن داود :

ونستطيع من تأمل هذه اللمحات من أخبار ابن داود أن نتصور صورة متكاملة لشخصيته الفذة ، فهو فقيه ولكن فقهه لم يحل بينه وبين المشاركة فى الأدب واللغة والتبريز فيهما ، وبين معرفة الفلسفة اليونانية وعلوم الحكمة • وبرغم تدينه وخلقه فان العاطفة كانت تملأ قلبه وتستولى على فؤاده ، فهو بذلك نمط فريد بين أبنـــاء عصره خالف نمط الفقهـــاء المحافظين والأدباء المستهترين وجمع بين فضـــائل الدين والخلق وبين وحدة الثقافة ولطف الذوق فهو مثال للعالم المسلم فى ثقـــافات عصره البعيد عن الرياء وهو صورة للذكاء المتقد والعاطفة الدافقـــة •

وفاتـــه :

لم تطل بابن داود الحياة فتوفى فى سن الثانية والأربعين على ما يذكر الخصيب البغدادى : فقد ذكر أنه توفى سنة ٢٩٧ هـ بعد وفاة أبى يوسف القاضى ، أما المسعودى فقد ذكر وفاة ابن داود فى سنة ٢٩٦ هـ •

وبذلك طويت حيـــاة حافلة بالبحث والدرس متقـــدة بالمشـــاعر والأحاسيس ويكفينـــا قول ابن سريج عنه : ما آسى الا على تراب أكل لسان محمد بن داود !

كتـاب الـزهرة

مر بنا منذ قليل أن أبا بكر الأصفهانى ألف كتاب « الزهرة » فى بكور شبابه ، وقالوا ان السبب فى تأليفه أن أبا بكر وقع فى الحب حتى برح به ولكنه عف وكرم ، وعانى من برحاء الهوى مثل ما كان يعانى عشاق العرب الأوائل ، فكان كتاب (الزهرة) حصيلة تلك البرحاء وفيضا تدفق من ذلك الحب العنيف الذى استحوذ على نفسه وقلبه . وكان أبو بكر رقيق الفؤاد مرهف الحس ، سريعـا اهتزازه لكل جمـال وهو القائل : « ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب » فهو من المدلهين الذين يجدون مرارة الهوى حلاوة والعذاب الغرامى راحة وريحانا ومن ينظر فى كتاب الزهرة : فصوله وأبوابه وأشعاره ومقاماته — يحس بالفعل — أن المؤلف عاشق خبير بأحوال العاشقين عميق التغلغل الى خفايا النفس عالم طب بالداء والدواء . وهذا لا يكون الا لمعان لا معاين ولموله واقع فى جحيم الهوى ليس منه بعيدا والا كان اذا وصفه ، وصفه خليا سليما . فخرج كتاب الزهرة بدعا فى الكتب وكان أبو بكر مزهوا به عمره . حتى انه لما كانت تجرى بينه وبين (ابن سريج) مناظرات كان يتباهى بكتاب الزهرة واذا غض منه (ابن سريج) ، دافع أبو بكر عن كتابه دفاع معجب به واثق من ارتفاعه ، وابن سريج هذا هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج القـاضى الشـافعى المتوفى سنة ست وثلاثمئة ، وكان فاضلا وله أشعار حسان وكان معاصرا لأبى بكر معارضا له أبدا ، وكانت خصومتهما المستمرة مثلا فريدا حفظه لنا تراث أمتنا على ما يسمى بـ « الخصومة الفكرية الشريفة » . فكانت معارضة بعضهما لبعض كريمة لطيفة تحمى فيها القلوب ولكن لا الى درجة الجهل والحقد ، وتبرد ولكن لا الى درجة السكون والتفاهة ، وكانا كلاهما يحضران مجلس القاضى أبى عمر محمد ابن يوسف فاذا تناظرا فيه وتعارضا لم يجر بين اثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجرى بينهما ، وفى أحد تلك المجالس عير أبا سريج أبا بكر فقال له فى معرض مناظرة فقهية : أنت يا أبا بكر بكتاب الزهرة أمهر منك فى هذه الطريقة . فقال أبو بكر : وبكتاب الزهرة تعيرنى ؟ فوالله ما تحسن أن تستتم قـراءته من يفهـم ، وانه لاحـدى المناقب اذ كنت أقول فيـــه :

أكرر في روض المحاسن مقلتي
وأمنع نفسي أن تنال محرما
وينطق سري عن مترجم خاطري
فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فما أن أرى حبا صحيحا مسلما

فقال ابن سريج أوعلى تفخر بهذا القول ؟ وأنا الذى أقول :

ومساهر بالغنج من لحظاته
قد بت أمنعه لذيذ سباته
ظنا بحسن حديثه وعتابه
وأكرر اللحظات في وجناته
حتى اذا ما الصبح لاح عموده
ولى بخاتم ربه وبرأته

فقال أبو بكر لأبى عمر : أيد الله القاضى قد أقر هذا على نفسه بالمبيت على الحال التى ذكرها ، وأدعى البراءة مما توجبه · فعليه اقامة البينة ، فقال ابن سريج : من مذهبى أن المقر اذا أقر اقرارا وناطه بصفة ما ·· كان اقراره موكولا الى صفته ، فقال أبو بكر للشافعى : فى هذه المسألة قولان ، فقال ابن سريج : فهذا القول الذى قلته اختيارى الساعة ·

★★★

منهج كتاب الزهرة

ابتدأ ابن داود كتابه بمقدمة مسهبة يوجه الخطاب فيها الى صاحب له يقال انه محمد بن جامع الصيدلانى الذى اشتهر بصحبته ، يعاتبه على جفائه ويمهد لغرضه من الكتاب فيقول :

« وقلت قدمنى الله قبلك — قد أعيا على وجود نديم آنس به فى الخلوات وأجد عنده عزاء من النائبات يورد الى الأخبار ويكتم على الأسرار فان كان فى ناحيتك من يفى بهذا المقدار ويحفظ من أشعار المتغزلين

وأخبار المتيمين وكان عالما بطرق الهوى وأحكامه ، عارفا بالمصيب من الشعراء فى كلامه ، حافظا من أنواع الشعر فى كل باب ما يدخل حافظه فى جملة أهل الآداب ، تطولت بايثار ضننت به على نفسك وأعفيتنى من صرف حاجتى فيه الى غيرك » .

وفى هذا النص تتضح لنا الأهداف التى يرجوها ابن داود من كتابه وحدود المنهج الذى ارتضاه فى تنـاول موضوع العشق واسـتعراض أشـعاره وأخبـاره .

وهذا المنهج يجمع الى جانب الرواية والخبر جانب التحليل وجانب النقد المعتمد على التذوق والوجدان فهو يشير الى الشعر والخبر : يحفظ أشعار المتغزلين وأخبار المتيمين والى جانب التحليل واسـتنباط قوانين العشق : بالعلم بطرق الهوى وأحكامه والى جانب النقد بالقدرة على التمييز بين المصيب من الشـعراء والمخطىء فى وصـفه لأحوال الحب وتحليـله لخطرات القلوب ومشاعرهـا .

ثم يزيدنا ابن داود معرفة بمنهجه ويلقى عليه مزيدا من الضـوء فيقول : « وقد عزمت لما رأيت بك من غلبات الاشتياق ، ومن ميلك الى تعرف أحوال العشاق أن أوجه اليك نديما يشاهد بك أحوال المتقدمين ويحضرك أخبار الغائبين » .

ثم يفصح ابن داود عن اسم كتابه ويعرض نظامه وترتيبه فيقول : « وهو كتاب سميته كتاب « الزهرة » واستودعته مائة باب ضمنت كل باب مائة بيت ، أذكر فى خمسين بابا منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وأذكر فى الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية » .

وهذه الخمسون بابا التى بين فيها ابن داود جهات الهوى وأحكامه ، هى التى يشملها كتابه المطبوع الذى بين أيدينـا .

أما الخمسون بابا الأخرى فليست لها صـلة بموضوع العشـق ويدلنـا على ذلك قول ابن داود فى آخر كتابه هذا بعـد انتهاء البـاب الخمسين : « ونحن الآن ان شاء الله ــ وقد أتينا على الخمسين الماضيـة من الأبواب ــ مبتدئون فى الخمسين الباقية من الكتاب . فأول ما نشرع فيه من ذلك ما قيـل فى تعظيم أمر الله عز وجـل والتنبيـه على قدرته والدلالة على آلائه والتحذير من سطوته ، ثم نعقب ذلك ما قيل فى رسوله

(ﷺ) ، ثم نتبع ذلك ما قيل فى المختارين من أهل بيته رحمة الله عليهم وصلواته ، ثم ننسق الى آخرها على أحق الترتيب بها حسب ما تبلغه أفهامنا ويومىء اليه اختيارنا وانما قدمت أبواب الغزل منها دينا ودنيا وأدعى الى مصالح النفس وأدخل فى باب التقوى ؛ لأن مذهب الشعراء أن تجعل التشبيب فى صدر كلامها مقدمة لما تحاوله فى خطابها ، حتى ان الشعر الذى لا تشبيب له ليلقب بالحصا وتسمى القصيدة منه البتراء ، وان قائلها ليخرج عند أهل العلم بالأشعار عن عمل يدخل فيه الموصوفون بالاقتدار والمنسوبون الى حسن الاختيار ، فأحببت ألا أخرج فى تأليف الشعر عن مذهب الشعراء ٠٠ ولم يصلح اذ انقضى ذكر التشبيب بالغزل أن أقدم على أمر الله عز وجل أمرا ، ولا أرسم بين يدى الأشعار الدالة على عظمته شعرا » ٠

فماذا أراد ابن داود من ذلك الترتيب الذى قسم فيه كتابه الزهرة الى قسمين : خمسون بابا فى أمر الهوى وخمسون فى تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ما قيل فى رسوله صلوات الله عليه وآل بيته وصحابته وما الى ذلك من الحكمة والموعظة وكريم الأخلاق ؟

لقد أراد أن ينجو من مأخذ يوجه اليه من المحافظين والمتعصبين ، فقد كانت الكتابة فى العشق وافراد الكتب لدراسته فى ذلك الزمان ، عملا لا يليق بأولى الفضل والوقار من الفقهاء والمحدثين كابن داود ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الجوزى فى ذم الهوى ، أن أبا العباس بن سريج الفقيه الشافعى كان اذا ناظر ابن داود قال له : « عليه يابن داود بكتاب الزهـرة » ٠

فأراد ابن داود ألا يجعل الحديث عن الهوى مقصودا لذاته ولا غرضا فى كتابه ، بل جعله كالتشبيب فى القصيدة بين يدى المديح أو الوصف ، وجعل غرضه الأساسى فى الكتاب هو الحديث عن تعظيم أمر الله عز وجل واستعراض ألوان الشعر الدينى والخلقى من لدن أمية بن أبى الصلت حتى عصره ، لكى لا يوجه اليه نقد ولا يلحقه عار !!

والحق أن ابن داود كان مهتما بموضوع العشق مولعا برواية أشعاره والاستزادة من فنونه حتى استطاع أن يرسم له خمسين بابا ، وأن يورد فى كل باب منها مائة بيت وما كان يتوقع لفقيه ومحدث مثله أن تصير له هذه القدرة الأدبية فى ذلك المجال ٠

ومع هذا يؤكد لنا ابن داود أن ما رواه فى هذا الكتاب ليس كل ذخيرته فى هذا الموضوع ، بل لقد التزم الاقتصار وآثر الاختصار فما ذكره فى كتابه يسير الى جانب ما يحتفظ به :

« وأقتصر فى ذلك على قليل من كثير ، وأقتنع من كل فن باليسير اذا كان ما نقصده أكثر من أن يتضمنه كتاب أو يعبر عن حقيقته خطاب ومثـل هذا الكتاب انما يطلبه أهل الآداب ؛ ليخف على الألفـاظ ويسهل للحفاظ فان بعد آخره نسى أوله ولسنا – وان اجتهدنا فى اطالته – راجين التناهى فى غايته ، ومن لم يرج الكمال فى الاكثار كان حقيقا أن يقنع بالاختصـار » ٠

وهذا القول يوحى لنا بقدرة ابن داود واحاطته بموضوع العشق وليس هذا القول منه اعتذارا عن الاختصار ، فان ما ذكره فى هذا الكتاب فى موضوع العشق كثير لا قليل وهو أوفى تناول محض لهذا الموضوع فى التراث العربى ٠

ويعود ابن داود الى مقاييس الذوق والجمال ، حتى لا يفسح المجال لجدل يطول أو يقصر فى مدح العشق أو ذمه ؛ فبين لنا أن العشق أمر يختص به أقوام يتصفون برقة طباعهم وتآلف أرواحهم فمن كان مثلهم فهو يعـذرهم ٠

فيبتعد بدراسة العشق عن المسائل العقلية والمنطقية التى تحتاج الى استدلال وتفتقر الى الاحتجاج والاقناع ، بل هو عاطفة رقيقة يبتلى بها ذوو الطبائع المتشاكلة والأرواح المتوافقة ٠ فمن كان مثلهم فى رقة الطبع وجوهرية الروح فهو يعذرهم ولا يعذلهم الا ذوو الطبائع الجامدة والقلوب الغليظة ٠

ومن هنا لا ننتظر فى كتاب الزهرة حججا منطقية أو دلائل عقلية ، فهو كتاب أفسح صدره لأحاديث العواطف وأحاسيس القلوب ٠

وفى ضوء هذا الأساس الذى أقامه ابن داود يحدد لنا غرضه الأهم من كتابه ويصف لنا حقيقة عمله ، فهو لم يصنع أكثر من اثبات الحقائق التى تحدثها الموافقة فلا لوم عليه ولا عار يلحقه ، أما نقيض ذلك فهو الذى يورث اللوم والعار : « وأكثر غرضنا من هذا الكتاب أن نذكر ما توقعه المشاكلة وما توجبه الطباع المتعادلة فاذا جمعنا بين المفترقات وألفنا بين الأشياء المتنافيات كان العار لاحقا لنا بقضائنا على أنفسنا » ٠

وأعجب ما فى الكتاب وأحلاه عنـــاوين الأبواب فهى شىء جميل وطريف ، وقد يتعجب القـارىء حين نقول له ان تلك العنـــاوين هى ــ وحدها ــ أدب وفن وبيان فقد جعل ابن داود كل عنوان باب فى كتابه مصوغا بشكل مثل عال أو حكمة غرامية ــ ان صح التعبير ــ على نسق بيان حلو وسجع ظريف ، كذلك فقد آثر ابن داود أن يضع لأبواب كتابه تراجم لا تدل على الموضوع فحسب ، بل اتجه فيها للايحاء بآرائه والتعبير عن خواطره مما جاء بها أمثالا محكمة كما يقول : « وقد جعلت الأبواب المنسوبة الى الغزل من هذا الكتاب أمثالا » ٠

وهذه تراجم الأبواب الخمسين :

١ ــ من كثرت لحظاته دامت حسراته ٠
٢ ــ العقل عند الهوى أسير والشوق عليهما أمير ٠
٣ ــ من تداوى بدائه لم يصل الى شـفائه ٠
٤ ــ ليس بلبيب من لم يصف ما به لطبيب ٠
٥ ــ اذا صـح الظفر وقعت الغير ٠
٦ ــ التذلل للحبيب من شيم الأديب ٠
٧ ــ من طال سروره قصرت شهوره ٠
٨ ــ من كان ظريفا فليكن عفيفا ٠
٩ ــ ليس من الظرف امتهان الحبيب بالوصف ٠
١٠ ــ سوء الظن من شدة الضن ٠
١١ ــ من وفى له الحبيب هان عليه الرقيب ٠
١٢ ــ من منع من كثير الوصال قنع بقليل النوال ٠
١٣ ــ من حجب عن الأحباب تذلل للحجاب ٠
١٤ ــ من منع من الوصول اقتصر على الرسول ٠
١٥ ــ من أحبه أحبابه وشى به أترابه ٠
١٦ ــ من لم يعاقب على الزلة فليس بحافظ للخلة ٠
١٧ ــ من عاتب على كل ذنب أخاه فخليق أن يمله ويقلاه ٠
١٨ ــ بعد القلوب عن قرب المزار أشد من بعد الديار عن الديار ٠
١٩ ــ ما عتب من اغتفر ولا أذنب من اعتذر ٠
٢٠ ــ اذا ظهر الغدر سهل الهجر ٠

٢١ ـ من راعه الفراق ملكه الاشتياق .
٢٢ ـ قل من سلا الا غلبه الهوى .
٢٣ ـ من غلبه هواه على الصبر صبر لمن يهواه على الغدر .
٢٤ ـ من تجلد على النوى فقد تعرض للبلا .
٢٥ ـ فى الوداع قبل الفراق بلاغ الى وقت التلاق .
٢٦ ـ ما خلق الفراق الا لتعذيب العشاق .
٢٧ ـ من غاب قرينــه كثر حنينه .
٢٨ ـ من لم يلحق بالحمول بكى على الطلول .
٢٩ ـ من قصر عن مصاحبة الجار لم ينفعه مساءلة الدار .
٣٠ ـ من منع من البراح تشوق بالرياح .
٣١ ـ فى لوامع البروق أنس للمستوحش المشوق .
٣٢ ـ فى تلهب النيران أنس للمدنف الحيران .
٣٣ ـ فى نوح الحمام أنس للمنفرد المستهام .
٣٤ ـ من امتحن بالمفارقة والهجر اشتغل فكره بالعيافة والزجر .
٣٥ ـ فى حنين البعير المفارق أنس لكل صب وامق .
٣٦ ـ من فاته الوصال نعشه الخيال .
٣٧ ـ من منع من النظر استأنس بالأثر .
٣٨ ـ من حجب عن الأثر تعلل بالذكر .
٣٩ ـ مسامرة الأوهام والأمانى سبب لتمام العجز والتوانى .
٤٠ ـ من قصر نومه طال ليــــله .
٤١ ـ من غلب عزاه كثر بكاه .
٤٢ ـ نحول الجسد من دلائل الكمد .
٤٣ ـ طريق الصبر بعيد وكتمان الحب شديد .
٤٤ ـ من غلب على صبره ظهر سره .
٤٥ ـ من لم يقع له الهوى باكتساب لم ينزجر بالعتاب .
٤٦ ـ من قدم هواه قوى أساه .
٤٧ ـ من شابت ذوائبه جفاه حبائبه .
٤٨ ـ من يئس ممن هواه فلم يلتفت من وقته سلاه .
٤٩ ـ لا يعرف المقيم على العهد الا عند فراق أو صد .
٥٠ ـ قليل من الوفاء بعد الوفاة أجل من كثيره وقت الحياة .

وفى هذه التراجم يتضح لنا أنها صيغت صياغة أدبية، بحيث صارت أمثالا موجزة و-تكما رائقة وهى ذات دلالة على مقدرة ابن داود فى مجال النثر الفنى وأصالته فى الصياغة والتعبير ٠

ونلحظ فى ترتيب هذه الأبـواب ان ابن داود قد حـرص على أن تتدرج الأبواب وتترقى فى التصوير ، بحيث تمثل نمو العاطفة وتعبر عن أحوالها الواقعة من البداية ثم ما يعرض فى أثنائها وما يتوقع فيها الى النهاية أيا كانت ، مع حرصه على أن يكون الوفاء هو طابع هذه العـلاقة حتى بعد الوفـاة ٠

وهذا ما يعبر عنه ابن داود بقوله :

« ورتبتها على ترتيب الوقوع حالا فحالا فقدمت وصف كون الهوى وأسبابه وبسطت ذكر الأحوال العارضـة فيه بعد استحكامه من الهجر والفراق وما توجبه غلبات الشوق والاشفاق ثم ختمتها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، وبعد أن أتيت على ذكر الوفاء فى الحياة وأرجيت ما بين أول الأبواب وأوسطها وما بين أوسطها وآخرها على المراتب بابا فبابا ، لم أقدم مؤخرا ولم أؤخر مقـدما » ٠

ومن هنا يتضح لنا أن ابن داود قد التزم الوحـدة فى الموضوع والوحدة العضوية فى الترتيب ، فجاء كتابه صورة متسقة ترسم للعشق حقيقته ، وهى صورة متكاملة ليس فيها ثغرات أو نقائص ٠

★★★

حقيقة العشق عند ابن داود

وترجمة الباب الأول من كتابه الذى عالج فيه حقيقة العشق ، تدل على أنه يرى أن العشق يتولد من النظر فقد جعل ترجمة هذا البـــاب : « من كثرت لحظاته دامت حسراته » وفى هذا المعنى يورد أشعارا كثيرة تدل على وقوع العشق بالنظر وحدوثه من ادامة التطلع الى مواطن الجمال ٠

ومع أن أغلب اختيـاراته فى هـذا المعنى تدل على وقوع العشق بالنظر ، الا أنه يورد شاهدين يدلان على امكانية وقوع العشق بالسماع أولهما يرويه عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب :

اذا هـن سـاقطن الأحـاديث للفـتى
سـقوط حصى المرجان من سـلك ناظـم
رمين فانفـذن القـلوب ولا تـرى
دمـا مـا تـرى الا جوى فى الحيازم

ولكن نهاية هذا الشاهد تبين اعتبار الشاعر للنظر دون السماع ، أو أن مراده السماع المساعد للنظر اذ يقول :

ولكن وبيـت الله ما طـل مسـلما
كغـر الثنـايا واضحـات الملاغـم

والثانى يرويه عن القطامى ويصفه بأنه « أحسن ما قيل فى معناه » وهو :

وفى الخـدور غمامات برقـن لنـا
حتى تصـيدننا مـن كل مصـطاد
يقتلننـا بحديـث ليـس يعلمـه
من يتقـين ولا مكتوبـه بـادى
فهـن يبـدين من قـول يصبن به
مواقـع المـاء من ذى الغـلة الصـادى

★★★

الجانب العذرى فى كتاب الزهرة

حرص ابن داود على أن يؤكد ضرورة العفـاف فى العشق ويبين مكانته فيه وأثره فى حسن عاقبته والحكم الأخلاقى والدينى عليه ، فأفرد لهذا المعنى الباب الثامن من كتابه الذى جعل ترجمته : « من كان ظريفا فليكن عفيفا » ٠

فقد كان ابن داود يؤمن بالمبادىء الاسلامية للعاطفة وبالمعانى العذرية التى أفاض فيها الشعراء الاسلاميون ٠ كما كان ابن داود فقيها ومحدثا يلتزم القيم الأخلاقية التى جاء بها الاسلام ٠

ولذلك فقد استعان فى تأكيد حقيقة العفاف بوسائل ثلاث :

١ – النصوص الدينيـة ٠

٢ – القيم الأخلاقيـة ٠

٣ – الأدب الاسلامى ونثره الذى يصـدر عن الوعى والالتزام بمبادىء الاسـلام ٠

والقيم الأخلاقية الى وجه اليها ابن داود الأنظار فى رعاية العفاف فى العشق قد جعلها مرتبطة بالابقاء على الود والحفاظ على الصلة ، اذ أنه يرى ان رعاية العفاف تحيط العلاقة بشفافية ونقاء يرقى بعواطف الانسـان ويسمو بوجـدانه ٠

فيقول :

« ولو لم تكن حفة المتحابين عن الادناس وتحاميهما ما ينكر فى عرف كافة الناس محرما فى الشرائع ولا مستقبحا فى الطبائـع لكان الواجب على كل واحد منهما تركه ابقاء لوده عند صاحبه وابقاء على ود صاحبـه عنده » ومعنى هذا أن هناك آدابا تحتم على العاشق أن يعف فى هواه ، حتى لا يعرض عاطفته للهوان أو الفنـاء ٠

وهذه القيم الأخلاقية التى يشير اليها ابن داود ويجعلها باعثا على التزام العفاف قيم نمت فى البيئة الاسلامية ، وأصبحت تقاليد لها مكانتها فى ذلك المجتمع واليها يشير ابن داود فى ترجمة الباب الذى يتحدث فيه عن الوفاء حين يقول : « من كان ظريفـا فليكن عفيفـا » ، وهو يعنى بالظرف هنـا : اللياقة والتثقيف والتقبل الحضارى والتشـكل بآداب المجتمع وتقاليده ٠ وقد كتب ابن داود كتابه هذا للصفوة المثقفة ولأصحاب الذوق والخلق فهو يشير الى آداب مرعية وتقاليد معهودة ٠

فاذا نظرنا الى الجانب الأدبى الذى استشهد به ابن داود على رعاية العفاف والاستمساك به ، نراه قد صـدر عن روح الاسلام ونما فى تربته ، وظهر انطباعه به فى أبهى صورة ٠

وقد تأثر هذا الشعر العفيف بدعوة الاسلام الى مخالفة الهوى وكف نوازعه كما قال سبحانه : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى** » ، وقال : « **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** » ، وقال : « **ولمن خاف مقام ربه جنتان** » ٠

فمما يمثل أشعار المشتهرين بالعفاف قول العباس بن الأحنف :

أتاذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لايضمر السوء ان طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وهو يجرى على اعلان العفاف واجتناب الكبائر ، مع المسامحة فى الصغائر التى لا يخلو عنها العشق كالنظر والسمع ٠

وعلى هذا الاتجاه يجرى قول حمزة بن أبى ضيغم :

وبتنا خلاف الحى لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقط الطل والندى من الليل بردا يمنة عطران
نذود بذكر الله عنا غوى الصبا اذا كاد قلبانا بنا يردان
ونصدر عن رى العفاف وربما شفينا غليل النفس بالرشفان

وفى هذه الأبيات يتضح لنا صدورها عن مبادىء الاسلام وتأثرها بتوجيهاته ٠

وقد كانت أرقى رتبة يسمو المحب العذرى بمحبوبته اليها أن يصفها بالتقى وأن يزينها بالحياء فتلك أمثل صورة يرسمها العاشق العفيف لمحبوبته كما يقول النميرى :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت به زينب فى نسوة عطرات
خرجن بفج رائحات عشية ٠ يلبين للرحمن معتمرات
يغطين أطراف البنان من التقى ويخرجن بالأسحار مختمرات
فلما رأت ركب النميرى أعرضت وكن من أن يلقينه حذرات

كما يروى ابن داود عن أعرابى أنشده ببلاد نجد :

وقد كنت ودعت النقا ليلة النقا بما ليس يبلى ثوب جدته الدهر
وما نلت شيئا غير أنك قلت لى سأرعاك فاحفظنى فديتك يا بدر
سبتك بوجه كالصحيفة واضح وفى مقلتى وسنان فى طرفه فتر
وفى مضحك عذب كأن رضابه نوار أقاحى يدجنها العطر
ومالى علم غير أنى أظنه وما لى علم غير ظنى ولا خبر

ويروى ابن داود عن أعرابية بالبادية :

ويوم كابهام الحبـارى لهوته ... بقمعـة والواشون فيه تحرف
بلا حـرج الا كـلام مـودة ... علينـا رقيبـان : التقى والتعفف
اذا ما تهممنا صددنا نفوسنا ... كما صـد من بعد التهمم يوسف

وكان اقتناع هؤلاء أن الحب بغير عفـاف زائل لا خـير فيه وأن العفاف هو الذى يضفى على العاطفة السحر والشفافية كما قال الآخر :

ألا ياشفاء النفس لم تسعف النوى ... وتحيى فؤادا لا تنـام سرائره
أثيبى فتى حققت قول عـدوه ... عليه وقلت فى الصديق معاذره
أحبك ياسلمى على غير ريبـة ... وما خير حب لاتعف سرائره

فهذا تصريح بالقيم الثابتة فى المجتمع الاسلامى وتعبير واضح عن تأثر الأدب العربى بالاسلام وصدوره عن مبادئه ·

وقد صرح الشعر العربى بقبح اللذة التى تورث صاحبها العار وتجاب له سخط الله وعقابه على نحو ما قال مسعر بن كدام :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتهـا ... من الحرام ويبقى الاثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها ... لا خير فى لذة من بعدها النار

وهذا تصوير لانطباع المسلم بعقيدته فى الثواب والعقاب وليس أثرا لفلسفة أو حكمة ·

★★★

أما أهم القضايا المتعلقة بالحب فى كتاب الزهرة فيمكن أن نرى فيها أركان هذه العاطفة أو مقوماتها ، ونجملها فى :

(أ) الأسباب البعيدة للحب :

وذلك أنه حدد النظرة سببا لبداية الحب ولما كان ليس بالضرورة أن تنتهى كل نظـرة الى حب ، فقد وجب البحث عن تعليل أكثر غورا والتصاقا بالنفس الانسانية أو الجانب الغامض منها ومحاولته فى البحث عن هذا التعليل جديرة بأن نتعرف على تفاصيلها :

« وقد ذكرنا من أقاويل الشعراء فى الهوى أنه يقع ابتداؤه من النظر والسماع ما فى بعضه بلاغ ثم نحن ان شاء الله ذاكرون ما فى ذلك الأمر الذى أوقعه السماع والنظر ، ولو وقع وكيف وقع اذ قد صح كونه عند العامة وخفى سببه على الخاصة .. عن النبى (ﷺ) أنه قال : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » .

وفى مثل ذلك يقول طرفة بن العبد :

تعارف أرواح الرجال اذا التقوا ... فمنهم عــدو يتقى وخليــل
وان امرءا لم يعف يوما فكاهة ... لم لم يرد سوءا بها لجهول

وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضا فجعل فى كل جسد نصفا وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم .

وقد قال جميل فى ذلك :

تعلــق روحى قبــل خلقنــا ... ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميـا ... وليس اذا متنـا بمنتقض العهد
ولكنه بـاق على كل حالـة ... وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

وهنا نتأمل كيف بدأ بحديث نبوى عقب عليه بأبيات جاهلية قريبة من معناه ، ثم قفز راجعا الى أفلاطون مؤيدا زعمه بأبيات من العصر الأموى وكأنها قد لقيت (فى ذلك) .

وليس هذا السبب الميتـافزيقى ــ ان صـح التعبير ــ هو التعليق الوحيد لنشأة الحب فهناك التفسير الفلكى ، حيث تتحكم الأبراج فى اتفاق الأرواح فلا يجد المرء بدا من أن يحب صاحبه ، أو فى ترابط المنافع أو مشاعر الحزن والفرح « فأما اتفاق الأرواح فانه يكون من كون الشمس والقمر فى المولدين فى برج واحد ويتناظران من تثليث أو تسديس نظر مودة فانه اذا كان كذلك ، كان صاحبا المولدين مطبوعين على مودة كل واحد منهما لصاحبه » .

وتوافق البرج يعنى توافق المزاج وهنا يظهر فى عالم الحب مصطلح جديد سيلعب دورا أساسيا فى تفسيره عند كل من كتب بعد ابن داود تقريبا وهو « المشاكلة » ، وقد جاء المصطلح الجديد فى صورة « زعم » لجالينوس • وتعليل الحب بالمشاكلة يتجاوز السبب المحدث لهذه المشاكلة وهل هو النجوم أو غيرها كما سنرى : « وزعم جالينوس أن المحبة قد تقع من العاقلين من باب تشاكلهما فى العقل ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكلهما فى الحمق ؛ لأن العقل يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد والحمق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » • فهذا هو « التوافق النفسى » بلغة عصرنا أو تجاذب الأشياء •

ثم يأتى السبب أو التفسير الثالث ويمكن أن ندعوه التفسير العلمى وهو يتلمس السبب فى نشاط الغدد المستجيبة لحركة الشعور فتتبادل معه التــأثير :

« وقال بعض المتطببين ان العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع اليه مواد من الحرص فكلما قوى ، ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة الشهوة وعند ذلك يكون احتراق الدم واستحالته الى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها الى السوداء • ومن طغيان السوداء فساد الفكر، ومع فساد الفكر تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى ما لا يتم ، حتى يؤدى ذلك الى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غما وربما نظر الى معشوقه فيموت فرحا أو أسفا ••• » •

(ب) أطوار الحــب :

وأصدق ما يصور رأيه مجملا يقوله تعقيبا على قصيدة عمر بن أبى ربيعة النونية والتى تنتهى بقوله :

قلت : يا سيدتى عذبتيــــنى قالت : اللهم عـــذبنى اذن

يقول ابن داود :

« ولو لم يصبر المحب على امتحان الفه الا بسماع مثل هذا من لفظه، لكان ذلك حظا جزيلا ودركا جليلا فكيف وحال الصفاء اذا ابتدأت بين المتحابين بالمشاكلة الطبيعية ، ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق الدنية ، ثم عذبت بالرعايات الاختيارية بلغت بهما الحال الى حيث انقطعت بهم دونه الآمــال » •

هذا اجمال لأطوار الحب وحالاته تمثل المشاكلة نقطة البدء فيه ، حيث يتم التجاذب والتلاقى على عاطفة واحدة ثم يبدأ جهاد المحبين سلبا بعدم الوقوع فى الخطا أو الخطيئة ، ثم ايجابا برعاية هذه العاطفة وما ينبغى أن تنال من الطرفين من آداب وأفعال وأقوال .

أما مراتب الحب تفصيلا فانها تبدأ بالسماع والنظر فيتولد عنهما الاستحسان ثم يقوى فيصير مودة ثم تقوى المودة فتصير محبة ثم تقوى المحبة فتصير خلة ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى فاذا قوى الهوى صار عشقا ثم يزداد العشق فيصير تتيما ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، وهو قمة ما يبلغه المحب ، اذ معناه الخروج عن حدود الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز .

فالحب عند ابن داود نوع من الاستلاب يتخلى فيه المحب عن التفكر والتخيل والاحساس بأى شىء سوى المحبوب ، ومن ثم قد يعانى حالات من الشك والقلق والجحود والرغبة فى النكوص ، ولكنه لن يكون محبا ان ترك هذه الهواجس تقترب منه أو تؤثر فى توحد عاطفته فالحب الحق « هو ما لا يريد بالبر ولا ينقص بالجفاء » وهذا يعنى فى النهاية أنه تصور عاطفة المحب بمعزل عن المحبوب ذاته فليس الحب شركة بين طرفين يضحيان فى سبيل غاية واحدة هى سعادة كل منهما بوجوده مع الآخر ، بل هو موقف فكرى فردى ينبغى على المحب الصادق التزامه بصرف النظر عن موقف الطرف الآخر ولهذا يبدى اعجابه بقول الشاعر :

ان الذين بخير كنت تذكرهم هم أهلكوك وعنهم كنت أنهاكا
لا تطلبن حياة عند غيرهم فليس يحييك الا من توفاكا

فهذا المحب قد صبر على مضاضة دائه ، مع علمه بأن صبره يزيد فى الداء « ولم ير أن ينعطف الى سواه ولا طلب الراحة الا من عند من ابتلاه » . ويقبل بتحفظ قول الآخر :

ولما أبى الا جماحا فؤاده ولم يسل عن ليلى بمال ولا أهل
تسلى بأخرى غيرها فاذا التى تسلى بها تغرى بليلى ولا تسلى

« وهذا وان كان مخالفا لذلك فى أنه جرب الأدوية على نفسه والتمس الراحة فى الف غير الفه ، فانه موافق للذى يقدمه فى التماسه من نحو الجهة

التى حدث عنها الداء فى رجوع نفسه الى وطنها واقبالها بعد الانحراف على سـكنها » ٠

★★★

(ج) آداب الحـب :

لابد لنا أن نلقى نظرات الى القواعد التى قررها ابن داود للعاطفة العذرية والمقاييس التى جعلها حكما فى هذا المجال ، فهى جانب أصيل فى كتاب الزهرة الذى لم يرد له صاحبه أن يكون معرضا لنتـاج العاطفة فحسب ٠ بل أراد منه أن يصـبح سجلا لقوانين العاطفـة التى اكتسبها الذوق العربى واستشعرها وجدان المجتمع الاسلامى فى عصره وقبله ٠

وابن داود يعتمد فى تقريره لهذه القواعد على شعر العاطفة العذرية للشعراء الأمويين والعباسيين الذين اشتهروا بهذا اللون ، مثل جميل وكثير وذى الرمة والعباس بن الأحنف والمؤمل والنميرى وغيرهم،والذين سمت لديهم صور التعبير عن العاطفة وان لم يشتهروا بالعشق مثل ابن تمام والبحترى ٠

ولذا ، فان عرض هذه المبادىء التى قررها ابن داود لابد أن يقترن بالاستدلال عليها من الشعر ، وقد أفسح ابن داود المجال لهذه المختارات ، وقد كان ابن داود وهو يجمع هذه المختـارات على وعى بما تحويـه من اتجاهـات ٠

ويرى ابن داود أن العاطفة مراتب تتفاوت فى القوة والضعف وتترقى فى القلب حالا بعد حال ٠

وقبل أن يذكر لنا ابن داود هذه المراتب ينقل عن جالينوس أن « العشق من فعل النفس وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد ٠ وفى الدماغ ثلاثة مساكن للتخيل وهو فى مقدم الرأس والفكر وهو فى وسطه والذكر وهو فى مؤخره ، وليس يكمل لأحد اسم عاشق الا حتى اذا فارق من يعشـقه لم يخـل من تخييله وفكره وذكره وقلبه وكبده ؛ فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال الكبد ومن النوم باشتغال الدماغ والتخييل والذكر له والفكر فيه ؛ فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به فمتى لم يشتغل به وقت الفراق لم يكن عاشقا فاذا القيه خلت هذه المساكن » ٠

وهنا تتهيأ أذهاننا لمعرفة مراتب المحبة التى يوردها ابن داود حسب وقوعها حالا فحالا ٠

فأول من يتوالد عن النظر والسماع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الارادة فمن ود انسانا ود أن يكون له خلا ، ومن ود عرضا ود أن يكون له ملكا ثم تقوى المودة فتصير محبة والمحبة سبب الطـاعة ٠

وفى ذلك يقول محمود الوراق :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه	هذا محال فى القياس بديـع
لو كان حبك صادقا لأطعته	ان المحب لمن أحب مطيـع

ثم تقوى المحبة فتصير خلة ، والخلة بين الآدميين أن تكون محبة أحدهما قد تمكنت من صاحبه حتى أسقطت السرائر بينه وبينه فصار متخللا لسرائره ومطلعا على ضمائره ٠

ثم تقوى الخلة فتصير عشقا والعاشق يمنعه من سرعة الانخراط فى هوى معشوقه اشفاقه عليه وضنه به ، حتى ان ابقاءه عليه ليدعوه الى مخالفته وترك الاقبال عليه ٠ فمن الناس من يتوهم لهذه العلة أن الهوى أتم من العشق وليس الأمر كذلك ٠

ثم يزداد العشق فيصير تتيما ٠ وهو أن تصير حالة العشق مستولية للعاشق ، فلا يكون معها فضل لغيرها ولا تريد بقياسه شيئا الا وجدته متكاملا فيها ٠

وفى مثل هذا المعنى يقول أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى	متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة	حبا لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم	اذا كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا	ما من يهون عليك ممن يكرم

« ثم يزداد التتيم فيصير ولها ، والوله هو الخروج عن حد الترتيب والتعطل عن أحوال التمييز ، حتى نراه يطلب ما لا يرضاه ويتمنى ما لا يهواه ، ثم لا يحتذى مع ذلك مثالا ولا يستوطن حالا ٠

وقد قال حبيب بن أوس الطائي في نحو هذا :

ولهته العلى فليس يعد الـ بؤس بؤسا ولا النعيم نعيما

والشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال والمستحسن يشتاق الى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق ، فالحب وما أشبه يتهيأ كتمانه فاذا بلغت الاشتياق بطل الكتمان » ٠

ذلك من حيث مراتب العشق وترقى أحواله ، ويؤكد ابن داود أن العشق اذا تمكن من القلب فلا حيلة له ولا تدبير ٠ يذكر لبعض أهل عصره أبياتا منها :

وقد كان يسبى القلب في كل ليلة ثمانون بل تسعون نفسا وأرجح
يهيم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من فوره حين يصبح
فلما دعا قلبى هواك أجابه فلست أراه عن ودادك يبرح
رميت بهجر منك ان كنت كاذبا وان كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وان كان شيء في البلاد بأسرها اذا غبت عن عينى عندى يملح
فان شئت واصلنى وان شئت لم تصل فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

ثم يقول :

« فالمحبة ما دامت لهوا ونظرا فهى عذبة المبتدأ سريعة الانقضاء فاذا وقعت مرتبة على التمام في المصافاة ، تعذرت قدرة القلب على هواه فحينئذ تضل أفهام المتميزين وتبطل حيل المتفلسفين » ٠

وذلك يصدق على واقع ابن داود ويصور مأساته في غلبة الهوى عليه وتمكنه من قلبه حتى أعياه أمره وجر عليه التلف ؛ فلم يقو على الخلاص منه ٠

★★★

(د) من أعراض العشق وأحواله :

تناول ابن داود في كتاب الزهرة ما يعرض في العشق من أحوال وما يترقى فيه من مراتب مختلفة بين السرور والحزن والرجاء واليأس واللقاء والفراق ، وما يوقظ الجوى في النفوس وما يبعث الشوق في الفؤاد من مظاهر الطبيعة ومشاهد الكون ٠٠

ووسيلته فى ذلك عرض الصور الشعرية الكثيرة ، التى تشهد لقوله أو تثبت رأيه أو تدل على فكرته ٠

فهو فى ذلك يضع الشواهد الشعرية فى مواضعها المناسبة ويرتبها على أحوالها اللائقـــة ٠

ولن يتسع هذا العرض لمتابعة ما أورده ابن داود فى كل أحواله ، ولكننا نتتبع الأفكار الكلية والتحليلات الدقيقة التى كان فيها ابن داود رائدا أصيلا ، ونختار القليل من الشواهد التى سجلها ٠

سوء الظن من شدة الضن :

يعلل ابن داود الغيرة التى تبدو على العاشقين تجاه من يهوون ، بأن ذلك ناشىء عن حرصهم وضنهم على غيرهم أن يشاركوهم فى هواهم ٠

فالعباس بن الأحنف من سوء الظن وشدة الغيرة تبلغ به المـدى فلا يسمع محزونا يفضى بشـكوى الا خطر بباله أنه يعنى محبوبته ، مبالغة فى الحذر وحرصا الا يشاركه فى هواه أحد ، برغم ثقته بمن يحب فيقول :

لم ألـق ذا شجن يبوح بحبه الا ظننتـــك ذلك المحبوبـــا
حذرا عليك واننى بك واثـق ألا ينال سواى منك نصيبـا

بل ان المحب يشتد قلقه حين يتفكر فى مصير محبوبه بعد موته : هل يقيم على العهد أم يشتغل بسواه كما يقول البحترى :

أعظم الرزء أن تقـــدم قبـلى ومن الرزء أن تؤخـر بعـدى
حـذرا أن تكون الفـــا لغيرى اذ تفردت بالهوى فيك وحدى

وقد يستولى سوء الظن على قلب المحب فلا يصغى لنداء العقـل فيقترف الجريمة التى يندم عليها طول حياته ومن هذا القبيل قصة ديك الجن ، وهو شاعر عباسى ذكرت المصادر الأدبية بعض أخباره ٠

قال ابن داود :

« واتصل بى أن ديك الجن قدم من سفر فوجد جاريته ، وقد كان يهواها ، عند أخيه تسأله عن خبره لابطاء كان منها ، فقتلها وقتل أمها وقال فى ذلك :

يا مهجة طلع الحمام عليها … وجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفى فى مجال خناقها … ومدامعى تجرى على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما … روى الهوى شفتى من شفتيها
فوحق نعليها وما وطيء الثرى … شيء أعز على من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن … أبكى اذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت عن العيون بلحظها … وأنفت من نظر العداة اليها

فديك الجن يصرح بسر مأساته التى دفعته الى القتل ، ثم أورثته الحزن المقيم فقد بخل عن العيون بلحظها وأنف من تطلع الأبصار اليها وقد خامره — دون شك — من ذلك الشعور ما يذهل ويأسر .

وقد ظل ديك الجن يبكى جارته تلك أحر ما يكون البكاء فى أسى صادق ولوعة غير مصنوعة فيقول :

قمر أنا أستخلصه من دجنة … لبليتى وجلبته من خدره
فقتلته وبه على كرامة … ملء الحشى وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتا كأحسن نائم … والدمع يجرح مقلتى فى نحره
لو كان يدرى الميت ماذا بعده … بالحى منه بكى له فى قبره
غصص الزمان تفيض منها روحه … وتكاد تنزع قلبه من صدره

ومع ذلك الحزن الصادق ، لم يخلص ديك الجن من وساوس الغدر التى ساورته تجاه جاريته تلك ، وبرغم الأسى الذى يخنق أشعاره فانه لم يندم على فعله بل كان أسفه على غدر جاريته ... يقول :

ليتنى لم أكن لعطفك ملت … والى ذلك الوصال وصلت
فالذى منى اشتملت عليه … ولعار ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل لم جهلت ولا … أعلم أنى حلمت حتى جهلت
لائم لى بجهله ولماذا … أنا وحدى أحببت ثم قتلت
سوف آسى طول الحياة وأبكيـ … ـك على ما فعلت لا ما فعلت

ويرى ابن داود فى هذه الأبيات احتمال أن يكون ديك الجن مغلوبا فيها على عقله ، أما اذا لم يكن كذلك « فظنه الظن الذى لا غاية بعده ، وذلك أنه قد أيس من حبيبه بقتله له . وهو غير نادم على فعله بل مصوب له وراجع باللوم على نفسه فيما أتاه من الغدر » .

وحين يتأمل الناظر هذه الغصص التى يتجرعها العاشقون فى ضنهم وظنهم واشفاقهم ووساوسهم يرى صدق قول القائل :

وما فى الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى عذب المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة ، أو لاشتياق
فيبكى ان نأوا شوقا اليهم ويبكى ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى وتسخن عينه عند التلاقى

أما ابن داود فانه يرى أن «تلك المكاره كلها أثمار الملاذ التى قبلها» .

فعنده أن الأمر يترقى بالمحبين من مرتبة الى أخرى حتى ينتهى بهم الى هذه الحال المقلقة ، ويشرح لنا ابن داود كيف يصل العاشق الى درجة الضن وسوء الظن فيقول : « فان من هوى انسانا ، فان قصاراه حين يهواه أن يعيد نظره اليه فيروى من شخصه ويستمع من لفظه » ويترقى به ذلك الى كثرة التلاقى والمواصلة وهو فى تلك الحال لا ينتبه الى موقف محبوبه ممن سواه ، لأنه مشغول بحظوظ نفسه « بل يجب أن يكون الفه سمحا بالمواصلة لمن علم أنه يوده ؛ ليكون ذلك سببا له الى مواصلته وتسهيلا له السبب الى معاشرته » .

وبعد ذلك يتشاغل المحب بالمطالبة بحقوق الفه . بعد أن يفرغ من المطالبة بحظوظ نفسه له من معاشرة غيره ، بل انه يصون الفه ويشفق عليه من مخالطته وعندئذ تبدر بوادر الشك وتهب رياح الظن ؛ فيعود الى ما كان يحسب له به مكرمة من بره به فيجعله عليه هجنة ويوهم نفسه أن ذلك الذى ناله ممنوح من كل من سأله .

ألم تسمع الذى يقول :

فلا تكثرى قولا منحتك ودنا فقولك هذا فى الفؤاد مريب
تعدين ما أوليتنى منك نائلا وللقابس العجلان منك نصيب

« فحينئذ يظن المحب ما لا يخشاه ويتمنى ما لا يهواه ويفسد عليه أمر دينه ودنياه وهذه حال الوله الذى ذكرناه » .

ومعنى ذلك أن هذه الحال من شدة الضن وسوء الظن تقتصر على مرتبة الوله وهى مرتبة فوق العشق ، أما مرتبة العشق فانها « توجب على المحب طاعة المحبوب فى كل ما أحب حتى لا يعصى له أمرا ولا يقبح له فعلا » .

★★★

ابن داود وتأثيره

ما المصادر التى يمكن أن نرجع كتاب الزهرة اليها ؟

هل هى كتب بذاتها ؟ أم هى أجناس من الأدب والعلم ؟ وهل يعود الى الثقافة العربية وحدها ؟ أم أن فيه ألوانا من الثقافات الأخرى ؟

وأول ما نلمحه فى كتاب الزهرة أنه ليس تأليفا بالمعنى المفهوم من الكلمة وهو النظر فى نتاج السابقين والاختيار من آرائهم وأقوالهم ، فليس مستقى من كتب ولا صادرا عن دراسات سابقة ، اذ انه لم تسبق دراسة ابن داود للعشق دراسة يعول عليها ويؤخذ عنها ·

ومن هنا كان كتاب الزهرة كتابا رائدا فى موضوعه ، اختط لنفسه منهجا جديدا وأقام بناءه كما يحلو له ، ودون أن يثقله عناء النقل عن الكتب ودراسة الوجهات السابقة ·

ويدل على ذلك قول ابن داود فى مقدمته : « انتزعته لك من خواطرى واخترته من غريب ما اتصل بمسامعى » ·

فكتاب الزهـرة كما يقول د· مصطفى عبـد الواحـد فى كتابـه « دراسات الحب فى الأدب العربى » عبارة عن أجناس أدبية وعلمية ، مزج بينها ذوق دقيق وفكر منظم ووجدان رقيق وهذه الأجناس هى :

١ ــ الشعر العربى فى عصوره الجاهلية والأموية والعباسية ·
٢ ــ النقد الأدبى ·
٣ ــ الأخبار الأدبية ·
٤ ــ معلومات من الحكمة والفلسفة ·
٥ ــ التحليلات والتأملات النفسية ·
٦ ــ أحاديث ولمحات دينية ·

وبذلك يتمثل فى هذا الكتاب كل ألوان الثقافة الأدبيـة بمعناها الشائع فى الفترة التى عاشها ابن داود ·

وهذه الثقافة التى يصـــدر عنها ابن داود فى كتابه ثقافــة عربية اسلامية ، تنتسب الى البيئة التى عاش فيها ابن داود ولا تمد بجذور الى سواهــا ٠

ومن هنا ، فلا يمكن أحدا نسبة كتاب الزهرة الى مصادر دخيلة على الثقافة العربية فهو لا يمت فى غايته أو وسيلته الى جذور غير عربية ٠

فقد نشأ هذا الكتاب استجابة لحاجة اجتماعية ، حين حاول ابن داود أن يقدم للصفوة المتأدبة فى مجتمعه تحليلا لحقيقة الحب وصورة مكتملة لقواعده وآدابه ، واستعان فى ذلك بكل الوسائل الثقافية والأدبية المعاصرة له التى تناسب موضوعه وتحقق غايته٠ويدل على الصبغة العربية لكتاب الزهرة أن الشعر كان سداه ولحمته بحيث يمثل أعظم جانب فيه فهو اذن مستقى من الوجدان العربى قائم على صوره وأخيلته ٠

ويستطرد د٠ مصطفى عبد الواحد قائلا :

« ولسنا ننفى بذلك أن يكون لابن داود اطلاع على الثقافات المترجمة كالفلسفة اليونانية،فان من الثابت أن ابن داود قد طالع جانبا من هذه الفلسفة التى ترجمت قبل مولده فى بداية العصر العباسى،بدليل ما يذكره فى كتابه من اشارات موجزة اليها ؛ ولكننا ننفى أن يكون كتاب الزهرة صادرا عنها أو أثرا من آثارها ، فان الحيز الذى شغلته الفلسفة فى كتاب الزهرة حيز ضئيل بحيث لا يمثل عنصر ذا أهمية فيه ، ولو أنك حذفتها من الكتاب ثم قرأته لم تجد فيه حلقة مفقودة ولا فجوة بارزة ٠

واغلب الظن أن ابن داود ضمن كتابه هــذه اللمحــات القليلة من الفلسفة والعلوم الطبيعية حلية لكتابه وشــارة الى نواحى ثقافته ، فان الفلسفة فى ذلك العصر كانت لاتزال طريفة جديدة على الأذهان أو كانت طابع التجديد وشارة التفوق » ٠

وعلى كل ، فان أهم المصادر التى اعتمد عليها ابن داود فى كتابه هو الشعر بحيث نستطيع اعتباره مجموعا من المجاميع الشـــعرية الضخمة حفظت لنا جانبا هاما من تراثنا الشعرى فى أعذب صورة وأرقها وهو جانب العاطفة المشبوبة والمشاعر المحلقة ، أما المصادر العلمية من فلسفة ودين ونقد فهى لا تمثل فى الكتاب جوهره ، بل تضيف اليه حليــة أو تستكمل زينة ، ويبقى بعد ذلك عمل الرجل فى تحــليل هذه الأبيــات الشعرية وفى الافضاء بنظراته فى قواعد العشق وآدابه وتحليلاته النفسية لخواطره وخلجاته وان كان جانب الشعر قد طغى على التحليل والتعليل ٠

وقد اعتمد ابن داود فى ايراد الشعر فى كتابه على الرواية الشفهية عن معاصريه أمثال البحترى ، وعلى الرواية الأدبية عن العصور السابقة وقد كان المتأدبون يتفاوتون بمقدار روايتهم للشعر وكثرة حفظهم منه .

أما جانب التحليل والتأمل فى الكتاب،فقد صدر عن ذهن ابن داود وانبعث من وجدانه فليس له فيه مرجع سابق وليس لهذا الشأن أصل مقـدم .

وقد دل ابن داود فى تحليله للخواطر والأفكار فى كتابه — على ملكة أصلية وذوق دقيق ، ولو أنه أفسح المجال لهذا التحليل لخرجنا بدراسة نفسية مكتملة للمشاعر والخواطر والأفكار التى تتصل بموضوع العشق ، ولكن التزامه بقدر معين من الشعر جعله يفسح له المجال ويبث خواطره وآراءه على قدر .

أما تأثير كتاب الزهرة فى الدراسات الأدبية فى موضوع العشق ، فانه لا يبدو واضحا فى كتاب بعينه ، بقدر ما يبدو فى كتاب طوق الحمامة لابن حزم .

وما عدا ذلك،فلم ينح منحى ابن داود أحد من الكاتبين فى موضوع العشق .

ولا شك فى أن كتاب الزهرة كان ذا تأثير قوى فى كل الكتب التى تناولت موضوع العشق من بعده من حيث المادة الشعرية الحافلة التى حواها ، والتى حفظت جانبا كبيرا من شعر الأعراب والأفراد غير المشتهرين، ولولاه لضاع جانب هام من تراثنا الأدبى ولفقدت حلقة تعبر عن أرق جانب فى الوجدان العربى ، كما أن ترتيبه لدرجات العشق ووضعه لقواعده وآدابه ظلت هى النموذج المرعى فى الدراسات التى اهتمت بالتحليل والترتيب مثل طوق الحمامة وذم الهوى لابن الجوزى وغير ذلك .

★★★

مروج الذهب

المسعودى

القرن العاشر الميلادى

من ميزات المؤلفات التاريخية التى دونتها أقلام المؤرخين العرب الذين عاشوا وكتبوا فى العصر العباسى الثانى وما تلاه ، اتجاهها نحو المنهج العلمى وميلها الى الدقة التى تتطلبها كتب التاريخ بشكل عام . ويمثل هذا الاتجاه الجديد فى التأليف التاريخى ثلاثة هـم : الطبرى والمسعودى ومسكويه .

وقد تحدثنا فى الأجزاء السابقة من الموسوعة عن كل من الطبرى ومسكويه ، واذ نتحدث فى هذا الجزء عن المسعودى سنجد أن المسعودى المؤرخ يسير على نهج الطبرى فى بعض الأمور : فهو مثلا مؤرخ حسب السنين لا حسب الموضوع ويذكر أكثر من رواية فى الموضوع الواحد ويستقى مواده من أقوال من سبقوه من المؤرخين بعد أن يتحرى الصدق فيما يجمع؛ولكنه يغاير منحى سلفه فى أمور كثيرة أخرى لظروف فرضتها بيئته وثقافته وعصره وغير ذلك ، وقبل أن نبسط القول فى خصائص مؤلفاته ونهجه فى البحث لنعش معه حياته كما تصورها لنا المعلومات القليلة التى نراها مبعثرة فى ثنايا بعض كتب التراجم والأخبار .

مولد المسعودى

المسعودى واسمه الكامل أبو الحسن على بن الحسين لا تبدأ حياته بسنة مولد ومكان ولادة . بل يكتنف الغموض سنة مولده وفى المصادر أكثر من رواية حول مكان ولادته . فابن النديم صاحب الفهرست مثلا يذكر أنه من أهل المغرب ، فى حين أن غيره من كتاب التراجم كالذهبى وياقوت الرومى وابن شاكر وغيرهم يجمعون على أنه من مواليد بغداد ، وأنه من نسل الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود . ويؤيد هذا الزعم ما يذكره المسعودى نفسه فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » حيث يعدد أوصاف الأقاليم المختلفة فيقول : « وأوسط الأقاليم الذى ولدنا به وان كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه وولدت فى قلوبنا الحنين اليه ، اذ كان وطننا ومسقطنا وهو اقليم بابل وقد كان هذا الاقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما » وهكذا يمكننا أن نقول فى تحديدنا لمكان ولادته انه أبصر النور فى بغداد ، مسقط رأسه ومستقر أهله وذويه من نسل صاحب رسول الله عبد الله بن مسعود . أما زمان ولادته فتهمله المصادر التى بين أيدينا ولا تتعرض له بذكر وهذا أمر طبيعى ، لأن أحدا لم يكن يتوقع له الشهرة وذيوع الصيت حين ولد ؛ ولكنه حين نبغ واحتل بين رجال عصره مكانا مرموقا سلطت الأنوار عليه

وتناقلت اسمه الألسن فحرص رجال التراجم على تدوين سنة وفاته والمصادر ، الا أن بعضها القليل ، تجمع على أن وفاته كانت فى العام ٣٤٦ للهجرة ، كما أن فى بعضها ما يدل على أنه دخل الحياة العامة وأخذ يجول الأقطار طلبا للعلم والمعرفة فى مطلع القرن الرابع للهجرة · وهذا ان كان لا يرشد الى سنة مولده الحقيقية ، فانه يسمح لنا بالاعتقاد بأنه ولد فى أخريات القرن الثالث الهجرى وانه لم يعل له ذكر الا منذ مطلع القرن الرابع ، ولذا فهو يعد من مؤرخى هذا القرن الأخير ·

أسفار المسعودى

وقد أحب المسعودى الأسفار منذ شبابه فسافر سنة ٣٠٥ الى اصطخر فى فارس وزار فى السنة التى تلت بعض مناطق الهند وسيلان وبلاد سيمور ، وانضم الى فريق من التجار فى رحلة فى بحر الصين وعبر البحر الأحمر وزار مدغشقر كما زار زنجبار وعمان · وحوالى سنة ٣١٤ نجده يجوب بحر الخزر (بحر قزوين) ومناطقه ، وينتقل بعدها لزيارة طبرية وفلسطين ، وقد قام فى سنة ٣٣٢ بزيارة لأنطاكية ، وبعض مدن الحدود السورية · واستغرقت زيارته لهذه المناطق مدة سنتين أقام أثناءها فى بعض مدن الثغور الشامية والبصرة · حتى كان العام ٣٢٤ فتوجه الى دمشق وأمضى فيها بعض الوقت · وانتقل منها الى مصر ليعيش متنقلا بينها وبين سوريا حتى آخر حياته · وقد توفى سنة ٣٤٦ وهو مقيم فى الفسطاط بمصر ·

هيرودوت العرب

وقد دفع المسعودى للقيام بهذه الرحلات الطويلة المتتالية حبه للعلم ورغبته فى طلبه والاستزادة منه · فهو بهذا يشبه المقدسى والبيرونى · وقد أتاحت له هذه الأسفار أن يعنى بمعارفه الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، وأن يتعرف على لغات وعادات وتقاليد وأخلاق وسياسات الأمم المختلفة التى زارها · وهو فى جمعه بين المعرفة الجغرافية الواسعة بنتيجة الرحلات والأسفار وشغفه بالحقيقة التاريخية والأخبار بوجه عام ، يلتقى بهيرودوت أبى التاريخ عند اليونان فكلاهما رحالة زار البلاد وجاب الأقطار ، وكلاهما جمع أخبار الأمم التى زارها ، وكلاهما مزج بين التاريخ والجغرافيا فى مؤلفاته · وقد دعا هذا بحق المستشرق فون كريمر أن يشير الى المسعودى فى كتابه « تاريخ الثقافة فى الشرق » باسم هيرودوت العرب ·

ينقــل ولا ينقـــــد

يأخذ البعض على المسعودى أنه لم يكن يتمتع دوما بالروح العلمية العميقة ، وأنه كان فى بعض الأحيان سطحيا يقبل الخرافات والأساطير ويسردها فى كتبه كما تصل اليه دونما تمحيص أو نقد • ولكن المستشرق سيديو لا يعتبر هذا عيبا فى المسعودى بل يرجعه الى روح حب الاطلاع النامية عنده فيقول : « ولا نخشى التكذيب اذا قلنا انه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودى واذا كنا نراه محتاجا الى روح النقد أحيانا ، فلنذكر أن حب الاطلاع الشديد فيه حفزه الى زيارة الأماكن الى أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق الى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه » •

المســعودى موسوعى

والمسعودى موسوعى لا يؤمن بالموضوع الواحد ولا يقنعه الاختصاص الضيق فيما يكتب واذا كان لهذا النهج مساوئه ، فهو لا يخلو من محاسن تدل على سعة أفق المؤلف وشمول نظراته وتعدد جوانب ثقافته ويحدثنا هو عن تنوع الموضوعات التى يضمها المؤلف الواحد من مؤلفاته فيقول فى الباب الذى يذكر فيه جوامع أغراض كتابه المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ما يلى مما يستدل منه على تضمينه هذا الكتاب أبحاثا فى التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب وأخبار الملوك وسياستهم وغير ذلك • يقول المسعودى : « أما بعد ، اننا صنفنا كتابنا فى أخبار الزملن وقدمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها•••ثم أتبعناه بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة •• ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الاخبار على التاريخ ومن درج فى السنين الماضية ••• ونعتذر عن تقصير ان كان ونتنصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائـع الأمـم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة فتارة بأقصى خراسان وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان وطورا بالعراق وطورا بالشام ••• نسرى فى الآفاق سرى الشمس فى الاشراق • كما قال بعضهم :

تيمـــم أقطـــار البـــلاد فتـــارة
لدى شرقها الأقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس لا ينفـك تقـذفه النوى
الى أفـــق نـــاء يقصر بالركـــب

وفاوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم .. » .

وهكذا يصنف لنا الموضوعات التى تطرق الى بحثها فى كتابه وينقلنا معه فى أسفاره واصفا متاعبه فى رحلاته واطلاعه الواسع على ما ألف من قبله ومعددا بعضا مما دبج قلمه من مؤلفات فى التاريخ والجغرافيا وغيرها . وهو كغيره من المؤرخين العرب لا يتبع نظاما موحدا فى عرض مادته ونراه فى كثير من الأحيان يخرج عن جادة الموضوع الأصلى ليذكر أشياء لا تمت الى ما يبحث بصلة أو نسب . ولكنه يهتم ببحث جميع الأشياء التى يعتبرها المتعلم فى عصره أساسية ؛ لذلك جاءت مؤلفاته جامعة لكثير من المعلومات المتشعبة المتفرعة . وهو يلتفت بشكل خاص الى الأمور الاجتماعية والدينية والعلمية التى تميز بها العرب قبل اسلامهم ويقارن بينهم وبين العجم وغيرهم من الأمم ، محاولا اظهار فضل العرب وتقدمهم فتراه عند ذكر سير الملوك والخلفاء يستقصى أدق أخبارهم الخاصة فيدخل بيوتهم ويعيش معهم فى مجالسهم ويصف ملامحهم وعاداتهم فى المآكل والمشرب الملبس مما لا تجده عند غيره . وقل الأمر نفسه عن اهتمامه بما كانت عليه أمة العرب من معتقدات دينية وايمان بآلهة وأوثان وزجر الطير وسوانحه وبوارحه والكهانة والعرافة ، حتى يصل الى علومهم ومجالس أنسهم وقيانهم وآلات طربهم التى ضاع أغلبها ولم يصل الينا منها الا القليل .

تصانيف المسعودى

ومن تصانيفه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، التنبيه والاشراف ، أخبار الخوارج ، ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور ، الرسائل ، الاستذكار بما مر فى سالف الأعصار ، أخبار الأمم من العرب والعجم ، خزائن الملوك وسر العالمين ، المقالات فى أصول الديانات ، البيان فى أسماء الأئمة ، المسائل والعلل فى المذاهب والملل ، الابانة عن أصول الديانة ، سر الحياة ، الاستبصار فى الامامة ، والسياحة المدنية فى السياسة والاجتماع ، ويبدو أن أوسع

كتبه كان كتابه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » ٠ وهو كتاب فى التاريخ العام والجغرافيا بدأ فى تاليفه سنة ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م ٠ وقد بلغ عدد أجزاء هذا الكتاب ثلاثين مجلدا ، عرض فيها المسعودى الحوادث حتى سنة تاليفه ٠ وقد ضاعت أجزاء هذا الكتاب كلها ولم يبق منها الا مجلد واحد اشتراه المستشرق فون كريمر من مكتبة فى حلب وحفظه فى مكتبة فيينا ٠ ويذكر السائح الانجليزى بوركهارت فى كتابه « رحلات فى بلاد النوبة » ان شيخا قاهريا قص عليه فى مطلع القرن التاسع هذا الكتاب فى ملازم من أربع ورقات فى مكتبه فى جامع أياصوفيـا بالقسطنطينية ويبحث المسعودى فى هذا الكتاب تاريخ العلم وجغرافيـة ديار الحرب (أى بلاد غير المسلمين) كما يبحث أيضا فى الأساطير التى تتحدث عن تاريخ مصر القديم ٠ وقد نقل جزءا مما كتبه فى هذا الكتاب فى كتابه « الكتاب الأوسط » الذى لم يبق منه أيضا الا مجلد واحد محفوظ فى مكتبة البودليان فى آكسفورد ٠

وقد اختصر المسعودى المعلومات التى أوردهـا فى هذين الكتابين (كتاب أخبـار الزمان والكتاب الأوسـط) وجمعها فى كتابه المسمى « مروج الذهب » الذى انتهى من تاليفه سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وأعاد النظر به سنة ٩٤٥ هـ / ٩٥٦ م أى قبل وفاته بقليل ٠

كتاب التنبيـه والاشراف

وللمسعودى كتاب مطبوع آخر هو كتاب « التنبيه والاشراف » الذى ألفه قبل وفاته بقليل ، وهو على حد تعبير المؤلف نفسه مقدمة لكتبه وتكملة لها ٠ وهذا الكتاب عظيم الأهمية ؛ لأنه يحوى كل ما حصله المؤلف من الأخبار بعد أن كتب « مروج الذهب » الكتابة الأولى وهى التى وصلت الينا وقبل أن يعيد النظر به كما ذكرنا آنفا ٠ وهو كتاب جغرافى أودع المؤلف فيه لمعـا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها وتراكيبها واقسام الأزمنة والفصول السنوية ومنازلها والريـاح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها وتأثير النواحى والآفاق على السكان والعروض والأطوال والأقاليم السبعة والأنهـار ومصـابها ٠ كمـا يذكر فى هذا الكتاب الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها،كما يذكر ملوك الفرس والروم وأخبارهم وأخبار الأنبياء وسيرة الخلفاء حتى سنة ٣٤٥ للهجرة ٠ وميزة هذا الكتاب أنه يحوى الكثير من المعلومات الجديدة التى لم يضمنها المسعودى مؤلفاته الأخرى ٠ وقد طبع النص العربى الكامل لهذا الكتاب المستشرق دو خويه

فى سلسلة « مكتبة جغرافيى العرب » وذلك فى مدينة ليدن عام ١٨٩٤ ، وقد ترجم النص العربى هذا الى الفرنسية المستشرق كارا دى فو ، ونشره ضمن منشورات الجمعية الآسيوية — مجموعة الكتب الشرقية — وذلك فى باريس عام ١٨٩٧ ٠

واذا كان لحرص المستشرقين والمهتمين بتاريخ العرب والاسلام على ترجمة كتب المسعودى الى اللغة الأجنبية وطبعها ونشرها من دلالة ، فهى تقديرهم البالغ لآثار هذا المؤلف وحرصهم على الافـــادة منهـــا ويلخص فازيليف فى كتابه « العرب والروم » اعجاب المؤلفين الغربيين بكتب مؤرخنا المسعودى بقوله : « وكتب المسعودى مما يقرؤه المسلمون والأوربيون على السواء فيجدونه ممتعا طليا وذلك راجع الى تنوع الأخبار التى يسوقها المؤلف والى قدرته على جعل سرده حيا فى كتبه » ٠

كتاب مـروج الذهب

لا شك فى أن كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » من أعظم كتب المسعودى خاصة ومن أبرز المصنفات العربية عامة ٠ تحدث المسعودى عن سبب تسمية كتابه بهذا الاسم فقال : « وقد وسمت كتابى هذا بكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه : من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة فى معناه وغرر مؤلفاتنا فى مغزاه جعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات ؛ لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة اليه وتنازع النفوس الى عمله من دراية ما سلف وغبر فى الزمان » ٠

وكتاب « مروج الذهب » دراسة تاريخية جغرافية ربط بها المسعودى بين الزمان والمكان ٠ تحدث المسعودى عن محتوياته فقال انه تحدث فيه عن « التاريخ وأخبار العالم وما مضى فى أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها » ٠

ويتميز كتاب « مروج الذهب » أيضا باهتمامه الواضح بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية ، فنجد فيه صورا كثيرة لحياة كثير من الشعوب عربية وغير عربية ٠ وكان المسعودى أول من اهتم بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصـــادية ٠

وكتاب « مروج الذهب » ليس تاريخا متصل الحلقات بعضه ببعض، ولكنه يتالف من مجموعة من الأحداث والاخبار رتبها المسعودى ترتيبا موضوعيا ويمكننا أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى قسمين متميزين : أما القسم الأول فيتحدث فيه المسعودى عن الخليقة وقصص الأنبياء والبحار والأرضين وما فيهما من العجائب وتواريخ الأمم القديمة من الفرس واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم والشهور والتقاويم ، ثم تحدث المسعودى فى آخر القسم الأول عن البعثة النبوية والدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول الى خلافة عثمان ابن عفان • أما القسم الثانى فيبدأ بخلافة على بن أبى طالب • ثم يتناول الخلافة الأموية ثم يتحدث عن الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المطيع لله العباسى سنة ٣٤٥ هـ اذ توفى المسعودى فى سنة ٣٤٦ هـ •

أشار المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » الى كثير من كتبه التى ضاعت فلم تصل الينا،والى كتب غيره من المؤلفين التى لاقت نفس المصير، مما يدل على أن المسعودى قد قرأ كثيرا من الكتب واعتبرها مصادرا لكتابه الى جانب مشاهداته وما سمعه خلال رحلاته وان كانت بعض المعلومات الجغرافية التى أوردها المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » قد ورد ذكرها فى كتب من سبقوه الا أنه ينفرد بمزية لم يشاركه فيها من سبقه من الجغرافيين العرب ، اذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الاسلامى فى عصره • كما تميز عنهم بالدقة والعمق وطرق المسعودى مواضيع جديدة لم يطرقها من سبقه من المؤرخين المسلمين : فقد تحدث عن تواريخ الهند والفرس والروم واليهود ، كما أبرز تاريخ العرب فى العصر الجاهلى وأديانهم وعاداتهم وأيامهم •

رسم المسعودى لمن يقرأ كتابه « مروج الذهب » طريقة الاستفادة منه ، وحتى يدرك القارىء المجهود الكبير الذى بذله فى تاليفه ، أشار المسعودى الى رحلاته العديدة وأنه ينتهج مذهب الحياد التاريخى فلا يتعصب ولا ينحاز الى أحد ولا يعرض بأحد فيقول المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » : « وجميع ما أوردناه فى هذا الكتاب لا يسع ذوى الدراية جهله ولا يعذر فى تركه والتغافل عنه ، فمن عد أبواب كتابى هذا ولم يمعن النظر فى قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلنا ولا عرف للعلم مقداره فلقد جمعنا ما فيه فى عدة سنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان فى الأسفار وطواف فى البلدان من الشرق والغرب فى كثير من الممالك غير مملكة الاسلام • فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة وليتفضل

بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحفه الكاتب وليرع لى نسبة العلم وحرمة الأدب وموجبات الرواية وما تجشمت من التعب فيها فان منزلتى فيه وفى نظمه وتاليفه بمنزلة من وجد جوهرا منثورا ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة فنظم منها سلكا واتخذ عقدا نفيسا ثمينا باقيا لطلابه • وليعلم من نظر فيه أنى لم أنتصر فيه لمذهب ولا تحيزت الى قول ولا حكيت عن الناس الا مجالس أخبارهم ولم أعرض فيه لغير ذلك » •

نال كتاب « مروج الذهب » اهتمام المفكرين فى الشرق والغرب • فقد ترجمه المستشرق « باربيه دى مينار » الى اللغة الفرنسية وطبع الكتاب فى باريس سنة ١٨٧٢ فى ٩ مجلدات ؛ كما ترجم الأستاذ « سبرنجر » الكتاب أيضا الى اللغة الانجليزية وظهر الجزء الأول فى لندن سنة ١٨٤١ • كما ظهرت طبعات عربية عديدة للكتاب فى كثير من العواصم العربية •

مع مقتطفات من مروج الذهب

(أ) الجزء الأول :

١ ــ فى الباب الأول من كتاب « مروج الذهب » نرى المسعودى وقد سلك مسلك المؤلفين المحدثين فيتحدث عن دافعه الى تأليف هذا الكتاب والمصادر التى اعتمد عليها مع عقد مقارنة بينها • يبدأ الباب الأول بحديث المسعودى عن كتابه « أخبار الزمان » وقد لخص المسعودى أبواب هذا الكتاب على النحو الذى ذكرناه آنفا عند حديثنا عن آثار المسعودى • ثم يتحدث المسعودى عن كتابه الثانى «الأوسط فى الاخبار على التاريخ» ، ثم تحدث عن الدافع له على تأليف كتاب « مروج الذهب » فقال : « رأينا انجاز ما بسطناه واختصار ما وسطناه فى كتاب لطيف نودعه لمع ما فى ذينك الكتابين مما ضمناهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والأعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما » •

ويظهر المسعودى بمظهر المتواضع فهو يعتذر عما قد يلاقيه القارىء من تقصير ويعلل ذلك التقصير بقوله : « على أن نعتذر من تقصير ان كان وتنتصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر •••

ثم مفاوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم على أن العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه العناء وقل الفهماء فلا تعاين الا خمولا جاهلا ، ومتعاطيا ناقصــا قد منع بالظنون ، وعمى عن اليقين » .

ثم تحدث المسعودى عن كتبه ومؤلفاته ودون نبذة مختصرة عن كل كتاب منها ثم حـدد أهدافه من تأليف « مروج الذهب » فقال انه أراد « احتذاء الشاكلة التى قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلما منظوما عتيدا » ، وأراد المسعودى أن يثبت للقارىء أن كتابه يتميز عن كتب من سبقوه فقال : « فانا وجدنا مصنفى الكتب فى ذلك مجيدا ومقصرا ، ومسهبا ومختصرا ، ووجدنا الأخبـار زائدة مع زيادة الأيام حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غلب البارع منها على الفطن الذكى ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ولكل اقليم عجائب يقتصر على علمها أهله » . ويفخر المسعودى على أقرانه المؤلفين اذ قد رحل كثيرا واستفاد من رحلاته فيقول : « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى اليه من الأخبار من اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه واثـارة كل نفيس من مكمنه » .

وأشار المسعودى الى كتب من سبقه من المؤلفين ونقدها نقدا علميا ، وأبرز ما فيها من محاسن ومميزات وأشار الى بعضها اشارات عابرة وأطنب فى مدح بعضها الآخر ، واشتد فى انتقاد سنان بن ثابت قرة الحرانى . وقال اجمالا عنهم : « وقد ألف الناس كتبـا فى التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف فأصاب البعض وأخطأ البعض وكل قد اجتهد بغاية امكانه وأظهر مكنون جوهر فطنته » وخشى المسعودى أن يكون قد أغفل ذكر بعض الكتب الأخرى فلم يشر اليها فقـال : « ولم نذكر من كتب التواريـخ والأخبـار والسـير والآثار الا ما اشتهر مصنفوها ، وعـرف مؤلفوها ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث فى معرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم،اذ كان ذلك كله أكثر من أن نأتى على ذكره فى هذا الكتاب » .

ثم أشاد المسعودى بكتابه « مروج الذهب » وعدد مزاياه فقال : « ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنـا من الأخبـار ولا طريقـة من الآثـار الا أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات أو لوحنا اليه بفحوى من العبارات » .

وينهى المؤلف عن التصرف فى الكتاب فى أية صورة ويخوف من ذلك ويذكرنا هذا بما نراه اليوم فى مقدمات بعض الكتب الحديثة التى يحذر مؤلفوها كل من تسول له نفسه أن ينقلها أو يترجمها أو يطبعها بدون اذن المؤلف !! وان كان المؤلف المحدث يهدد اليوم باللجوء الى القضاء فالمسعودى يهدد من يعبث بكتابه بغضب الله عليه وسرعة نقمته وان الله سينزل به البلاء ويجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين ، ثم يقول المسعودى: « وقد جعلت هذا التخويف فى أول كتابى هذا وآخره ليكون رادعا لمن ميله هوى أو غلبه شقاء فيراقب الله ربه وليحاذر منقلبه فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة والى الله المصير » ٠

٢ ــ تحدث المسعودى فى الباب الثانى من كتابه عن محتويات جميع أبواب الكتاب فهو بمثابة فهرس مفصل بمواضع الكتاب وقد بلغ عددها ١٣٢ بابا ٠ وختم المسعودى هذا العرض بقوله : « فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب على انه قد يأتى فى كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم ، بأبواب نفردها عن سيرهم والجوامع مما كان فى أعصارهم وأخبار وزرائهم وما جرى من أنواع العلوم فى مجالسهم ملوحين بذلك الى ما سلف من تصنيفنا وتقدم من تاليفنا فى هذه المعانى والفنون »٠

٣ ــ يتحدث المسعودى فى الجزء الأول من الكتاب عن عدد كبير من الموضوعات يغلب عليها الطابع التاريخى وهو ان التزم الطريقة الموضوعية ، الا أنه حافظ أيضا على التسلسل الزمنى فبدأ المسعودى حديثه عن ذكر مبدأ الخلق وتحدث عن آدم وحواء وأولادهما ثم تحدث عن الأنبياء واحدا بعد واحد فبدأ بنوح وولديه حام وسام وأولادهما ثم تحدث عن اسماعيل بن ابراهيم ويعقوب بن اسحاق وأيوب وموسى وشعيب وهارون ويوشع وداود وسليمان ولقمان الحكيم ٠ ثم أشار الى ملوك بنى اسرائيل بعد سليمان وتحدث عن مولد عيسى بن مريم عليه السلام ثم لخص أحداث الفترة بين المسيح ومحمد (ﷺ) فتحدث عن ذى القرنين وقصة أصحاب الكهف وحبيب النجار واهتم المسعودى بالفترة السابقة لظهور الاسلام ، فتحدث عن اليمن وتنكيل ذى نواس بالمسيحيين فى نجران باليمن بعد اعتناق هذا الملك الحميرى لليهودية ، كما تحدث المسعودى عن أبرز الشخصيات العربية فى العصر الجاهلى مثل أسعد أبو كرب الحميرى وقس بن ساعدة الأيادى وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت الثقفى وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب ٠

٤ ـ ثم ترك المسعودى التاريخ جانبا وانتقل الى موضوعات يغلب عليها الطابع الجغرافى وان طعمها بجوانب تاريخية واجتماعية ودينية فبدأ هذه الموضوعات بالحديث عن أخبار الهند وملوكها ، وحكمة الهند وراًيهم فى بدء العالم ، وتحدث عن البراهمة وأشار الى الملك دبشليم وتأليف كتاب كليلة ودمنة وتحدث عن صنع الشطرنج وملك كورشر ، وعادات أهل الهند فى تمليك ملوكهم والاحتفال بموتهم ٠

ثم دخل المسعودى فى صميم الدراسات الجغرافية فوصف الأرض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وترتيب الأفلاك ، وناقش رأى بطليموس فى صفة الأرض والأفلاك ومساحة الأرض ، وتحدث عن كروية البحار والأدلة على ذلك ومنزلة الأرض من الكواكب ، وختم هذا الجزء بوصف هياكل الصابئة وترتيبها على ترتيب الأفلاك السبعة وعدد المراتب الدينية لرجال النصرانية ٠

ثم يخصص المسعودى صفحات كثيرة للحديث عن البحار والأنهار فتحدث عن تحركات البحار وأسباب تكونها وأشاد بنهر النيل ، ثم نقد ما ردده الجاحظ الذى زعم أن نهر السند يستمد من النيل ، وكتب المسعودى عدة صفحات عن أنهار جيحون وجنجس بالهند والفرات ودجلة وأنهار البصرة وتحدث بالتفصيل عن البحر الحبشى وسعته ومعادنه وخاصة اللؤلؤ والياقوت ودرس ظاهرة المد والجزر واختصاص بعض البحار بها دون غيرها ، ثم تحدث عن عدة بحار وخصص صفحات للحديث عن التنين والآراء المختلفة حوله ٠ وأشار الى أن الماء المالح أثقل من الماء العذب ، وعدد العلامات التى تدل على وجود المياه فى جوف الأرض ٠

وانتقل المسعودى الى تفصيل الحديث عن بلاد الصين ، فطرق جوانب مختلفة فتحدث عن ملوكهم وشعوبهم وعقد دراسة مقارنة بينهم وبين القبائل العربية ودرس تاريخ الصين وأخبار ملوكهم ٠

وعاود المسعودى حديثه مرة أخرى عن البحار وما حولها من العجائب والأمم وما فيها من معادن وخاصة بحار الصين والهند وفارس واليمن ٠

٥ ـ ثم طرق المسعودى عدة مواضيع مختلفة ، تجمع بين التاريخ والجغرافيا والرحلات فهو يتحدث عن المسك ، ثم عن ملوك صقلية وأفريقية قبل الاسلام ثم يصف أرض الحبشة والسودان ثم يقف قليلا عند وصف حيوان الكركدن ويناقش ما ذكره الجاحظ عنه ثم تحدث عن

عادات أهل الهند ومملكة طبرستان وجيدان ، وعادة حرق الموتى ويصف شعوب الروس والترك ويتحدث عن بعض الطيور مثل الباز والصقر وبعض الحيوانات مثل القردة ٠ ويشير الى كثير من الممالك القديمة وحروبها وملوكها ، وخاصة ملوك السريان وبابل والفرس ٠

ويعود المسعودى ثانية الى الاحداث التاريخية فيفصل الحديث عن الصابئة وعبادة الكواكب وزرادشت نبى الفرس المجوسى ، ويشيد بانتصار العرب على الفرس فى موقعة ذى قار ٠ ثم يعدد ملوك اليونان ويفصل الحديث عن الاسكندر ويناقش من قالوا انه ذو القرنين ويتحدث عن ملوك اليونان بعد الاسكندر ، ثم ملوك الروم وموقفهم من المسيحية ويروى قصة أصحاب الكهف واعتناق قسطنطين المسيحية ٠

ويخصص المسعودى صفحات كثيرة عن تاريخ مصر قبل الفتح العربى فيبدأ بوصف مصر ونهر النيل ويصف الاحتفال بليلة الغطاس وعادات المصريين فيها ويصف مقاييس النيل ومدينة الفيوم وبحيرة تانيس ودمياط ٠ ويصف الأهرام وطريقة بنائها ويشير الى بعض عجائب مصر ومن نزلها من أبناء نوح ويتحدث عن بعض ملوك مصر ومدنها وبداية انتشار المسيحية فيها ويفسر كلمة فرعون ، ويفصل الحديث عن الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها ومنارتها ٠

(ب) الجزء الثانى :

١ ـ يتحدث المسعودى فى الفصول الأولى من الجزء الثانى عن موضوعات كثيرة متنوعة تتناول الجغرافية والرحلات يبدؤها بالحديث عن السودان وأنسابهم وأجناسهم وملوكهم ثم يتحدث عن حيوان الزرافة، واقليمى ملك الزنج ، وصيد الفيلة ولعب الشطرنج وأفيال بلاد الهند ثم يصف الزبرقان بأنه (حيوان عجيب) ويتحدث عن عادات الزنج فى لباسهم وحليهم ويتحدث عن البجة والحبش وجزيرة سقوطرة ، وينتقل الى مصر فيتحدث عن قوص وقفط والواحات ٠ ثم يطوف المسعودى بالقارىء بين عدة شعوب فيتحدث عن الصقالبة ومساكنها وملوكها وأجناسها ثم يذكر الافرنجة والجلالقة والنوكبرد وملوكها ٠

٢ ـ وينتقل المسعودى الى مواضيع تاريخية تمهد لظهور الاسلام ويطعمها كعادته بألوان جغرافية وصور من رحلاته ومشاهداته ، فيبدأ الحديث عن عاد وثمود والنبى صالح ومكة وبناء الكعبة وقدوم ابراهيم

الخليل الى مكة وزواج اسماعيل من جرهم ، وسبب تسمية اسماعيل بهذا الاسم · ويعدد أبنـاء اسماعيل ويفصـل الحديث عن الكعبة ومن تولى الاشراف عليها من جرهم ومن أبناء اسماعيل ثم يتحدث عن سكان مكة الأقدمين مثل العماليق وطسم وجديس · ثم ينتقل الى الفترة التى تولت فيها خزاعة الاشراف على الكعبة ويتحدث عن ظهور قبيلة قريش وبطونها وما وقع بين الأحـلاف والمطيبين ويتحدث عن الايلاف والتقريش ورحلتى قريش الى الشام واليمن ·

٣ — وينتقـل المسعودى من هذه الدراسة التـاريخية الى دراسة الجغرافية فيصف عدة أقطار هى : الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق · ويتحدث عن سكنى الجبال وتأثير البيئة الطبيعية ثم يعود الى تخصيص الحديث عن بعض الأقطار مثل خراسـان وفارس وخوزستان وأرض الجزيرة والهند والصين وبلاد الروم ، ولا ينسى المسعودى أنه ينتسب الى بلاد العراق فيتحدث عن موطنه اقليم بابل ويتحدث عن الحنين الى الوطن ·

٤ — ورأى المسعودى أن يفرد قسما كبيرا من الجزء الثانى للحديث عن بلاد اليمن قبل الاسـلام ، فيذكر سبب تسمية اليمن بهذا الاسـم مع مقارنة بدوافع تسمية العراق والشام بأسمائها ؛ ويفصل الحديث عن العرب اليمنيين وانتسابهم الى قحطان وملوكهم الأقدمين من سبأ وحمير · وتحدث عن التبابعة ، وما حدث بين بلقيس وسليمان بن داود · ويروى قصـة الملك ذى نواس الذى اعتنق اليهودية وقتل المسيحيين فى أخاديد · وأشار الى سقوط الدولة الحميرية على يد الجيش الحبشى ، واستعانة العرب الحميريين بالفرس للخلاص من الاستعمار الحبشى ·

٥ — وأراد المسعودى أن يغطى أخبار العرب قبل الاسلام فانتقل من الحديث عن اليمن الى الحديث عن امارتى الحيرة والغساسنة وعلاقتهما بالدولتين الفارسية والرومانية ·

٦ — ثم عاد الى الجزيرة العربية ليتحدث عن أحوالها قبل الاسلام فبدأ حديثه ببلاد الحجاز فتحدث عن البدو وسبب سكناهم الخيام وأشار الى أيام العرب وهى حروبهم القبلية الجاهلية وعدد أديان العرب وأرخ للهجوم الحبشى على مكة بقيادة أبرهة · وتنقل المسعودى بين القبائـل العربية فتحدث عن عاد وثمود وجديس وطسم وجرهم · كما تحدث عن

المدينتين الحجازيتين : الطائف ويثرب • وفصل الحديث عن عقائد العرب فى الغيلان والهاتف والجن والقيافة والزجر والسانح والبارح والكهانة والعرافة وادعاء الغيب ، ودرس هذه الجوانب دراسة علمية واهتم بالدوافع النفسية وعقد مقارنة بين عقائد العرب وغيرهم من الشعوب •

٧ ـ ثم خصص المسعودى صفحات عديدة للحديث عن التاريخ وتقسيمه الى سنوات وشهور عند كل من العرب والفرس والأقباط والسريان مع عقد دراسة مقارنة • وتحدث عن الأعياد الفارسية والمسيحية وأسباب تسمية الشهور الفارسية والعربية والرومانية •

٨ ـ وانتقل المسعودى بعد ذلك الى موضوعات جغرافية فتحدث عن أقسام الأرض وعن الكواكب والجن • وأثر البيئة الجغرافية فى طبائع الناس وتأثير الكواكب فى حياة البشر وتوجههم بالعبادة لها ويشعة المؤرخ أنه استطرد كثيرا ؛ ولذا فهو يعتذر للقارىء فيقول انه أدرك اختلاف القراء فى الطبائع وفى دوافعهم لقراءة كتابه ، فرأى أن يجمع الوانا مختلفة من الموضوعات •

٩ ـ ويفصل المسعودى بعد ذلك الحديث عن الاديان فيتحدث عن ظهور الوثنية والهياكل وبيوت النار والأصنام • وعقائد الهند والصين وعبادة الكواكب وعقيدة العالم فى البيت الحرام ، ودين الصابئة وعبادة النار • ثم يتحدث عن معابد وهياكل اليونان والرومان والصقالبة والصينيين والفرس •

١٠ ـ ويمهد المسعودى للتاريخ العربى الاسلامى فليخص أحداث التاريخ منذ بدء العالم الى ظهور الرسول (ﷺ) ، ثم يبدأ السيرة النبوية فيتحدث عن مولد الرسول (ﷺ) ونسبه وكنيته ويفصل الحديث عن طفولته وصباه • ثم البعثة النبوية والمسلمين الأوائل وحديث الهجرة والجهاد والغزوات ، ثم وفاة الرسول (ﷺ) • والمسعودى فى هذا الفصل يتبع المنهج الموضوعى ، الا أننا نراه بعد فراغه من دراسة السيرة النبوية يلجأ الى التاريخ بالسنين ، فقد رأى أن هناك أخبارا كثيرة عن الرسول (ﷺ) لم يدرجها فى نطاق الموضوعات التى أشار اليها ؛ ولذا رأى أن يتحدث عنها متخذا السنوات محورا لدراسته ونهج فى ذلك نهجا جديدا ، فهو يقسم الأحداث على سنوات حياة الرسول (ﷺ) قبل الهجرة ، فيذكر ما حدث فى السنة الأولى من مولده ثم ما حدث فى السنة الخامسة ثم السادسة ثم التاسعة حتى يصل الى السنة التى هاجر الرسول (ﷺ) فيها فيتخذ السنة الهجرية محورا لأخباره •

١١ ــ ويبدأ المسعودى دراسته لتاريخ الدولة العربية الاسلامية ويتخذ من شخصيات الخلفاء محاور دراسته ، فيهتم بترجمة حياة الخليفة وأعماله وأحوال الدولة فى عهده · وينتهى الجزء الثانى من مروج الذهب بنهاية عصر الخلفاء الراشدين الأربعة ·

(ج) الجزءان الثالث والرابع :

١ ــ يختلف الجزءان الثالث والرابع عن الجزءين الأولين ، فهما يكادان يخلوان من الدراسات الجغرافية والحديث عن الرحلات ويجعل المسعودى الشخصيات التاريخية محورا لدراسته · ويبدأ الجزء الثالث بخلافة الحسن بن على بن أبى طالب ثم يتحدث عن قيام الدولة الأموية · ويمضى الكتاب مع أحداث العصر الأموى حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، ويفصل المسعودى الحديث عن الخلفاء العباسيين وينتهى الجزء الثالث بنهاية عهد الخليفة العباسى السادس الأمين ·

٢ ــ يبدأ الجزء الرابع بعهد الخليفة العباسى السابع المأمون ، ويتحدث المسعودى عن الخلفاء العباسيين حتى عهد الخليفة المطيع لله ·

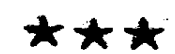
٣ ــ وينهج المسعودى منهج المؤرخين المحدثين فيضع لكتابه خاتمة طويلة · ويبدأ خاتمته بأن يربط بين ما ذكره فى كتابه مروج الذهب وكتابيه الآخرين « أخبار الزمان » و « الأوسط » · ويذكر أنه انتهى من كتاب مروج الذهب فى جمادى الأولى سنة (٣٣٦ هـ) وتحدث عمن يتولون الحكم والسلطة فى هذه السنة ، وهم من الأسرة البويهية ، ويلمح باستئثار البويهيين بالنفوذ دون الخليفة العباسى المطيع ·

٤ ــ ويحاول المسعودى أن يوضح للقارىء أنه لم يكرر فى كتابه مروج الذهب ما ذكره فى كتابيه الآخرين وتحدث عن أبرز ما تناوله من موضوعات فى مروج الذهب فقال : « ودللنا على كتابنا هذا بقليل على الكثير ، بالخبر اليسير على الجليل الخطير ، وذكرنا فى كل كتاب من هذه الكتب ما لم يذكره فى الآخر الا ما لا يسع تركه ولم نجد بدا من ايراده لما دعت الضرورة الى وصفه وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن الى وقتنا هذا · مع ما أسلفناه فى هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر والعامر منهما والغامر والملوك وسيرها والأمم وأخبارها » ·

٥ ــ وأبدى المسعودى أمله فى أن تطول حياته فيؤلف كتابا آخر يضمنه « فنــونا من الأخبــــار وأنواعا من طرائف الآثار ، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار » ٠ واختار المسعودى اسما هو « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » ولم تتحقق أمنية المســـعودى اذ وافته منيتــه ٠

٦ ــ عقد المسعودى فى نهاية الكتاب فصلا تحدث فيه عن مدة حكم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، ثم عقد فصلا آخر عن أمراء الحج منذ عهد الرسول الى السنة التى أتم فيها كتابه ٠

٧ ــ وكانت آخر فقرات الكتاب اعتذارا من المؤلف عما يكون فى الكتاب من سهو أو تصحيف أو نقص أو تغيير قد يقع فيه الناسخ لكتابه فيقول : « وقد قدمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سهو ان عرض أو تصحيف أو تغيير من الكاتب ان وقع ، ولمـــا قد دفعنا اليه من الأسفار المتواترة والحركة المتصلة : تارة مشرقين وتارة مغربين وطورا متيامنين وطورا متشائمين ، وما يلحقنا من سهو الانســـانية ويصحبنا من عجز البشرية عن بلوغ الغاية ، وتقصى النهاية ولو كان لا يؤلف كتابا الا من حوى جميع العلوم اذن ما ألف أحد كتابا ، ولا تأتى له تصنيف ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ ٠ وينهى المسعودى كتاب « مروج الذهب » بحمد الله تعالى والصلاة على النبى وآله ٠



مقامات بديع الزمان

بديع الزمان الهمذاني

القرن العاشر / الحادي عشر الميلادي

نشــاة المقــامة

اختلفت الآراء في تفسير لفظة « مقامة » ويبدو أنها اكتسبت مدلولات تطورت مع الزمن :

فقد جاء في لسان العرب : المقام: موضع القدمين · والمقام والمقامة : بالضم : الاقامة والمقامة بالفتح : المجلس والجماعة من الناس ·

وأطلق اللفظ أيضا على المجلس الذى تسمع فيه الموعظة : « يلقيها الرجل بين يدي الخليفة أو الأمير أو جماعة من المتأدبين ، ولا بد كي يكون لها التأثير والاقناع على السامعين من أن تعتمـد مذهبـا بليغـا من الكلام يقرع الأسماع ويدخل الى النفس ويستهوى القلوب ، ثم انتهت الكلمة الى معنى « موعظة » أهل الكدية حتى اتخذها الهمذانى لتسمية القصص المعروفة بالمقامات » ·

ثم يقول الدكتور فيكتور الكك في كتابه « بديعـــات الزمان الهمذانى » :

« والجدير بالذكر أن معنى المقامة انحرف في القرن الثالث الهجرى فتدنى الى الدلالة على كلام الشـــحاذين ، الذين اضطروا في توسلهم الى المحسنين بدعاءات توجيهية الى أن يستعملوا لغة مختارة منمقة · ذلك أن الثقافة الأدبية التى كانت فيما سلف من مميزات البلاطات وروادها أخذت في الانتشار بين طبقات الشعب » ·

أما الدكتور زكي مبارك فقد عقد فصلا عن المقامة جاء فيه : « وأظهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع هو فن المقامات وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو فطرة وجدانية، أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون » ·

ولشوقى ضيف رأى في هذا الموضوع جاء فيه :

« ليست المقامة قصة وانما هى حديث أدبى بليغ · وهى أدنى الى الحياة منها الى القصة · فليس فيها من القصة الا الظاهر فقط أما في حقيقتها فحيلة يعرفنا بها البديع وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة · بل ان الحادثة التى تحدث

للبطل لا أهمية لها اذ ليست هى الغاية • انما الغاية التعليم والأسلوب الذى تعرض به الحادثة • ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة •

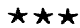
فالمعنى ليس شيئا مذكورا ، وانما هو خليط ضئيل تغشى عليه الغاية التعليمية • فالأساس العرض الخارجى ، وكان لذلك وجه من النفع ، فان الأدباء انساقوا الى الثروة اللفظية وأخذوا يبتكرون صورا جديدة للتعبير ، ولكن فى حدود سطحية وكأنما ألجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم فلم يتجهوا بالمقامة الى وصف حوادث النفس وحركاتها ، ولا الى الافساح للعقل كى يعبر عن العواطف ويحللها ، وانما اتجهوا بها الى ناحية لفظية صرفة اذ كان اللفظ فتنة القوم ، وكان السجع كل ما لفتهم من جمال فى اللغة وأساليبها • وكانت الوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها » •

والمقامات أقاصيص خيالية مختلفة الأغراض والموضوعات • فمنها الأدبية ، ومنها العلمية ومنها الدينية ومنها الاجتماعية أو الخلقية ومنها المجونية • وفيها سخر شديد ، ونقد لاذع ، وفيها ضروب من التخابث والاحتيال ، للتكسب والتعيش • وفيها صور متلونة لطبائع المجتمع وعاداته •

ومدار المقامات على بطل متبدل الألوان ، كثير الاحتيال ، فيه شر كبير وفيه خير كبير • فهو دين منافق ، صادق كاذب ، متزهد ماجن ، واعظ مخادع • كل شيء وضده ، وهو الى ذلك واسع العلم والأدب شاعر خطيب متكلم راوية تجده فى كل مقامة ، وقلما خلت مقامة منه ويتولى الحديث عنه راوية خيالى مثله يفاجئه فى كل مقامة ويفضح أسراره وينقل أخباره •

والفن القصصى ضعيف فى المقامات لقصرها ، ثم لأن القصة ليست غاية فيها بل واسطة لاظهار شخصية بطلها فى مختلف أحواله ، ولقد تمر مقامات غثة باردة لا قيمة فيها للقصة البتة •

وتمتاز المقامات فى جمال لغتها وكثرة غريبها واعتمادها على المجاز أكثر من الحقيقة واصطباغها بالصبغة أكثر من الطبع، فهى ملتزمة السجعات أنيقة العبارات حافلة بالمحسنات المعنوية واللفظية • فيها الأمثال والأشعار والآيات والأحاديث فكل مقامة قطعة أدبية لغتها لغة الشعر على الأكثر لا لغة النثر •



حياة بديع الزمان :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى المشهور ببديع الزمان · ولد فى همذان (١) فى يوم ١٣ من جمادى الآخرة سنة ٣٥٨ هـ — يونية ٩٦٩ م ·

ويبدو أن أول من أطلق عليه لقب الهمذانى الامام أبو منصور الثعالبى : « وهو أحمد بن الحسين بديع الزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى القريحة ، وسرعة الخاطر » ·

ومن رسائله نفهم أنه من أسرة عربية استوطنت ديار العجم · وهو شديد التعصب للعرب على غيرهم اذ يقول فى احدى رسائله : « انى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد » ·

ومن يتصل بنسبه الى قبيلة مضر ، وبنشأته الى فارس لا شك سيكون نابغة عصره وزمانه · فبديع الزمان ورث الخلق العربى وعاش به فى بلاد العجم فظهرت عبقريته الخارقة وذكاؤه الوقاد ، بالاضافة الى تمازج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب بين عائلات الفرس فى تلك المنطقة العجمية ، كما أن أخاه الحسين بن يحيى كان مفتى البلدة ·

نشأته :

اهتم أبوه بتعليمه وتثقيفه فاختلف الى دروس العلماء والأدباء فى بلدته ، وتلقى على أيديهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية ·

كان معلمه الأول أبا الحسن أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوى العظيم فى عصره ، وقد تتلمذ بديع الزمان عليه ونهل من فيض علمه · كما تتلمذ على ابن بكر الفراء · وتعلم دراسة الحديث والرواية ·

وبقى يختلف الى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره ، حتى أتم دروسه وتحصيله من اللغة والشعر والنثر ·

والأمر الذى لا شك فيه أن بديع الزمان لم تكن ثقافته عربية فقط بل كانت عربية وفارسية · وهذا التضلع فى الفارسية وآدابها أسدى اليه أكبر فائدة فى انتاجه العربى ·

وما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى فارق مسقط رأسه همذان سنة ٣٨٠ هـ ــ ٩٩٠ م • فقدم على الصاحب بن عباد فى الرى •

فأعجب الصاحب بذكائه وقدمه فى مجلسه وقربه منه ورأى فيه ذكاء شديدا وذاكرة قوية • ولعل هذا الذى حمل معاصريه أمثال الثعالبى على القول فيه : « هو من لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر ، وملحه غرر النظم ونكته ، ولم ير ولم يرو أن أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء مثل اعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب » •

لكن أواصر المودة اضطربت بين بديع الزمان والصاحب بن عباد وقد يكون مرد ذلك الى الحسد • ولعل الصاحب تخوف من البديع • وهو المحدث اللبق فخاف على منزلته الأدبية من أن يصبح الهمذانى محور الحلقات والمجالس •

فما كان من بديع الزمان الا أن اتجه الى جرجان وهى بلدة مشهورة بالعلم والمعرفة ، ففيها نشأ عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة •

وهناك خالط علماءها وهم من الاسماعيلية واستفاد من علمهم واقتبس من فلسفتهم •

ولكن اقامة بديع الزمان فى جرجان لم تكن طويلة لخلاف نشأ بينه وبين أحد الاسماعيليين ، فاتجه الى نيسابور وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ وهى تعد من أحسن مدن خراسان ، وكانت مجمع العلماء والفضلاء حيث يأتون اليها من كل صوب •

وكان لبديع الزمان معركة أدبية مع شيخ كتاب عصره أبى بكر الخوارزمى الأديب الذائع الصيت الذى طرقت آدابه أسماع الناس برسائله وشعره ، وكان بديع الزمان شديد الرغبة فى الاتصال به راغبا فى علمه • فكتب له رسائل فى هذا الموضوع • وقد دخل البديع الى نيسابور رث الثياب خالى اليدين بعد أن سطا عليه اللصوص فى الطريق وسلبوه ما يملك •

وعندما التقى البديع بالخوارزمي لم يهتم به هذا ولم يحسن لقاءه كمـا أنه لم يعجب بكبريائه • فحصلت بينهما جفـوة ومقاطعة وبغضـاء واستغل بعض الناس هذه العداوة ، فهيأوا لذلك مناظرة استعمل فيها بديع الزمان قريحته وسرعة بديهته فبدا الخوارزمي منهزما أمام الناس !

لمع اسم بديع فى نيسابور بعد المنـاظرة وذاع صـيته فى الآفاق وأصبح له تلامذة كثيرون فأملى عليهم مقاماته المشهورة ، حيث اصطنع فيها الأساليب المنمقة من سجع وتنميق • ولكنه لم يلبث أن ترك نيسابور رغم إشتهاره بها وعلو مكانته • فاتجه الى سجستان وكان حاكمها فى ذلك الوقت الأمير خلف بن أحمد فلقى منه البديع كل تكريم فمدحه بقصائد وبسط مقامات أشاد فيها بكرمه • ثم عاد يطوف فى البلاد حتى استقر فى هراة « وهناك تزوج فيها من ابنة ابن على الحسين بن محمد الخشنامى ، أحد أغنيائها وساداتها وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا » •

شخصيته : صفاته وأخلاقـه :

وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر ، فقال : « مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة » •

وكثرة أسفاره تدل على طموحه لتوطيد المجد وبناء الشهرة • وقد اجتمعت فيه الصفتان : طالب علم وطالب مال •

ولم يكن الدهاء ينقص الهمذانى ، فهو واسع الحيلة وكان فى كل مقال يمزح ويتهكم ، فهو أنانى والويل لمن يفضل الخوارزمى عليه •

كان سريع الحافظة : « انه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرهـا لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى • وينظر فى الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سردا • وهذه حالة فى الكتب الواردة عليـه وغيرها • وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفزع منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها » •

وفاتـــه :

وتوفى بديع الزمان فى هراة يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة (٣٩٨ هـ) • ويذكر ابن خلكان رأيين فى وفاته : « الرأى الأول أنه مات مسموما بهراة • أما الرأى الثانى ويشاركه فيه كثيرون من مؤرخى الأدب فهو أنه أصيب بغيبوبة فظن أنه مات وعجل بدفنه فأفاق فى قبره وسمع صوته فى الليل فنبش عنه فوجد ميتا وقد قبض على لحيته بيده ومات من هول القبر !! » •

مؤلفاتـــه :

مؤلفات البديع ثلاثة أنواع :

١ ـ أولها ديوان شعر ومعظمه يدور على المحسنات اللفظية والمعنوية •

٢ ـ ثانيها مجموعة رسائل نظر فيها وفسر غوامضها الشيخ ابراهيم الأحدب • وهى تدور حول أغراض هى :

(أ) المـــدح لأن بديع الزمان كان يتكسب بأدبه فيتذرع بالمـــدح والثناء حين يستجدى •

(ب) الاعتذار والاستعطاف •

(جـ) العتـــاب •

(د) الشـــكوى •

(هـ) الهجاء •

(و) الود والصداقة •

(ح) النصـــح والحكم •

(ط) الوصف •

٣ ـ ثالثها : المقامات المشهورة وهى اثنتان وخمسون مقامة •

★★★

تحليل مقامات البديع :

لهذه المقامات راوية خيالى يعرف بعيسى بن هشام ، رجل أخو سفر ، لا يستقر به مكان ، وربما اتخذ صفة التجار أو صفة المكدين ، ولها بطل يعرف بأبى الفتح الاسكندرى يظهر فى أكثرها وينقل أخباره عيسى بن

هشام · وأبو الفتح هذا رجل خيالى أيضا : « من الثغور الأموية والبلاد الاسكندرية » (٢) · صاحب خبث وحيل يصطنع جميع المهن التى يحترفها الناس من أجل الكدية وابتزاز المال · وقلما خلت مقامة من الكدية والاحتيال ، وتراه مرة شيخا جليلا وقف فى الناس واعظا ينصح ويحذر ، ومرة قرادا يسلى الناس ويضحكهم ، وأخرى مشعوذا يدعى صنع المعجزات خديعة للقوم الساذجين · فيدر عليه الرزق وينتفع بشعوذته وخداعه فهو أشحذ الناس وأبرعهم تسآلا · وهو الى ذلك أخطبهم وأشعرهم ، وأعرفهم بعلوم عصره · وقد اختلفت أغراض مقاماته وتنوعت أبوابها فمنها الأدبية كالمقامة الجاحظية والمقامة القريضية ، وفيها رواية وشعر ونقد · ومنها الدينية والخلقية والاجتماعية ، فمن شيخ يتظاهر بالتقوى والتنسك ليعطف عليه الناس ويعطوه · ومتسول يطوف ومعه طفل فصيح يسترق القلوب · وتاجر حديث النعمة معجب بنفسه كثير الكلام يضجر مستمعيه · ومجنون عاقل متبحر فى علم الكلام ، يرد على أحد شيوخ الاعتزال · وغير ذلك مما يقع بين الناس فى مصاحبتهم ومخالفاتهم ·

وحوادث هذه المقامات تقع على الغالب فى الأمصار المتحضرة ، وقلما عنى البديع بالكلام على أهل البادية كما فى مقاماته الغيلانية ، والأسدية ، والبشرية ، والفزارية ، والأسودية ، وهى فى أكثرها قصيرة ضعيفة الفن القصصى تكاد تكون غثة باردة لولا حسن الصياغة وبراعة التصرف فى ضروب الكلام · وأما ما طال منها فانه جميل مونق كالمقامة المضيرية والبشرية والأسدية وسواها ·

وراوية بديع الزمان وبطله لا ينحصران فى زمان محدود ، فان عيسى بن هشام يحدثك فى المقامة الغيلانية عن الفرزدق وذى الرمة كأنه معاصر لهما ، ثم يحدثك فى المقامة الحمدانية عن سيف الدولة بن حمدان · ويحدثك عن خلف بن أحمد وكان واليا على سجستان معاصرا للهمذانى · وقد خصه البديع ببعض مقاماته وأشاد فيها بذكره وأطراه ·

وسنقتصر بتحليل مقامتين من مقاماته احداهما المضيرية ، وفيها تظهر براعة البديع فى الوصف ودقة التصوير على شىء كثير من السخر وخفة الروح · والأخرى البشرية وهى التى وفق بها صاحبنا لاختراع شاعر جاهلى تبناه التاريخ من بعده ألا وهو بشر بن عوانة العبدى ·

نص المقامة المضيرية (٣)

حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى ، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مضيرة تثنى على الحضارة ، وتترجرج فى الغضارة وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، فى قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها ، وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناه يمزح فاذا الأمر بالضد ، واذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الاخوان ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الأفواه (٤) وتلمظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى فى اثرها الفؤاد ، ولكنا ساعدناه على هجرها وسألناه عن أمرها ، فقال : قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، لو حدثتكم بها لم آمن المقت واضاعة الوقت ، قلنا : هات ٠

قال : دعانى بعض التجار الى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى أن أجبته اليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول : يا مولاى ، لو رأيتها ، والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدر الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الابزار ٠ لو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون ٠ وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته٠ وهى ابنة عمى لحا ٠ طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى ٠ لكنها أوسع منى خلقا ، وأحسن خلقا ، وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته ٠ ثم قال : يا مولاى ، ترى هذه المحلة ٠ هى أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها ، ويتغاير الكبار فى حلولها ٠ ثم لا يسكنها غير التجار ٠ وانما المرء بالجار٠ ودارى فى السطة (٥) من قلادتها ، والنقطة من دائرتها ٠ كم تقدر يا مولاى أنفق على كل دار منها ؟ قله تخمينا ، ان لم تعرفه يقينا ٠ قلت : الكثير ٠ فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ، وتنفس الصعداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء ٠

وانتهينا الى باب داره • فقال : هذه دارى كم تقدر يا مولاى ، أنفقت على هذه الطاقة ؟ • أنفقت والله عليها فوق الطاقة ووراء الفاقة • كيف ترى صـــنعتها وشـــكلها ؟ أرأيت بالله مثلهـــا ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار • وانظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب • اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم • هو ساج من قطعـــة واحدة لا مأروض (٦) ولا عفن • اذا حرك أن ، واذا نقر طن • من اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب • بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل • لله در ذلك الرجل ! بحياتى لا استعنت الا به على مثله •

وهذه الحلقـــة تراهـــا ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية ، وكم فيها يا سيدى من الشبة ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب بالله دورها ، ثم انقرها وابصرها ، وبحياتى عليك لا اشتريت الحلق الا منه فليس يبيع الا الأعلاق •

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله يادار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟ كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن ، مات رحمه الله وخلف خلفـــا أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزقه بين النرد والقمر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، الى بيع الدار فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراهـــا ، فأنقطـــع عليها حسرات الى يوم الممات ، فعمدت الى أثـــواب لا تنض (٧) تجارتهـــا ، فحملتها اليه وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشـــتريها نسية (٨) والمدبر يحسب النسية عطيـــة ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال ففعـــل وعقدهـــا لى ، ثم تغافلت عن اقتضـــائه حتى كادت حاشية حاله ترق فأتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ووثيقة فى يدى ففعل • ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاى ، انى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه اذ قرع علينـــا البـــاب • فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل • فى جلدة ماء ورقة آل • تعرضه للبيع ، فأخذته منها أخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ،

وسيكون له نفع ظاهر وربح وافر ، بعون الله ودولتك ٠ وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك٠ اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات ٠ وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ٠ والدهر جلى ليس يدرى ما تلد ٠ ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق ٠ وهذا يعرض فى الأسواق ٠ فوزنت فيه كذا وكذا دينارا ٠ تأمل بالله دقته ولينه، وصنعته ولونه فهو عظيم القدر لا يقع مثله الا فى الندر ٠ وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله ٠ وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا توجد أعلاق الحصر الا عنده ٠ فبحياتى لا اشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، ولا سيما من تحرم بخوانه ٠

ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطست والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج ٠ وتقدم الغلام فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رومى الأصل عراقى النشء ٠ تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدبر ٠ ففعل الغلام ذلك وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخاس ٠ ضع الطست ، وهات الابريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر الى هذا الشبه (٩) ، كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شبة الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان (١٠) الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها ٠ تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته! اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة ٠ يا غلام ، الابريق ، فقدمه ، وأخذه التاجر فقلبه ثم قال : وأنبوبه منه ٠ لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست ، الا فى هذا البيت ٠ ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف ٠

أرسل الماء ياغلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استقى من الفرات واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الاناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه ٠ وهذا المنديل ! سلنى عن قصته ٠ فهو نسج جرجان وعمل ارجان ، وقع الى فاشتريته ، فاتخذت امرأتى بعضه منديلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه ٠

ثم رددته فى السوق ، وخزنته فى الصندوق ، وادخرته للظروف ، من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لما فيها ، فلكل علق يوم ولكل آلة قوم ·

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع (١١) · والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمر الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل فمتى الأكل !؟ فقال : الآن عجل يا غلام ، الطعام · لكن الخوان قوائمه منه ·

قال أبو الفتح : فجاشت نفسى وقلت : لقد بقى الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفى أى رحى طحن ، واجانة (١٢) عجن ، وأى تنور سجر ، وخباز اسأجر ، وبقى الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صفف حتى جفف وحبس ، حتى يبس · وبقى الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السكرجات(١٣) من اتخذها ، وكيف انتقذها ، ومن عملها ، والخل كيف انتقى عنبه ، واشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبه · وكيف قير حبه (١٤) ، وكم يساوى دنه ، وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفى أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووفى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم ·

فقمت فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجة أقضيها ، فقال : يا مولاى تريد كنيفا يزرى بربيعى الأمير ، وخريفى الوزير ، قد جصص علاه وصهرج أسفله ، وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه (١٥) من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه · فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب ·

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة · وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل

الحجر بعمامته فغاص فى هامته · فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصنع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت · فهل أنا فى ذا يا آل همذان ظالم ؟

قال عيسي بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديما جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار ·

تحليل المقامة المضيرية :

يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها باسناد الحديث الى راويته : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى أبو الفتوح الاسكندرى رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مضيرة » · وبعد أن وصف المضيرة وقصعتها وشغف المدعوين بها قال : « قام أبو الفتوح الاسكندرى يلعنها وصاحبها ويمقتها وآكلها ··· ورفعناها فارتفعت معها القلوب وسافرت خلفها العيون وتحلبت لها الأفواه وتلمظت لها الشفاه » · وسئل أبو الفتح عن أمرها ، فأخبر أنه دعاه بعض التجار فى بغداد الى المضيرة فصار معه الى بيته وطفق التاجر وهو فى الطريق يصف زوجته حتى ينتهى هذا المشهد بقول أبو الفتح : « وصدعنى بصفات زوجته حتى انتهينا الى مخلته » فشرع التاجر يصف المحلة وعظمة دورها وجعل داره كالجوهرة الوسطى من العقد · وانتهيا الى باب الدار · فوقف يصف طاقتها فبابها فحلقة الباب · ودخلا الدهليز فجأر التاجر بالدعاء : « عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار » · وشرع يقص على أبى الفتح كيتف امتلك الدار وممن اشتراها ، ثم استطرد الى ذكر حظه الحسن فذكر خبر عقد من اللؤلؤ اشتراه بثمن بخس، حتى اذا انتهى عاد الى داره فروى حادثه حصير اشتراه بالمناداة ونعت صانعه ونصح لأبى الفتح أن يشترى الحصر من عنده · ثم عاد الى حديث المضيرة فطلب من الغلام الطست والماء · فقال أبو الفتح : « الله أكبر ربما قرب الفرج وسهل المخرج » وما أن أقبل الغلام حتى شرع التاجر يعرض أوصاف الابريق فالماء فالمنديل ودعا بالخوان ؛ فجاء به الغلام فراح يقلبه وينقره بالبنان ويعجبه بالأسنان ويقص قصته وينعته أحسن النعوت فجاشت نفس أبى الفتح وقد تحقق له أن التاجر سيصف كل شىء يعرض على الخوان ويذكر كيف اشتراه ومن أين اشتراه ومن صنعه فحاول الانصراف تخلصا ، فظنه التاجر يريد الخروج فى حاجة نفسه فانبرى يصف له الكنيف وحسنه

الى أن قال : « يتمنى الضيف أن ياكل فيه ! » · قال أبو الفتح : « فقلت . كل أنت من هذا الجراب لم يكن الكنيف فى الحساب وخرجت نحو الباب وأسرعت فى الذهاب وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه ؛ فرميت أحدهم بحجر من فرط الضجر فلقى رجل الحجر بعمامته فغاص فى هامته فأخذت من النعال بما قدم وحدث ومن الصفع بما طاب وخبث وحشرت الى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت » ·

فهذه المقامة من أبدع ما صنع الهمذانى ففيها جمال القصص وروعة الفن ودقة الوصف وحسن الانتقال ، واتساق الأفكار وفيها السخر والفكاهة والنكتة ، ولو وفق البديع فى جميع مقاماته توفيقه فيها لبلغ فى هذه الصنعة غاية الغايات ·

★★★

نص المقامة البشرية

حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال :
ما رأيت كاليوم · فقالت :

أعجب بشرا حور فى عينى	وساعد أبيض كاللجين
ودونه مسرح طرف العين	خمصانة (١٦) ترفل فى حجلين
أحسن من يمشى على رجلين	لو ضم بشر بينها وبينى
أدام هجرى وأطال بينى	ولو يقيس زينها بزينى

لأسفر الصبح لذى عينين

قال بشر : ويحك · من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ · قالت : وأزيد أو أكثر فأنشأ يقول :

ويحك ياذات الثنايا البيض	ما خلتنى منك بمستعيض
فالآن اذ لوحت بالتعريض	خلوت جوا فاصفرى وبيضى
لا ضم جفناى على تغميض	ما لم أشل(١٧)عرضى من الحضيض
كم خاطب فى أمرها ألحا	وهى اليك ابنة عم لحا

ثم أرسل الى عمه يخطب ابنته ومنعه العم أمنيته فآلى ألا يرعى (١٨) على أحد منهم ان لم يزوجه ابنته ، ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معرته اليهم فاجتمع رجال الحى الى عمه وقالوا : لا تلبسونى عارا وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الحيل فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمه : انى آليت أن لا أزوج ابنتى هده الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها الا من نوق خزاعة ، وغرض العم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسه الأسد ، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسد يسمى داذا وحية تدعى شجاعا يقول فيهم قائلهم :

أفتك من داذ ومن شجاع   ان يك داذ سيد السباع
فانها سيدة الأفاعى

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق فما نصفه حتى لقى الأسد وقمص مهره فنزل وعقره ، ثم اخترط سيفه الى الأسد واعترضه ، وقطه (١٩) ثم كتب بدم الأسد على قميصه الى ابنة عمه :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت   وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
اذا لرأيت ليثا زار ليثا   هزبرا أغلبا لاقى هزبرا
تبهنس (٢٠) ثم أحجم عنه مهرى   محاذرة فقلت : عقرت مهرا
أنل قدمى ظهر الأرض أنى   رأيت الأرض أثبت منك ظهرا
وقلت وقد أبدى نصالا   محددة ووجها مكفهرا
يكفكف غيلة احدى يديه   ويبسط للوثوب على أخرى
يدل بمخلب وبحد ناب   وباللحظات تحسبهن جمرا
وفى يمناى ماضى الحد أبقى   بمضربه قراع الموت أثرا (٢١) :
ألم يبلغك ما فعلت ظباه   بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبى مثل قلبك ليس يخشى   مصاولة فكيف يخاف ذعرا
وأنت تروم للأشبال قوتا   وأطلب لابنة الأعمام مهرا
ففيم تسوم مثلى ان يولى   ويجعل فى يديك النفس قسرا
نصحتك فالتمس ياليث غيرى   طعاما ان لحمى كان مرا
فلما ظن أن الغش نصحى   وخالفنى كأنى قلت هجرا
مشى ومشيت من أسدين راما   مراما كان اذ طلباه وعرا
هززت له الحسام فخلت أنى   شققت به لدى الظلماء فجرا

وجدت له بجائشة أرته ... بأن كذبته ما منته غدرا
وأطلقت المهند من يمينى ... فقد له من الأضلاع عشرا
فخر مجدلا بدم كأنى ... هدمت به بناء مشمخرا
وقلت له يعز على أنى ... قتلت مناسبى جلدا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه ... سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا ... لعمر أبيك قد حاولت نكرا
فلا تجزع فقد لاقيت حرا ... يحاذر أن يعاب فمت حرا
فان تك قد قتلت فليس عارا ... فقد لاقيت ذا طرفين حرا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على ما منعه تزويجها وخشى أن تغتاله الحية فقام فى أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية • فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى الحية وحكم سيفه فيها فقال :

بشر الى المجد بعيد همه ... لما رآه بالعراء عمه
قد ثكلته نفسه وأمه ... جاشت به جائشة تهمه
قام الى ابن للفلا يؤمه ... فغاب فيه يده وكمه
ونفسه نفسى وسمى سمه

فلما قتل الحية قال عمه : انى عرضتك طمعا فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأزوجك ابنتى • فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخرا حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا فى سلاحه فقال بشر : يا عم انى أسمع حس صيد ، وخرج فاذا بغلام على قيد ، فقال : ثكلتك أمك يا بشر ، ان قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا ! أنت فى أمان ان سلمت عمك فقال بشر : من أنت لا أم لك ؟ قال : اليوم الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك من سلحتك (٢٢) فقال : يا بشر ومن سلحتك •

وكر كل واحد منهما على صاحبه فلم يتمكن بشر منه وأمكن الغلام عشرون طعنة فى كلية بشر كلما مسه شبا السنان (٢٣) حماه عن بدنه ابقاء عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى أليس لو أردت لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى رمحه واستل سيفه فضرب بشرا عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان ، قال : نعم ولكن بشريطة أن تقول لى من أنت فقال : أنا ابنك •

فقال : يا سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنى لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصيه (٢٤) هل تلد الحية الا الحيه

وحلف لأركب حصانا ولاتزوج حصانا (٢٥) ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

★★★

تحليل المقامة البشرية :

تمتاز هذه المقامة عن سائر أخواتها من مقامات بديع الزمان فى أنها اصطنعت شاعرا لم تعرفه القرون الخالية ، وزفته الى تاريخ الأدب فاحتفل به المؤرخون وأعظموا شأنه ولم يجدوا مشقة فى تحديد عصره فجعلوا وفاته في أواخر القرن السادس للمسيح . وهذا الشاعر هو بشر بن عوانة العبدى .

لم يتعمد البديع الصنعة فى هذه المقامة ولا التزم السجع والتزيين، بل تركها تجرى مع الطبع فبعد بها شيئا عن انشاء المقامات . فكأنه وهو يتحدث عن شاعر فى الجاهلية ، أبى الا أن يجعل كلامه ملائما لعصر شاعره . وهذا من بعض حسناته الا أنه لم يتأت له أن يبعد بقصته عن الاغراب فهى على لطفها وفكاهتها وحسن سياقها ، فيها أشياء كثيرة لا يطمئن اليها العقل ولا يسلم بها المنطق . ولو لم تتخذ هذه المقامة تأريخا لحياة شاعر حقيقى ، لما عنينا بنقد ما فيها من الاغراب لأنه مستملح فى قصص خيالية كالمقامات .

لا يظهر فى هذه المقامة أبو الفتح الاسكندرى،الا أن عيسى بن هشام يرويها وهو من عرفت وأولها : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كان بشر ابن عوانة العبدى صعلوكا فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها وقال : « ما رأيت كاليوم » . فأنشدته السبية أبياتا وصفت بها جارية حسناء وقال بشر : « ويحك من عنيت ؟ » فقالت : « بنت عمك فاطمة » . فقال : « أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ » قالت : « وتزيد وأكثر » . فنرى ان بشرا لم يعرف أن له بنت عم حسناء الا من امرأة غريبة سباها فى احدى غاراته فلما عرف ذلك مل جانبها وطلقها : « ثم أرسل الى عمه

يخطب ابنته ومنعه العم أمنيته فآلى ألا يرعى على أحد منهم ان لم يزوجه ابنته • ثم كثرت مضراته فيهم واتصلت معراته (٢٦) اليهم • فاجتمع رجال الحى الى عمه وقالوا : « كف عنا مجنونك » • فقال : « لا تلبسونى عارا وأمهلونى حتى أهلكه ببعض الحيل » • فقالوا له : « أنت وذاك » ثم قال له عمه : « انى آليت ان لا أزوج ابنتى هذه الا ممن يسوق اليها ألف ناقة مهرا ولا أرضاها الا من نوق خزاعة » • وغرض العـم كان أن يسلك بشر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسه الأسد ؛ لأن العرب كانت قد تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسد يسمى داذا وحيـة تدعى شجاعا — كما أسلفنا القول — •

ثم ان بشرا سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقى الأسد وقمص مهره (٢٧) فنزل وعقره (٢٨) ثم اخترط سيفه الى الأسد ، واعترضـه وقطـه ثم كتب بدم الأسـد على قميصـه الى ابنـة عمـه : « أفاطـم لو شهدت ••• » •

وهذه القصيدة شهيرة متداولة وفق فيها بديع الزمان كل التوفيق فقد ضمنها دقة الوصف وجمال التصوير وأفرغها فى قالب شائق متخير الألفاظ منسجم التعابير • ولكنها على طبيعتها وجزالتها تتناهى سلاسة ورقة ووضوحا فتجعلك تشك فى جاهليتها لأن الشعر الجاهلى مهما سهل ولان ، لا يخلو من خشونة البداوة وغموض بعض التراكيب ولا سيما شعر قيل فى وصف الوحوش والابل والقفار ، فان عاطفة الجاهلى تتصلب فى مثل هذه الحالات فتصلب معها ألفاظه ، وبوسعك أن تلتمس أية قصيدة جاهلية شئت فترى اختلافا بينا فى لغتها اذا اجتمع من أغراضها الغزل والاستعطاف أو الرثاء الى وصف الوحوش والابل والقفار • ومعلوم أن بشرا من صعاليك العرب وهؤلاء يعيشون فى البرارى المقفرة ولا يخالطون غير الوحوش فيصبحون من الخشونة على جانب عظيم • وتخشوشن معهم لغتهم • ولنا فى شعر الشنفرى وتأبط شرا أمثلة صادقة للغـة أولئك الصعاليك • أما قصيدة بشر فحضرية أكثر منها بدوية وليس ورود بعض الغريب فيها بدليل على جاهليتها وهو قليل تافه لا تأثير له فى أثنـاء اللفظ المأنوس •

وأرسل بشر القميص الى ابنة عمه لتقرأ القصيدة ولا نعلم من كان رسوله اليها ، لأن صاحب المقامات لم يذكره ولا ذكره من أرخ بشرا بعده • غير أننا نعلم أن بشرا ذهب يطلب النوق منفردا وسلك طريقا تحامت عنـه العرب •

ولكن وصلت القصيدة الى ابنة عمه · وقرأها عمه ففاضت عاطفته فجأة واحتل حب بشر قلبه على حين غرة وندم على ما فعل وخشى أن تغتاله الحية فجد فى أثره مخاطرا بنفسه : « وبلغه وقد ملكته سورة الحية » (٢٩) · وادراكه اياه على هذه الصورة يجعل القصة أشد تأثيرا فى النفس · « فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى فم الحية وحكم سيفه فيها » ·

وكان ختام هذه القصة أطروفة فى غاية اللطف والفكاهة ، بينة الاغراب والاصطناع : « فلما رجع جعل بشرا يملأ فمه فخرا حتى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدججا فى سلاحه فقال بشر : « يا عم انى أسمع حسن صبيد » وخرج فاذا بغلام على قيد (٣٠) · فقال : « ثكلتك أمك يا بشر أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخرا · أنت فى أمان ان سلمت عمك » · فبارزه بشر فقهره الغلام ولو شاء لقتله · ثم قال : « يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان » · قال : « نعم ولكن بشريطة أن تقول لى من أنت ؟ » فقال : « أنا ابنك » فقال : « سبحان الله ما قارنت عقيلة قط فأنى هذه المنحة ؟ » فقال : « أنا ابن المرأة التى دلتك على ابنة عمك » · فقال بشر :

« تلك العصـــا من هذه العصيــه   هل تلد الحيـــة الا الحيه ؟!

وحلف لأركب حصانا ولأتزوج حصانا ثم زوج ابنة عمه لابنه » ·

★★★

منزلة بديـــع الزمان :

قال الثعالبى : « هو بديع للزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد وفرد الدهر وغرة العصر » ·

وفى هذه النعوت ما يدل على شدة اعجاب صاحب اليتيمة به ولم ينفرد بهذا الاعجاب أبو منصور وحده ، بل شاركه فيه جمهرة المتأدبين فى عصره وبعد عصره · وحسب البديع منزلة أن ينتظم له حزب يلف لفه وهو ما برح فتى غض الشباب : فقد علمت كيف انشق الناس شطرين بعد مناظرته لأبى بكر وكان الشطر الأعظم بجانبه يشد أزره ويفضله

على خصمه وقد استحق صاحبنا هذه المنزلة بذكائه النادر وسرعة خاطره واستبحاره فى اللغة وآدابها وبلاغة انشائه وحسن مائه ورونقه ، وطول باعه فى الوصف والتصوير ودقة نظره فى مراقبة الأشياء وبراعتـه فى التوليد والابتكار وهو خير مصور للحياة فى لذتها وألمها ، ولأخلاق الناس ولا سيما المحتالون الذين يتوسلون الحيل لابتزاز الأموال ، وأول من ابتكر فن المقامات فترسمه فيه أخلافه فنحتوا من صخره واغترفوا من بحره . وكفاه فخرا أنه خلق لتاريخ الآداب شاعرا خدع به صيابة الأدباء . فرووا شعره وأثبتوا خبره وظل حديث المجالس وحلقات الطلب زهاء عشرة قرون ، وبديع الزمان أحـد زعماء الأسلوب المنمق وأبعدهم صيتا وأوسعهم شهرة وأنبههم ذكرا ! .



الهـــــوامش

(١) همذان : مدينة جبلية بفارس · تقع غربى طهران · كانت لهـا مكانة علمية وأدبية · وقد تخرج منها كثير من أدباء القرن الرابع الهجرى ·
(٢) الاسكندرية : ثغر ـ ثغور الاندلس ·
(٣) المضيرية : نسبة الى المضيرة · وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض ·
(٤) سال لعابها ·
(٥) الوسط ·
(٦) المأروض : الذى أكلته الأرضة ·
(٧) كاســدة ·
(٨) بيع بثمن مؤجل ·
(٩) الشبة : النحاس الأصفر أو البرونزى ·
(١٠) الرث البــالى ·
(١١) المجالدة والمقاتلة ·
(١٢) المركن الذى يعجن فيه ·
(١٣) آنية الطعام ·
(١٤) كيف اتصلت به بالشراء ·
(١٥) فواصله ·
(١٦) خمصانة : ضامرة ·
(١٧) اشل : أرفع ·
(١٨) يبقى ·
(١٩) قطعه عرضا ·
(٢٠) تبختر ·
(٢١) الأثر : بضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف ·
(٢٢) من القتك ـ من بطنها ·
(٢٣) شبا السنان : حده · ·
(٢٤) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمهـا ·
(٢٥) الحصان : بفتح الحاء المرأة العفيفة ·
(٢٦) معراته : أذياته ، واحدتها معرة ·
(٢٧) قمص المهر : رفع يديه وطرحهما ، وعجن برجليه من الفزع ·
(٢٨) عقره : قطع قوائمه ·
(٢٩) سورة الحية : سطوتها وحدتها ·
(٣٠) القيد : المقدار · والمراد على قيد رمح أو ميل أى مقدار طوله ·

الديكاميرون

بوكاشيو

القرن الرابع عشر الميلادى

بوكاشيو الضاحك الباكى

بوكاشيو كان أول من نبغ بين الكتاب الايطاليين فى النثر القصصى، بل ان كثيرا من النقاد يذهبون الى أنه لا يزال حتى يومنا هذا رب القصة القصيرة وسيدها ٠

★★★

والحق أن قصص الديكاميرون ممتعة تشتمل على كثير من مواقف الجد والهزل : فيها سخرية بالقساوسة والرهبان الذين غصت بهم العصور الوسطى ، وفيها أصول لكثير جدا من الملاهى التى جرت بها أقلام الكتاب المسرحيين ، وفيها بهجة ومرح ومجون ٠ ولعل خير ما يوصف به هذا الكتاب هذه العبارة الموجزة الجامعة التى اختارها له مترجمه الى الانجليزية قبل القرن السابع عشر وهى : « نموذج للمرح والبديهة الحاضرة والفصاحة وحسن الحديث » فموضوعات هذه القصص من التنوع والتباين بحيث لا تجد لها فى ذلك ضريبا ، فمنها ما يخوض فى مهاترات الحمقى ومنها ما يستدر أرق العواطف وأرقاها ، وبعضها يخرج على حدود العرف الاجتماعى ، بحيث لا يصلح أن ينشر اليوم فى مجلة تطالعها عامة الناس؛ ولكنك لن تجد فى هذه القصص المائة واحدة قد زلت فيما يزل فيه الكثير من الآثار الأدبية وهو جمود العاطفة وبرودها ٠

ان من الآثار الأدبية ما يصور للانسان مثله الأعلى ليجتذبه نحوه ، ومنها ما يصور له عيوبه ليضحكه من نفسه فالكوميديا الالهية لدانتى من الضرب الأول والديكاميرون لبوكاشيو من الضرب الثانى ، ان الانسان حيوانى طموح تراه دائما يزخرف حقائق طبيعته بأوهام ؛ ليتوهم أنه كامل أو مقترب من الكمال ، ولذا تراه أحيانا يبذل مجهودا محمودا محاولا أن يحيا وفق أوهامه لعله يدنو فعلا مما رسمه لنفسه من مثل أعلى ، لكنه كثيرا ما يفشل ضعفا وعجزا ، فيجد العزاء والسلوى حين يقرأ كتابا كالديكاميرون يذكره بأن فى الناس آلافا يماثلونه ضعفا ونقصا ٠

ان الكوميديا الالهية تمثل ذروة ما بلغه الأدب فى العصور الوسطى وان الديكاميرون يمثل البادرة التى بشرت بالنهوض والاحياء فمن أين

أتى هذا الخلاف ؟ هو فى أن الكوميديا الالهية تهيىء القارىء لحياة الآخرة بينما أريد بالديكاميرون أن يعد الانسان نفسه للحياة على هذه الأرض • وها هنا يقع الفارق بين روح العصور الوسطى وروح العصر الحديث •

ان الديكاميرون من أكثر الآثار الأدبية ميلا الى تصوير الواقع من غير تأثر بالميل والهوى ، فأدبه موضوعى متطرف اذ لا تلمس شخصية المؤلف فى أى موضع من الكتاب ولا هو يلون القصة بميوله الخلقية فالحكايات تروى من وجهة نظر انسان متفرج ، يقص علينا أن شيئا معينا وقع على نحو معين ، دون أن يضيف الكاتب عاطفته من اشفاق أو تأنيب؛ لذلك ترى بعض ما يثير الأسى والحزن فى شخصيات القصة يثير فينا الضحك ، وهذا تصوير دقيق لما يحدث فى الحياة الواقعة • فقد يحب فتى فتاة وتقوم فى وجهه عقبات تستدعى منه سلوكا معينا فيه غرابة فمثل هذا السلوك فى عين صاحبه فرض محتوم عليه لا قبل له برده ، ولكنه حين يروى لنا قد نراه مضحكا • واذن ، فالقصة الواحدة قد تضحك وقد تبكى حسب أسلوب روايتها ، وقد حكى بوكاشيو حكايته على نحو يثير فى قارئه الضحك من ضعف الانسان ؛ لأنه حكى الواقع والواقع أكبر المهازل •

كان بوكاشيو مبتكرا لبعض حكاياته ، لكنه لم يصنع فى بعضها الآخر غير الصياغة والتعبير ، اذ كان منها ما هو شائع يحكيه الناس بعضهم لبعض ومنها ما ترجمه عن الخرافات الفرنسية القديمة • ومهما يكن من أمر مصادر الكتاب ، فقد أصبح الديكاميرون جزءا من الأدب العالمى ولا يزال الشعراء الانجليز من أقدمهم الى أحدثهم يردون حوضه الغزير ويستقون منه ، وقد ترجم الى اللغات الأوربية وظهرت أول ترجمة انجليزية له فى سنة ١٦٢٠ وقد تم نقله الى الانجليزية حديثا ، كما نقلته الكاتبة القصصية « فرانسز ونوور » •

ذلك هو كتاب ديكاميرون الذى قال عنه أحد النقاد ان الأدب قد انتقل به « من منطقة ما وراء الطبيعة والقصة الرمزية واللاهوت وأخذ يحيا حياة جديدة وفق الأصول الكلاسيكية القديمة التى تعمل على تقليد الطبيعة تقليدا مباشرا » •

★★★

ولد جيوفانى بوكاشيو فى باريس عام ١٣١٣ لأب كان يشغل منصبا على كثير من الوجاهة واليسار ، فقد كان فى مقدمة رجال التجارة فى مدينة فلورنسا ، فى وقت كانت تسود المدينة فيه جماعة من الطبقة الوسطى أثرت فأزاحت الطبقة العليا عن عرشها ، وقضت أعمال التجارة أن يذهب

الوالد الى باريس فى رحلة قصيرة فاتصلت الأسباب بينه وبين امرأة فرنسية وكان جيوفاتى ثمرة ذلك الاتصال ثم عاد الوالد مع وليده الى بلده فلورنسا ·

ولما شب الغلام أراد أبوه أن يعلمه التجارة وشؤون المال فارسله الى نابولى ؛ ليمارس تلك الأعمال فى أحد أفرع تجارته الممتدة الأطراف ، غير أن بوكاشيو الصغير لم يتعلم شيئا عن البيع والشراء ، اذ لم تصادف التجارة من نفسه الا نفورا ؛ لكنه وجد الحياة هنالك زاخرة فعب منها عبا وقد قال بوكاشيو فى نابولى اذ ذاك : « انها مدينة بهيجة غنية فاخرة تفوق سائر المدن الايطالية جميعا يملؤها اللهو واللعب وأسباب المرح معبودة الناس » فقد بلغت الأخلاق فيها غايتها من الانحلال وانغمس الناس فى المجون ، حيث جاز أن ينازع الملك « روبرت الحكيم » رجلا من أهل نابولى فى أبوة طفلة ولدتها زوجة ذلك الرجل !!

وشاء القدر أن تكون هذه الطفلة أشد المثيرات الوجدانية فى حياة بوكاشيو ، فقد شهدها فى الكنيسة لأول مرة وكانت عندئذ فى عامها السابع عشر تصغره بعام واحد وكانت قد تزوجت قبل ذلك بعامين ، فأحبها للنظرة الأولى وأخذ يحدق فيها حتى اضطرت الفتاة الى أن تسدل على وجهها قناعها ، على أنه لم تمض أيام حتى توثقت بينهما الصلات وهى التى أشار اليها بوكاشيو فى حكاياته باسم « فيامتا » ، وما مضت على حبهما عشر سنوات حتى قضى عليها « وباء الطاعون » ، ثم لم يلبث أن ألمت به ملمة أخرى وهى أن أباه أضاع كل ماله فهوت الأسرة كلها فى مسغبة ، ردت عنها الأصدقاء فلما أثقل الهم قلب بوكاشيو ، حج الى قبر فيرجيل وهنالك قطع على نفسه عهدا أن يهب حياته للأدب ·

وأول ثمراته فى الأدب قصيدة « فيلوستراتو » التى تتكون كل مقطوعة فيها من ثمانية أشطر وقد نسج على منوالها « تشوسر » قصته « ترويلس وكرسدا » ، وكذلك أثمر حبه للأدب أثرا أدبيا آخر هو قطعة نثرية عنوانها « فيلوكولو » كتبها ليدخل السرور على قلب حبيبته ثم قصة « فيامتا » التى قيل عنها انها أول قصة تحليلية عرفتها الآداب الأوربية وهى تعالج عواطف الزوجة التى هجرها الحبيب · وبعدئذ أنشد قصيدة « ننفيل فيسولو » التى قال عنها انها خير ما أنشد من شعر ·

ولم يمض طويل زمن بعد موت حبيبته «فيامتا» حتى عاد بوكاشيو الى فلورنسا ، وأخذ فى انشاء آيته الكبرى وهى كتاب « ديكاميرون » ·

وبعد أن فرغ بوكاشيو من كتابه ديكاميرون بلهجته التسكانية ، حدث أن ذهب الى « بادوا » مبعوثا من جمهورية فلورنسا ليعيد بترارك من منفاه ، وكان بوكاشيو قد حفظ أغانى بترارك عن ظهر قلب وأعجب به منذ الصبا فلما التقى ببترارك وجده مشتغلا باحياء اللاتينية واليونانية القديمتين ، احياء جعله أبا للنهضة الأدبية غير مدافع وقد تأثر به بوكاشيو فامسك عن الكتابة باللهجة التسكانية ليكتب باللاتينية كتابة العلماء ٠ ومما نذكره عن بوكاشيو أنه هو الذى أضاف الى عنوان ملحمة دانتى لفظة « الالهية » فأصبح « الكوميديا الالهية » كما هو اليوم ٠

ومات بوكاشيو فى ديسمبر من سنة ١٣٧٥ وهو فى عامه الثانى والستين بعد أن أنفق أواخر أعوامه فى فاقة مريرة ، وحزن أليم ، لكنه كان قد شق طريق الخلاص من العصور الوسطى وقد كان فى أوله طريقا ضيقا وعرا ، فهو ضيق لأن الرائد الأول كان لابد له أن يحصر انتباهه فى البقعة التى أمامه ؛ ولذلك جاء كتاب بوكاشيو صورة لمكان بعينه وزمان بعينه حتى ليصح ان يقال عنه انه يصور ايطاليا فى القرن السابع عشر وهو وعر لأن تفتيت الصخر عمل مجهد شاق ؛ لكن الطريق الجديد سلك بالنزعة الجديدة عبر جبال الألب الى مسالك فسيحة طيعة هى آفاق الأدب الأوروبى الحديث ٠

★★★

الكتـــاب

أتم بوكاشيو الديكاميرون فيما بين عامى ١٣٤٨ ــ ١٣٥٣ م ، مستوحيا فترته من وباء الطاعون الذى حل بفلورنسا عام ١٣٤٨ ، يصدر بوكاشيو كتابه بوصف مؤثر لذلك الوباء المدمر الذى كان يفتك بالسكان فتكا ذريعا،حتى يمهد الى اجتماع شمل الأبطال الذين تروى القصص على لسانهم وهم سبع فتيات حسان وثلاثة شبان فروا الى مكان آمن للنجاة من الطاعون ، وأخذوا يسلون أنفسهم طوال عشرة أيام برواية القصص فيروى كل واحد من منهم قصة كل يوم بحيث يتألف من الأيام العشرة مائة قصة هى قوام ذلك الكتاب الخالد الذى أمتع القراء فى العالم لمدة ستة قرون ولا يزال حتى يومنا هذا مادة ممتعة تحتل مكانة ممتازة فى جميع آداب العالم بعد أن ترجم الى مختلف اللغات ٠

ورغم أن بوكاشيو لم يعن حينذاك بأن يقرن ذلك العمل باسمه ، الا أن الديكاميرون كان السبب المباشر فيما أحرزه بوكاشيو من شهرة واسعة ٠

مقــدمة الديكاميرون :

يستهل بوكاشيو الديكاميرون بفصل افتتاحى ، يمهد به للقصص المائة التى تروى على لسان الأبطال الذين اختارهم ويصف كيف اجتاح وباء الطاعون مدينة فلورنسا عام ١٣٤٨ ، فأصبحت معزولة عن العالم بعد ازدهارها وكيف تفشى فيها المرض بحيث أصبح الموت هو القدر المحتوم لكل من ابتلى بالداء الوبيل ، فما تكاد البقع القرمزية تظهر على البــدن حتى يموت المريض فى غضون ثلاثة أيام ٠

« عم المدينة الرعب والكرب والفوضى وأهملت كافة القوانين من وضعية وسماوية وأصبح كل فرد من أهالى فلورنسا يفعل ما يشاء ، واقتحم سفلة القوم قصور الأثرياء ليعيشوا عيشة ترف ورخاء ، زاعمين أنه ما دامت النجاة من الطاعون أمرا مستطاعا ، فلا أقل من أن يلقوا الموت وهم يرفلون فى حلل النعيم ٠

وفضل البعض الآخر أن يحيا بمعزل عن العالم فأغلقوا الأبواب على أنفسهم ليعيشوا على الطعام المخزون ، وهجر بضعة آلاف من السكان بيوتهم ليعيشوا فى الريف ، تاركين وراءهم كل ما يملكون من متاع وثروات وأهل وأحباب ٠

« كان الأخ فى ذلك الحين يفر من أخيه والزوجة من زوجها والأشد من ذلك قسوة وأمر أن الآباء فى غمرة الهلع الذى ساد البلاد كانوا يهجرون فلذات أكبادهم ٠ وكان من الخطر الداهم أن يسير الناس فى الطرقات ؛ لأنهم كانوا يروعون بمنظر جثث الضحايا التعساء الذين صرعهم المرض ولقد شاهدت الكلاب بعينى رأسى وهى ترد موارد الهلاك لمجرد أنها لمست الثياب المهلهلة للموتى ٠

« فيما بين مارس ويوليو لقى مائة ألف من أهل فلورنسا حتفهم ، رغم أنه لم يكن من المتوقع أن يبلغ عدد سكان المدينة هذا الرقم الضخم قبل أن يدهمها الوبــاء ، ولكن نفسى تطير شعاعا عندما تعــدد ما حل بمدينتنا من ألوان الشقاء ، ومن ثم سوف أمحو من الذاكرة كل ما يمكن

محوه وأكتفى بالاشارة الى أنه فى الوقت الذى كادت تخلو فيه المدينة من أهلها التقت فى صحن كنيسة سانت مارى مساء أحد أيام الثلاثاء سبع فتيات حسان وهن يرفلن فى ثياب الحداد ومن هذا العدد القليل ، كان يتألف كل الجمهور المحتشد للعبادة ٠

كانت كل واحدة من الحسان تمت بصلة الى الاخرى ٠ اما عن روابط الدم أو أواصر الصداقة الوثيقة ، وكانت بامبينا كبراهن تبلغ الثامنة بعد العشرين من عمرها ، أما فياميتا فقد كانت تصغرها بقليل،فى حين كانت فيلوميتا واميليا ولوريتا ونيفيل تصغرانهما بسنوات ، أما ايليزا أصغرهن فلم تكن قد تجاوزت العام الثامن عشر من عمرها ٠

وعندما انتهت الطقوس انتحت الفتيات ركنا من الكنيسة وبدأن يتشاورن فيما ينبغى لهن أن يقدمن عليه ، بعد أن أصبحن وحيدات فى الحياة ٠ قالت بامبينا :

ـ اننى أنصح بأن نهجر فلورنسا ؛ لأن الحياة فى المدينة باتت شديدة الخطر ليس لمجرد أن الوباء قد داهمها ، وانما لأن الرجال قد فقدوا صوابهم وأصبحوا يعيثون فسادا فى الطرقات ويقتحمون البيوت دون وازع من القانون ، والأفضل لنا أن نلجأ الى الريف حيث الهواء النقى والتلال المعشوشبة وحقول القمح الناضج التى تذكرنا بالحياة ، بدلا مما يطالعنا فى جدران المدينة من هجران وأحزان ٠

وقالت فيلومينا معقبة :

ـ اننى أشك فى أن تتحقق لنا هذه الأمنية بغير أن يتقدم لمساعدتنا بعض الرجال ٠

وصاحت ايليزا محتدة :

ـ من أين يأتينا مثل هذا العون وقد أصبح كل من يمت الينا بصلة القربى من الرجال فى عداد الأموات ؛ بينما القلة التى سلمت من الموت قد آثرت الفرار ؟

وبينما هن يتداولن فى الأمر ، دلف الى الكنيسة ثلاثة فرسان فى ربيع العمر هم : بامفيلو وفيلوستراتو وديونيو ، وقد جاءوا الى الكنيسة يبحثون عن آسرات قلوبهم وكن بالمصادفة نيفيلى ، وبامبينا وفيلومينا ٠

وقالت بامبينا وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة :

ـــ انظرن ! ان الحظ لا يزال فى جانبنا ، لقد ألقى فى طريقنا ثلاثة شبان أجلاء لا أشك لحظة فى أنهم يجيبون مطلبنا لو أننا دعوناهم ٠

وأنبأت بامبينا الفرسان بخطتها راجية أن يقدموا العون لتنفيذها ، وظن الفتية فى أول الأمر أن المسألة لا تخرج عن الدعابة ٠ ولكنهم سرعان ما قرروا مصاحبة الفتيات عندما تبين لهم صدق ما عقدن العزم عليه ؛ لهذا لم تكد بواكير الصباح تلوح حتى تحرك موكب الفتيات الحسان تصاحبهن وصيفاتهن والفرسان مع أتباعهم من الرجال مدبرين عن فلورنسا٠وعندما قطعوا من الرحلة ميلين كانوا قد بلغوا المكان المتفق عليه وهو عبارة عن تل يقع بمعزل عن الطريق تكثر فيه الأشجار الباسقة ويتربع على قمته قصر منيف ، يحيط به فناء متسع كالروضة الفيحاء وبداخله الأبهاء والغرف الفسيحة التى تزينها الرسوم الرائعة ومن حوله تنتشر المروج الخضراء وحدائق ذوات رونق وبهاء ونافورات يتفجر منها الماء ٠

وعندما اطمأن الجميع الى أن كل شىء فى القصر قد أعد بنظام لاستقبال الوافدين ، قامت الحسان بنزهة فى الحديقة يصاحبهن الفرسان وهم ينشدون أهازيج الحب وينظمون أكاليل الأزهار ، حتى اذا ما بلغت الساعة تمام الثالثة أعدت المائدة فى قاعة الاحتفالات ٠ وعندما فرغ الجميع من تناول الطعام ، أخذ ديونيو ينفخ فى قيثارته بينما تعزف فياميتا على العود ، وقد انتظم بقية الجمع فى حلقة الرقص على أنغام الموسيقى ، وعندما انتهوا من الرقص أخذوا يغنون ، وهكذا استمروا فى الرقص والغناء حتى حل الليل وحينئذ انسحب الفرسان الى غرفهم وكذلك فعلت الفتيات ، بعد أن اتفق الجميع على أن تكون بامبينا منذ الغد ملكة على الحشد، هى التى تشير بالرأى وتشرف على الطعام والحفلات ٠

وفى صباح اليوم التالى أرسلت الملكة بامبينا الى الجميع تدعوهم الى الاجتماع فى تمام الساعة التاسعة ، قائلة ان النوم خلال ساعات النهار مناف للصحة وقادتهم الى مرج كثير تظلله الأشجار العالية وتابعت حديثها قائلة :

ـــ من الحماقة أن نفكر فى التريض ما دامت الشمس قد علت كبد السماء والجو مشبع بالحرارة وليس غير أصوات الجنادب بين أشجار الزيتون ، لهذا دعوتنا نجلس فى حلقة لنروى القصص وعندما تتم الدورة تكون حرارة الشمس قد هبطت فيتاح لنا حينئذ أن نسلى أنفسنا على خير ما نحب ٠

وتابعت بامبينا حديثها قائلة للفارس الجالس على يمينها :

ـ والآن بامفيلو أرجوك أن تروى قصتك .

الى هنا تنتهى المقدمة الممتعة التى يمهد بها بوكاشيو للقصة المائة ، والتى تتم روايتها على ألسن الرواة فى عشرة أيام بحيث لا تمر الدورة فى كل يوم حتى يشارك كل منهم بقصة .

وقبل أن نورد نماذج منتقاة من تلك القصص ، لا نحب أن نغفل جانبا له اعتباره بين ذلك القصص الانسانى الخالد ذلك الذى يتعرض للعواطف الانسانية الجامحة فى غمرة توقدها ، حينما تستسلم النفس الانسانية الى الضعف وتغلب عليها الغريزة المتدفقة ، وتنكشف الستر عن المتقنعين بالدين ، فيظهرون كالبشر العادى سواء بسواء ويستجيبون للواعج الحب وصبابة العشاق . وتنكشف فى هذا اللون من القصص موهبة بوكاشيو الضخمة ، عندما يهبط بالقصة من أبراج القصور الى أكواخ السوقة وصوامع النساك فيجلوها بمسحة من الواقعية التى أكسبتها تلك الشهرة وذلك النبوغ .

★★★

القصص الانسانى :

نلمس فى كثير من القصص التى يضمها الديكاميرون النبضات الانسانية الحية ، والتحليل الدقيق للمشاعر الانسانية النبيلة وقد اخترنا نموذجا نلخصه فى عجالة .

فى قصة « الأب القاسى » نجد تاندريد أمير سالرنو يزوج ابنته سيجيزموند وهى فى مقتبل العمر من زوج لا تكاد تتذوق معه أول متع الحياة حتى يختطفه الموت فتعود الى قصر أبيها ، وينسى الأب فى غمرة حبه وحنانه وعطفه على الابنة أن يفكر لها فى زواج جديد يعصمها من الزلل ولا تستطيع سيجيزموند أن تقاوم الرغبة بعد أن تحرك فى أعماقها ما كان ساكنا قبل الزواج ، فتختار لنفسها عشيقا من بين رجال القصر وهو شاب من أصل متواضع يسمى جيشارد وتتخذ الأرملة الحسناء كل أسباب الحيطة حتى لا يفتضح السر . ولكن الأب العجوز يتسلل ذات يوم الى مخدع ابنته ليتبادل معها الحديث ، وعندما يجد الحجرة خالية والستر

مسدلة على السرير يجلس على مقعد تخفيه الستر بجوار السرير ويستسلم الى الكرى ، بينما يعود العاشقان فى غفلة من عيون الرقباء ويستيقظ الأب على أصوات تدغدغ حسه وحركات تثير سخطه وغضبه ، ولكنه يكتم غيظه وينسحب فى هدوء ثم يدع الحراس يقبضون على جيشارد ، دون أن تعلم ابنته ، ويذهب الأب العجوز الى حجرة ابنته ويفصح لها عن اكتشافه قائلا انه لم يكن يتصور أن ابنته تنحدر الى ذلك الدرك مع نكرة من رجاله ، بينما يوفر لها كل ما يستطيع من حب وحنان • ويخبرها أنه أجل البت فى مصير العاشق حتى يسمع دفاعها • وينكس الأب رأسه فى مذلة وينخرط فى البكاء كالأطفال ولا تحاول ابنته أن تطلب الرحمة أو تستدر العطف وتعترف اعترافا صريحا وتقول :

« لقد أحببت جيشارد وسأظل وفية لحبه ما حييت ، وان كنت أعلم أن ذلك العمر لن يطول واذا كان للحب أن يعمر بعد الموت ، فان هذا ما سيحدث من جانبى ، ان فضيلة هذا الشباب وقلة العناية التى نظرت بها الى موضوع زواجى كان لهما أعمق الأثر فى نفسى ، واذا كنت يا أبى لم تخلق من حديد أو رخام فلابد أن تفكر فى أن هذا هو حال ابنتك أيضا • وينبغى أن تذكر فى هذه السن الطاعنة ما كان يزخر به قلبك فى سنى الشباب من عواطف جياشة اننى مازلت فى ربيع العمر وقد حرك فى الزواج المبكر ما كان خامدا من العواطف • بحيث لم يعد فى مقدورى أن أتجاهل الغريزة الصارخة • لقد كانت تلك الرغبات ولا شك هى التى أشعلت فى قلبى جذوة الحب المتعطش للارتواء وعندما أيقنت ألا سبيل الى مقاومة رغباتى ، اتخذت كل أساليب الحيطة كى أغلف حبى بستر من الشرف • وهكذا جمعت بين اشباع الرغبة والمحافظة على السمعة واذا كنت قد فضلت جيشارد على غيره من رجال القصر ، فانما كان ذلك بعد روية وطول تفكير • ويبدو أنك كنت تتسامح لو كان حبى لرجل نبيل الأصل ولكن الذنب ذنب الحظ وليس الخطأ من تدبيرى • ان الحظ أعمى وهو يختار أقل الناس استحقاقا له بينما يتخلى عن أولئك الذين تسمو عواطفهم ويستحقون أوفى تقدير •

« ارجع الى الأصل لتجد اننا جميعا أبناء نفس الأب • وأننا خلقنا من طينة واحدة ثم تفرقت بنا السبل فى الحياة ليكون هناك النبيل الأصل ووضيعه ، وكائنا ما يكون الخلل الذى دفع الضمير الانسانى الى فرض هذا القانون الجائر ، فانه لا تزال هناك نفوس سامية لا تزن هذه الأمور بهذا الميزان • ووفقا لهذه المقاييس الرفيعة تستطيع أن تقول انه

بقدر ما تتعدد هذه الفضائل فى الفرد يكون سموه وعلو قدره ، ومن ثم يعتبر جيشارد أعرق فى السمو والنبالة من جميع رجال قصرك » .

واختتمت سجيزموند حديثها قائلة انها تترك لأبيها أن يقضى فى مصير جيشارد بما يشاء ، ولكنها ستنفذ الحكم عينه على نفسها طائعة طالبة من أبيها ألا يبكيها حينئذ .

وفكر الأب العجوز ثم هداه تفكيره الى قتل جيشارد وانتزاع قلبه من صــدره ، وأرســل لها القلب فوق صحيفة مع رســول يحمل هذه الرســـالة :

« يبعث اليــك والدك الأمير بهذه الهدية لتعزيك عن فقــد أشد ما تحبــين » .

وأدركت سيجيزموند ما تحمله الرســـالة من معنى وأسرعت الى زجاجة من السم كانت قد أعدتها وتجرعت كل ما فيها وعندما علم الأب بالأمر أسرع اليها ، وقالت سيجيزموند بضعف وهى تغالب ســكرات الموت :

ـ اذا كان قلبك لا يزال ينبض بحبى ، فاننى أتقدم اليك بآخر رجاء انى لا أطلب منك سوى السماح بأن أدفن علانية بجوار جيشارد ، حيث أبيت الا أن أعيش سعيدة بجواره فى الخفاء .

وخنقت الأب العبرات فلم يستطع أن يجيب ابنته المحتضرة بكلمة واحدة . ولم يكد الأب يبارح الحجرة حتى لفظت سيجيزموند آخر أنفاسها وهى تضم قلب العاشق الى صدرها . وندم الأب العجوز على قسوته ولكن بعد فوات الأوان ، وسمح لجثتى العاشقين بأن تدفنا فى مقبرة واحدة .

قصــة حــب

حدث منذ زمان أن كان يعيش فى جزيرة قبرص رجل ذو أصل عريق وثراء وفير يدعى أريستيوس ، وكان الرجل يحس ببالغ التعاسة من جراء ابنه سيمون ، فرغم ما يتمتع به الفتى من جسم فارع وطلعة ذات حسن ، الا أنه كان ضعيف العقل وعندما اكتشف الأب أن أمهر المعلمين قد عجز عن صب القليل من المعرفة فى عقل الابن ، قرر أن يباعد بينه وبين ابنه حتى لا يقع عليه بصره وأرسله ليعيش بين العبيد فى منزله بالريف .

هناك اعتاد سيمون أن يكدح كما يفعل العبيد وأصبح فى الواقع على شاكلتهم فى خشونة الصوت وفظاظة الطباع • الا أنه حدث ذات يوم بينما كان يجوس خلال المزرعة أن وقعت عيناه على غادة حسناء مستغرقة فى النوم فوق العشب الأخضر الكثيف • ومن تحت أقدامها أغفت وصيفتان وخادم من رجالها ، لم يكن سيمون قد رأى قبل ذلك وجه امرأة قط فوقف يحملق فى الفاتنة مبهورا وهو يستند على عصاه ، وقد تسربت الى ذهنه أفكار غريبة وتحركت فى أعماقه عواطف لم يشعر بها من قبل • وظل يتأمل الحسناء فترة طويلة حتى رأى أهدابها تتحرك ثم رآها تستيقظ ببطء وأحس سيمون بنشوة غامرة تملأ جوانح نفسه وقالت الحسناء :

ــ لماذا تنظر الى هكذا ؟ أرجوك أن تبتعد عنى انى أرتعد لمرآك •

وأجابها سيمون حالما :

ــ لن أبتعد انى لا أستطيع •

ورغم أن الفتاة كانت خائفة فانه لم يتخل عنها ، حتى صحبها الى دارها وحينئذ ذهب الفتى الى أبيه ليقول له انه يريد أن يعيش كسيد مهذب وانه لم يعد يطيق حياة العبيد • ودهش الأب عندما اكتشف أن صوت ابنه قد لان واكتسب عذوبة ورقة ، بينما تهذبت طباعه وهشت أساريره • وغير الأب ثياب ابنه وسربله بملابس تليق بعلو مكانته وسمح له بالذهاب الى المدرسة •

مضت أربع سنوات منذ وقع سيمون فريسة للحب وقد غدا الشاب أنبه شباب قبرص وأكثرهم أدبا وعلما ، وعندئذ ذهب الشاب الى والد ايفيجنيا ــ وذلك كان اسمها ــ طالبا يد ابنته ولكن الوالد أجابه بأن ابنته مخطوبة بالفعل لباسيمونداس وهو شاب من نبلاء رودس وأن احتفالات الزفاف توشك أن تقام ، وهمس سيمون لنفسه فى مرارة وهو يستمع الى تلك الأنباء الأليمة :

ــ أواه يا افيجينيا ! لقد حان الوقت لأكشف لك عن مدى ولعى بك• لقد كان حبك هو الذى خلق منى رجلا • والزواج منك كفيل بأن يجعلنى سعيدا وعظيما كاله ! بك سأظفر والا فالموت عزائى •

سارع سيمون الى بعض أصدقائه من الاشراف طالبا منهم العون فى تدبير سفينة للقتال • وعلى متن هذه السفينة تابع مسير السفينة التى ابحرت عليها ايفيجينيا قاصدة رودس وألقى على السفينة الأخرى بخطاف من الحديد وشدها نحوه حتى تلاقت السفينتان • ودون انتظار العون من أحد ، قفز سيمون بين خصومه وظل يدافعهم عن نفسه حتى ألقوا السلاح ، وهو يقول لهم :

ـ انى لم آت لسلبكم ، وانما جئت لاظفر بالحسناء النبيلة ايفيجينيا التى أحبها أكثر من أى شىء فى الوجود ، خلوا بينى وبينها وأقسم ألا ألحق بكم ضررا •

جاءت اليه ايفيجينيا والدموع فى مآقيها فقال لها برقة :

ـ لا تبكى يا فاتنتى الرقيقة أنا أسيرك سيمون • ان حبى العميق الدائم يساوى أكثر بكثير مما يعدك به باسيمونداس •

ابتسمت ايفيجينيا من بين دموعها ، بينما كان سيمون يصحبها الى ظهر السفينة ويبحر بها الى كريت حيث أهله وأقرباؤه وأصحابه ، الا أن عاصفة هوجاء هبت خلال الليل وألقت غلالها على جميع النجوم فى السماء ، وظلت السفينة تدور حول نفسها حتى ألقت بها العاصفة على شاطىء يقع على سواحل رودس • وقبل أن تتمكن السفينة من الاقلاع مرة أخرى هاجمها باسيمونداس وأخذ سيمون أسيرا وقاده الى كبير قضاة رودس • وكان فى ذلك العام ليزيماخوس الذى أصدر الحكم بالسجن على سيمون وصحبه بالسجن مدى الحياة بتهمة القرصنة والاختطاف •

وبينما كان سيمون يقاسى مرارة السجن يائسا من أى أمل فى استرداد حريته ، كان باسيموانداس يعد العدة لحفل زواجه من ايفيجينيا ، وكان لباسيموانداس فى ذلك الحين أخ يصغره ويدعى هورميسداس • وكان يرغب فى الزواج من حسناء اسمها كاساندرا ، وكان ليزيماخوس كبير القضاة يحب بدوره هذه الأخيرة • فكر باسيموانداس فى أنه يستطيع أن يوفر قسطا كبيرا من المتاعب والنفقات لو أنه أقام احتفاله بزواجه وزواج أخيه فى نفس الوقت ، لهذا فقد أعد العدة لذلك مما أثار حفيظة ليزيماخوس وأغضبه أيما غضب • وبعد طول روية وتفكير تخلى الشرف عن مكانه للحب وعزم ليزيماخوس على أن يختطف كاساندرا غصبا •

ولكن من يعينه على قضاء مآربه من بين أصحابه ؟ هذا ما فكر فيه ليزيماخوس ولم يتردد لحظة فى أن يستعين بسيمون وأعوانه • خف اليهم فى السجن ليطلق سراحهم ويزودهم بالسلاح ويخفيهم فى منزله ثم قسمهم فى ليلة الزفاف الى ثلاث فرق،قصدت احداها الشاطىء لتستولى على احدى السفن ، بينما عهد الى الثانية بمراقبة بوابة قصر باسيموندس ونصب من نفسه قائدا للفرقة الثالثة يسانده سيمون ، واقتحمت هذه الفرقة قاعة الاحتفال حيث تقام مراسم الزواج وقتلت العريسين وحملت العروسين والدمع فى مآقيهما الى السفينة التى أبحرت بين تهليل ركابها ومرحهم قاصدة كريت •

وهناك تزوج الشابان من الفاتنتين بين تهانىء الأقارب والأصدقاء ورغم أن قتالا عنيفا قد نشب بين أهل جزيرة كريت وقبرص من جراء فعلتهما الشنعاء ، الا أن الأمور سويت فى النهاية على خير ما يرجى من سلام ، وحينئذ عاد سيمون مع ايفيجينيا الى قبرص وحمل ليزيماخوس عروسه كاساندرا الى رودس وعاش الجميع فى خير وسعادة حتى آخر أيام العمر •

قصـــة صـــداقة

فى الوقت الذى كان يحكم فيه روما اكتافيوس قيصر ــ وهو الذى أصبح يلقب فيما بعد الامبراطور أوغسطس ــ كان يعيش فى روما شاب يدعى تيتوس كوينتوس فلافيوس • وقد قصـد الشاب أثينـا ليدرس الفلسفة وهناك نمت علاقة صداقة بينه وبين شاب من أشراف أثينا يدعى جيسيبوس ، ودامت العلاقة بينهما ثلاث سنوات وهما يعيشان كأخوين شقيقين يدرسان معا ويعيشان تحت سقف واحد •

وذات يـوم وقع جيسيبوس فى غرام حسـناء من أثينـا تسمى سوفورنيا وتعاهدا على الزواج • وصحب جيسيبوس صـديقه لزيـارة خطيبته قبل الموعد المحدد للزفاف بأيام ، وكانت تلك أول مرة تقع فيها أنظار تيتوس على سوفورنيا وبمجرد أن تلاقت نظراتهما وشاهد جمالها ، أحس أنه أحبها حبا لم يسبق لرجل أن أحس بمثله نحو امرأة ، وتأججت العاطفة فى قلبه الى درجة أنه لم يعد يستطيب الأكل أو ينعم بلذة النوم ، وبرح به المرض الى الدرجة التى أصبح معها غير قادر على النهوض من فراشه • وحزن جيسيبوس أيما حزن وأحس بعميق الأسى من أجل ما ألم بصاحبه

من سقم • ولما كان يظن أن هذا البلاء وليد مرض عقلى أصاب صاحبه ، فقد ألح عليه كى يصارحه بسبب شقائه ولم يستطع تيتوس أن يخفى الحقيقة عن صاحبه فقال له ملتاعا :

ــ أواه جيسيبوس ! ، انى غير جدير بأن ألقب بالصديق لقد وقعت فى غرام سوفورنيا ، وهذا العشق يقتلنى ، يا لى من شخص وضيع! • ولكنى ألتمس منك الصفح يا صديقى سوف ألقى الموت عاجلا جزاء ما اقترفت من اثم وعدم ولاء •

جمد جيسيبوس فى مكانه برهة وهو مشتت بين حبه لسوفورنيا وولائه لصديقه ، ولكنه استقر آخر الأمر على أن يرد الحياة لصاحبه ولو كان ذلك على حساب سعادته • وبعد بضعة أيام عندما أحضرت سوفورنيا الى بيته حتى يقام حفل الزواج تسلل جيسيبوس بخفة الى غرفة العروس حيث كانت ترقد سوفورنيا (أطفأ الشموع ثم أسرع فى صمت الى تيتوس ، حيث أنبأه أنه سيكون الزوج واعترى تيتوس خجل غامر ورفض أن يذهب الى العروس ، ولكن جيسيبوس ظل يقنعه فى رفق وعطف حتى اقتنع • وسار تيتوس على أطراف أصابعه ودخل حجرة العروس المظلمة وسألها برقة عما اذا كانت تقبله زوجا ، ولما كانت سوفورنيا تعتقد أنه جيسيبوس فقد ردت عليه بقولها : « نعم » وعندئذ وضع تيتوس فى اصبعها خاتما ثمينا وهو يقول : « وأنا سأكون زوجا لك » •

وفى الصباح اكتشفت سوفورنيا الخديعة التى كانت ضحية لها ، وتسللت من المنزل لتقص على أبيها وأمها كيف خدعها جيسيبوس وزوجها لتيتوس وكان رد الفعل شديدا فى أثينا لما ارتكبه جيسيبوس فى حق سوفورنيا التى تنتمى الى أسرة من أشراف أثينا • ولكن الأبوين وقد وجدا أن ما حدث لا يمكن اصلاحه وافقا على أن يصحب تيتوس عروسه الى روما حيث لا تروج أنباء الفضيحة • ولكنهما قررا بعد رحيل تيتوس أن يقتصا من جيسيبوس وتحالفت ضده عصبة أخذت على عاتقها تلك المهمة ، ونجحت فى أن تجرده من كل ممتلكاته مع طرده من أثينا ، بعد أن صدر عليه حكم بالنفى حتى الموت •

عندما وجد جيسيبوس نفسه خالى الوفاض لا صديق له ، رحل الى روما سيرا على الأقدام قاصدا أن يلجأ الى تيتوس ليلتمس منه العون ، وعندما وصل الى روما اكتشف أن صاحبه قد صادف الثراء الواسع والجاه

العريض وأنه أصبح يتمتع بعطف الأمير أوكتافيوس الشاب ويعيش فى قصر منيف ، ولم يجرؤ جيسيبوس على أن يلج باب القصر وهو فى أسماله البالية وقنع بالوقوف كالشحاذ أمام البوابة ، على أمل أن يمر صديقه فيراه ويبادله الحديث • ولكن تيتوس كان يخرج فى كل مرة مندفعا من القصر ولم يبطىء فى سيره مرة واحدة حتى يراه وخيل لجيسيبوس أنه بات محتقرا من صاحبه فمضى فى سبيله محسورا مكدودا •

سار جيسيبوس فى شوارع روما على غير هدى حتى فاجأه الظلام بالقرب من مغارة تواعد اللصوص على الالتقاء فيها ، واستلقى جيسيبوس على الأرض الصلبة واستسلم لسبات عميق • وبينما كان يغط فى نومه جاء لصان يحملان ما غنماه من أسلاب واختلفا على اقتسام المسروقات ونشب بينهما شجار عنيف وسقط أحدهما قتيلا بينما فر القاتل متسترا بالظلام ، حتى اذا كان الصباح اكتشف أحد الحراس الجثة وجيسيبوس غير بعيد عنها فالقى القبض عليه •

استسلم جيسيبوس لقدره واعترف بأنه القاتل حتى يلقى الموت بهذه الطريقة بدلا من أن يقضى على نفسه بنفسه ، وازاء اعترافه أصدر القاضى الحكم بصلبه وكانت تلك هى وسيلة الاعدام فى ذلك الحين •

وتشاء الظروف العجيبة أن يكون تيتوس موجودا فى قاعة المحكمة بطريق المصادفة ليتولى الدفاع عن رجل فقير ، وتعرف فى الحال على جيسيبوس واعترته الدهشة البالغة من جراء ما حدث لصاحبه من سوء المصير • وقرر أن ينقذ صاحبه مهما كلفه ذلك من ثمن ولكن القضية كانت قد قطعت شوطا بعيدا وليس أمامه سوى حل واحد ، ولكن تيتوس لم يتردد برهة فقد تقدم من منصة القاضى بخطى ثابتة وقال بين دهشة جميع الحاضرين :

ـ أرجوك أن تسحب حكمك هذا الرجل برىء • أنا القاتل !

تطلع جيسيبوس حوله فى دهشته ليرى تيتوس أمامه ، وأدرك أن صاحبه يحاول أن ينقذ حياته بدافع من الصداقة القوية وقرر بدوره ألا يقبل هذه التضحية فقال للقاضى :

ـ لا تصدقه يا سيدى أنا القاتل ولا يستحق العقاب سواى •

دهش القاضى دهشة بالغة وهو يرى رجلين يسعى كل منهما الى حتفه ليفوز بالصلب ، كما لو أنه شرف لا يعدله شرف فى الوجود · وفجاة إندفع واحد من عتاة اللصوص كان يتابع المحاكمة ليقول بين دهشة الجميع :

ـ لقد مست هذه المناظرة الغريبة شغاف قلبى · ومن ثم سوف أعترف لكم بكل شىء · لا يمكنك يا سيدى أن تصدق أن أحدا من هذين الرجلين يمكن أن يرتكب الجريمة فما الذى يدفع سيدا من علية القوم أصحاب الثراء الواسع كتينوس الى الذهاب الى مغارة يختلف اليها اللصوص ، انه لم يذهب قط الى المكان · أما هذا الغريب البائس ذو الثياب المهلهلة ، فقد كان نائما فى الوقت الذى وصلت فيه مع صاحبى الى المغارة واللصوص ـ كما تعلم يا سيدى ـ يختلفون فى بعض الأحيان خصوصا اذا كانت الغنيمة ثمينة وقد كان هذا عين ما حدث البارحة فشرعت مديتى لأضع حدا للنزاع ·

وقد كان ظهور رجل ثالث يعترف بالجرم مما زاد من حيرة القاضى فقرر أن يعرض القضية على أوكتافيوس قيصر · واستدعى قيصر الرجال الثلاثة فمثلوا بين يديه وعندئذ أفضى اليه تيتوس وجيسيبوس بقصة صداقتهما الغريبة ، وفى الحال أصدر أوامره باطلاق سراحهما واكراما لهما أصدر العفو عن اللص القاتل ·

وحينئذ صمم تيتوس على أن يعود معه جيسيبوس الى قصره وأرغمه على قبول نصف ثروته وزوجه من أخته فلافيا ، وهى شابة ذات حسن ساحر وفتنة طاغية · وحتى آخر أيام عمرهم عاش تيتوس وسوفورنيا وجيسيبوس وفلافيا فى سعادة ورخاء يجمعهم فى روما نفس القصر ، ولم يكن يمر يوم حتى يضيف الى سعادتهم ما يملأ القلوب غبطة وهناء ·

قصة ذكاء

كما ثار الكثير من الجدل حول الدين فى فلورنسا ابان الفترة التى اجتاحها فيها الوباء ، فقد أعاد ذلك الى ذاكرتها قصة ميلشيز ديك ·· كان الرجل وهو من أثرياء اليهود ، يعيش فى الاسكندرية أيام حكم السلطان العظيم صلاح الدين ، وكان السلطان فى مسيس الحاجة الى المال بعد أن

استنزفت الحروب كل ما كان فى خزائن الدولة من أموال • وقرر صلاح الدين أن يحتال على اليهودى ؛ ليجرده من ثروته فبعث اليه رسولا يستدعيه وعندما مثل اليهودى بين يديه قال له السلطان :

لقد سمعت أنك من الحكماء فى مسائل الدين • أريد أن أعرف منك أى الأديان تراه الدين الحق : اليهودية أم المسيحية أم الاسلام ؟

أدرك اليهودى أن صلاح الدين يريد أن يورطه فلو أنه أجاب بأن اليهودية أو المسيحية هى الدين الحق فلابد أن ينتقم منه السلطان ، ويحكم عليه بعدم الولاء ، ولو أنه صرح بأن دين الاسلام هو الدين الأفضل لطالبه بأن يتنازل عن جزء من ثروته للدولة مثلما فعل المؤمنون وتردد اليهودى وأعمل فكره لينجو من ورطته ثم أجاب بقوله :

كان يعيش فى قديم الزمان يا مولاى رجل يمتلك خاتما ذا رونق كبير وقيمة ذات بال ، وقد أعلن فى وصيته أن الابن الذى يترك له هذا الخاتم يصبح رب الأسرة من بعده وأن أبناء هذا الابن يبسطون حكمهم على أحفاد أبنائه الآخرين •

وظلت رغبة الأب تنفذ على مدار أجيال كبيرة ؛ ولكن الخاتم كان فى النهاية من نصيب رجل له ثلاثة أبناء وكان كل منهم فاضلا شديد الولاء لأبيه • ويحب الأب أبناءه جميعا على قدم سواء :

ولما وجد الأب نفسه غير قادر على أن يفضل ولدا على ولد ، طلب الرجل من أحد الصناع الماهرين أن يصنع له خاتمين آخرين على غرار الأول، وجاء الخاتمان مشابهين له الى درجة يصعب معها التمييز أيها الحقيقى • وبعد الوفاة ادعى كل من الأبناء أنه وريث الأب فى حكم الأسرة ولكى يدعم كل منهم الرأى بالحجة أخرج خاتمه الذى تلقاه من أبيه ولكن الخواتيم كانت متشابهة ، الى الدرجة التى لا يمكن التمييز بينها ومعرفة الأصيل منها ، ولم يستطع حتى هذه اللحظة أن يحسم الأمر انسان وهكذا حدث بالنسبة للأديان الثلاثة التى صدرت عن الرب يا مولاى : اليهودية والمسيحية والاسلام يظن كل من أصحابها أنه وريث الرب العلى ولكن الأمر بينهم غير مؤكد كما كان بالنسبة للخاتم الأصيل •

اغتبط صلاح الدين أشد الاغتباط وأعجبه الرد الذى استطاع ميلشيز ديك أن يتخلص به من الفخ الذى أعده له ، وبدلا من أن يستولى

السلطان على أموال اليهودى قسرا كما قدر قبل أن يستدعيه ، رغبه فى أن يقدم له المال على سبيل القرض ، واستجاب ميلشيز ديك لهذا الرجاء وسرعان ما رد له السلطان الدين وأغدق عليه العطايا والمنح ، بالاضافة الى ما خلعه عليه من منصب كبير واتخاذه له صاحبا فى مجلسه ٠

قصة الزوجة الصابرة

قضى الفرسان والحسان أمتع الاوقات فى الرقص والغناء ورواية القصص ٠ وعندما انحسرت موجة الوباء عن فلورنسا عاد الجميع الى المدينة ولكنهم قبل أن يبدءوا رحلتهم اليها ، قص عليهم ديونيو قصة بالغة الغرابة شديدة التأثير قال ديونيو :

جرى الرجال على أن يلصقوا بالنساء تهم التقلب وعدم استقرار العاطفة ٠ ولكن يحضر ذاكرتى قصة تدلل على ثبات عاطفة المرأة وقسوة الرجل ، ولا شك فى أنكم سوف ترحبون بالاستماع اليها ٠

كان المركيز جوالتيرى الحاكم الشاب لمدينة ساليرنو ، مؤمنا بأن النساء قلب(*) لا أمان لهن ولا ضمان لاستقرار عواطفهن ٠ ومن أجل هذا السبب أضرب عن الزواج واكتفى من متع الحياة بالصيد والقنص ، الا أن رعاياه لم يكونوا راضين عن مسلكه هذا خشية أن يموت دون وريث فيتركهم بلا سيد ، ومن ثم كانوا يلحون عليه فى الزواج وقطعوا فى ذلك شوطا بعيدا الى حد أنهم عرضوا عليه فى النهاية أن يختاروا له الزوج المناسبة وأغضبه ذلك أشد الغضب فقال لهم :

— اذا رغبت فى اتخاذ زوجة أيها الأصدقاء فانى سأختارها بنفسى ومهما كان أصلها أو البيت الذى نشأت فيه ، فأنتم مطالبون بتقديم واجبات الاحترام لها بما يليق بمقامها كزوج لمولاكم ، والا فانكم سوف تلمسون بأنفسكم كم يشقينى أن اتخذت زوجا حيث لم أكن أريد ! ٠

بعد ذلك ببضعة أيام بينما كان المركيز يمتطى صهوة جواده مارا بقرية غير بعيدة عن موقع القصر ، لمح ابنة أحد الرعاة تنقل الماء من البئر الى منزل أبيها ، وسألها المركيز عن اسمها وأجابته الراعية الحسناء : « جريزيلدا » ٠ وقال لها مركيز ساليرنو :

(*) بضم القاف وتشديد مع فتح اللام : متقلبات ٠

ـ حسن يا جريزيلدا ! انى أبحث عن زوجة ولو أنى تزوجتك فسيكون من واجبك أن تتعلمى كيف تعملين على ارضائى وتنفيذ كل مطالبى مهما كانت غرابتها ، دون أن تند عنك همسة اعتراض أو نظرة اكتئاب ٠

وأجابته جريزيلدا بقولها :

ـ نعم يا مولاى ٠

وعلى الفور أرسل المركيز بعض خدمه ليشتروا بعض الثياب الفاخرة وارتدت جريزيلدا الثياب الغالية ، ووضع المركيز على رأسها اكليلا من الازهار ، ثم صحبها الى القصر وأقام حفلة رائعة للزواج كما لو أنه كان يعقد زواجه على ابنة ملك فرنسا ٠ وأثبتت جريزيلدا أنها زوج طيبة : فقد كانت ذات أخلاق دمثة وطباع رقيقة الى الدرجة التى خيل لزوجها أنه أصبح أسعد رجال العالم قاطبة٠ وقد أولاها رعايا زوجها ما يليق بمكانتها من التقدير والاحترام وأحبوها حبا جما ولشد ما كانت فرحتهم عندما أنجبت لهم طفلة حسناء ! ٠

ولسوء الحظ داخل زوجها شعور مبهم ، فقد خيل اليه أنها تتصرف بهذه الرقة والطيبة ؛ لأن الريح التى صادفتها كانت مواتية وقر عزمه على أن يمتحن قدرتها على الصبر عن طريق الأذى ، لذلك أنبأها أن رعاياه مستاءون لأنه اختار زوجا وضيعة الأصل ، وأنهم يتهامسون فيما بينهم لأنها أنجبت طفلة وأجابته جريزيلدا بقولها :

ـ انى أعلم يا مولاى أننى وضيعة الأصل وأن أقل رعاياك يفضلنى نسبا وأنى غير جديرة بالشرف الذى أسبغته على ٠ وأنى لأرجوك أن تتصرف على الوجه الذى يصون شرفك ويحقق سعادتك دون تفكير فى صالحى ٠

وسرعان ما وافى جريزيلدا أحد خدم المركيز قائلا لها :

ـ سيدتى اما أن أفقد حياتى أو أنفذ مشيئة مولاى لقد أصدر الى سيدى أوامره بأن آخذ ابنتك و ٠٠٠

لزم الخادم الصمت ولم يزد حرفا ، وظنت جريزيلدا أن ما أصدر اليه من أوامر يقضى بقتل ابنتها ، ولم تتردد فى أن ترفعها من المهد لتقبلها برقة ٠ ثم تلقى بها بين يديه وأرسل المركيز ابنته الصغيرة الى واحد من أقربائه فى بولونا لتنشأ هناك وتتلقى تعليمها ٠ وبعد بضع سنوات

أخرى أنجبت جريزيلدا ولدا ، وكان ذلك من بواعث سعادة المركيز عندما علم أنه رزق بوريث ؛ ولكنه تمشيا مع خطته قرر حرمان الأم من مولودها فقال لها :

ـ لم يعد فى مقدورى أن أواصل الحياة مع رعاياى انهم يقولون انهم لا يتسامحون فى أن يكون حفيد أحد الرعاة سيدا عليهم فى المستقبل، ولا بد لى من التخلص من هذا المولود كما فعلت مع سابقه ٠

وأجابت جريزيلدا بقولها :

ـ مولاى ٠ افعل ما تراه أفضل وأدعى لسعادتك دون أقل تفكير فى صالحى ، اننى لا أجد ثمة ما يسعدنى فيما يسبب لك الشقاء ٠

وفى اليوم التالى أرسل المركيز ابنه حيث أرسل ابنته من قبل ، وظن رعاياه أن الأب قد حكم على ولديه بالموت ووجهوا اليه شديد اللوم على ما تبدى من قسوته ولم يتوانوا عن اظهار عطفهم على الزوجة ٠ ولكن جريزيلدا لم تكن لتسمح لهم بتقريع زوجها بل كانت تلتمس له الأعذار ٠

ورغم كل ذلك فلم يكن المركيز قد اقتنع بعد باخلاص زوجته ، وبعد مرور ستة عشر عاما على زواجهما قرر الزوج أن يضعها أمام اختبار جديد فقال لها :

ـ أيتها المرأة لقد قررت أن أتخذ لى زوجة أخرى وسوف أعيدك الى كوخ أبيك على نفس الهيئة التى كانت لك قبل الزواج ، وسيكون اختيارى لزوجة من نفس طبقتى ٠

وبذلت جريزيلدا جهدا كبيرا كى تغـالب دموعها ونكست رأسها فى تواضع ووافقت على الطلاق ، وجردها المركيز من ثيابها الفـاخرة لترتدى الأسمال ، وقبل أن تسلك طريق العودة الى كوخ أبيهـا أخبرها المركيز أنه سيتزوج من ابنة كونت ياناجو وقال لها :

ـ انى على وشك أن أبعث فى طلب العروس الجديدة ؛ ولكنى أفتقر الى وصيفة تقوم باعداد الغرف والاشراف على الترتيبات اللازمة للاحتفال، ولما كنت خبيرة بمسالك القصر أرى أن تقومى بالخدمة كوصيفة فى القصر يوما أو يومين عليـك أن تنظمى كل شىء وتوجهى الدعوات للسيدات اللائى سيحضرن الحفل وعنـدما تتم مراسم الزواج ، يتحتم عليـك أن تعودى الى كوخ أبيـك ٠

وكانت تلك الكلمات بمثابة طعنات الخنجر التى أدمت قلبها ٠ فلم يكن من المستطاع أن تنزع حب زوجها من قلبها بالسهولة التى احتملت بها تخلى المجد والسلطان عنها ، وأخذت جرايزيلدا تجول فى ردهات القصر فى ثيابها الحقيرة وهى تشارك الخدم فى أعمالهم : تكنس الحجرات وتنظف الأثاث وعندما أتمت عملها قامت بتوجيه الدعوات الى سيدات المقاطعة اللاتى سيحضرن الحفل ٠ وفى اليوم المحدد شاركت فى استقبال المدعوين فى ثيابها الخشنة ولكن بوجه مشرق ونظرات حانية ووصل المركيز فى الساعة المحددة متأبطا ذراع الزوجة الجديدة التى كانت آية فى الحسن حقا ، وعندما فرغ المركيز من تقديمها لجميع الضيوف الذين هنأه أغلبهم على حسن توفيقه فى الاختيار قال وهو ينظر باسما الى جريزيلدا :

– مارأيك فى عروسى ؟

– مولاى ٠ أنى أحبها حبا لا مزيد عليه ، ولو أنها كانت عاقلة مثلما هى رقيقة فلا شك أنك ستكون أسعد الناس معها ؛ ولكنى أرجو مخلصة ألا تنهج مع هذه السيدة الوديعة مثلما سلكت مع زوجك السابقة ؛ لأنها من أصل رفيع وهى فى ريعان الشباب وقد ربيت خير تربية بينما نشأت الأخرى لتجالد ضراوة الحياة ٠

وقال المركيز برقة :

– اصفحى عنى ٠ اصفحى عنى ٠ اصفحى عنى ٠ انى أعرف مدى ما عاملتك به من غلظة يا جريزيلدا ؛ ولكنى لم أكن أومن باخلاص النساء وثبات عواطفهن ولم أكن أصدق حتى أثبت لى عكس ما اعتقدت ٠ اسمحى لى فى دقيقة واحدة من اللحظات السعيدة أن أصلح بعض خطئى ، وأن أرد لك كل ما حرمت عليك من سعادة طوال السنين الماضية هذه الشابة الحسناء هى ابنتك وابنتى يا عزيزتى جريزيلدا ٠ انظرى ٠ هذا هو ابنك ينتظر من خلفها ٠

وقاد المركيز جريزيلدا من ذراعها وهى تبكى من الفرح الى أبنائها وحينئذ وقفت جميع المدعوات وصحبنها الى حجرتها ؛ لتبدل ثيابها وترتدى أفخر ما لديها من الثياب اللائقة ولازمنها بضعة أيام وهن يحتفلن ويمرحن ٠ وبعث المركيز الى أبيها الراعى الفقير وأقطعه جناحا من القصر ليعيش مع ابنته وأحفاده وزوج ابنته ، وعاش الجميع فى أتم ما يكون من السعادة والصفاء ٠

وقد أثرت قصص الديكاميرون فى الكتاب المعاصرين لبوكاشيو ومن جاءوا بعده الى يومنا هـذا وكمـا عاش كثير من الكتاب على فتات مائدة هوميروس، فقد حظيت قصص الديكاميرون بنفس المنزلة وقدر لها الانتشار الواسع ، وكان مصدر الهام كذلك لدرايدن وكيتس وتنيسون ، وترجمت القصص الى كل اللغات ؛ لتكون متعة للقراء على الدوام ٠

★★★

رحلات جليفر
سويفت
١٧٢٦ م

الحرية ٠٠ هى الطابع العام لأدب سويفت

الطابع العام لادب سويفت هو تلك الحرية الشديدة غير المألوفة فى زمنه فى استخدام فكره النافذ ، وجرأته على جميع الأوضاع والقيم واخضاعها للنقد العقلى ٠ حتى لقد قيل ان نقده العقلى المحض للقيم الراسخة والسائدة ، يهدد مبررات الحياة نفسها بعطب شديد ، والواقع أن اطلاق سلطان العقل كان عاطفته الوحيدة التى يتحمس لها حماسة صادقة عنيفة ويغضب غضبا جائحا لكل حجر على هذه الحرية العقلية التى هى أعظم وأثمن ما يمتلكه البشر فى مواجهة الكون وغوامضه ٠ ومن هذا المنبع تفجرت طاقته الهائلة على السخرية بكل ما يخالف العقل والبداهة السديدة ويحارب هذه الرواسب والقيم المنافية للعقل بنقد شديد ، يخيل للناس فى أحيان كثيرة أنه يقطر مرارة ٠ ولهذا السبب أيضا لا يوجه اهتمامه الأدبى والفكرى لمظاهر الحياة البشرية السوية ، بل لموطن التعفن والخلل فى قدرة جبارة على التشريح والتجريح والهجاء ٠

وخلاصة جهاد يوناثان سويفت الأدبى والفكرى أنه طالب حقيقة ، شديد الحماسة مصر على تدمير سائر التمويهات الزائفة المضللة للحقيقة متجلدا فى سخط لجميع الويلات التى تصيبه فى هذه الحرب الضروس التى شنها شاملة فى جميع المجالات ضد سائر أنواع التضليل والتحيز والتدليس ٠ وهو يعتبر ذلك الجهاد الأمثل فى سبيل شرف الانسان باعتباره كائنا عاقلا ، لا يهدر شرفه شىء كما يهدره كل تكبيل وكل انحراف فى سلوكه عن سلطان العقل وكل تقييد لحرية ذلك السلطان العقلى الشامخ ٠

وفى كل مجال من المجالات يتخذ الكتاب الواحد من كتب يوناثان سويفت هدفا معينا وموضوعا محددا ولا يخرج على هذه القاعدة الا فى كتاب واحد هو بيت القصيد من هذه السطور ألا وهو « رحلات جليفر » ، ففيه يتسع هدف سويفت اتساعا غير مألوف لديه فهو دراسة السلوك البشرى من طرفيه المتناقضين ضآلة وضخامة ٠ وتبدو فيه فلسفة سويفت متداخلة فى نسيج العمل الأدبى مع شىء كثير من السخرية التى لا تبتعد عن صميم الواقع وهى تحلق فى عالم الأسطورة والخرافة متناولا

بالنقد والهجاء السلوك الاقتصادى والتفكير العلمى ومناهج البحث عن الحقيقة والتقدم الآلى وطموح البشر بجميع أنواعه ·

ومن أطرف عناصر رحلات جليفر بلا شك تصويره الساخر لعالم السياسة والملأ الأعلى من رجال السلطة والحكم وسيداته ، واللوالب الخفية الحقيرة غالبا التى تختفى وراء مظاهر الأبهة والشعارات الطنانة والمعارك السياسية الجادة · فاذا به يعرى أمجاد ذوى البأس والسلطان من طيالسها الخادعة ؛ ليعرضها لأنظار الناس هزيلة غير جديرة الا بالرثاء والازدراء ·

ولا يعفى من مبضعه الحاد وأنواره الكاشفة الفضاحة النظام الملكى عموما فى كل زمان ومكان ، وما يكتنفه من حياة الفساد والنفاق والدسائس فى البلاط وخيوط خفية تتصل فى نهايتها بأحط الشهوات وأرخصها متمثلة فى المحظيات والعشيقات · والى وسائل الرشوة والتحاسد والصغار فى الخصومة · وكيف يكتسى كل هذا الفساد الوبيل أمام الشعب المخدوع ببهارج براقة من المبادىء والخطب الرنانة فى المحافل ومنتديات الأحزاب ومجالس النواب ·

وكى يصل يوناثان سويفت الى هدفه العريض هذا ، ينقلنا بين عالمين متناقضين : عالم الأقزام وعالم العمالقة ، وبهذا التغيير الهائل فى « مستوى النظر » يتغير « المنظور » تغيرا شاملا · وهو اذ يبدأ بعالم الأقزام ، يمكننا من أن نرى أنفسنا فرادى وجماعات وقد تجردت التقاليد المرعية من قداستها المكتسبة فاذا هى على حقيقتها وهؤلاء الأقزام يمارسونها ، شىء سخيف مفرط فى السخف نستغرق منه فى الضحك وهو بعينه ما درجنا عليه فى حياتنا العادية ناظرين اليه بما يناقض الاستنكار والاستهجان ·

وحين ينتقل بنا الى دنيا العمالقة يكشف لنا عن همجيتنا ووحشيتنا، كما يكشف لنا أيضا عن ضآلتنا وغرورنا فيخرج المرء من الرحلتين وقد امتلأت نفسه بتفاهة شأن الانسان وتفاهة كل تلك النظم التى يستهول أمرها ويتناحر حولها ، وهو شعور يملأ الجوانح أسى واشفاقا وأسفا ·

ويضع جليفر أمام أنظار الانسان القدوة الجديرة به لا فى عالم من أقزام البشر ولا فى عالم من عمالقتهم بل فى أرض «الخيول الفيلسوفة» ، حيث نرى حياة الحيوان مثلا يحتذى للكائنات العاقلة المعقولة فهناك نجد السلوك السوى الذى نشدناه عبثا فى ممالك البشر على اختلاف أنواعها · فهذه الدواب ذوات الأربع تنظر الى جنسنا البشرى باحتقار وترى تصرفاته غير مفهومة ولا معقولة ؛ لأنها تصرفات خالية من الحكمة وليست لها غايات سديدة من مطالب الحياة الطبيعية · فحضارتنا البراقة بكل ما فيها من تقدم شىء جنونى لا تفقهه هذه الكائنات الحكيمة ·

حيـــاة ســـويفت

تجلى تفوق عقله حين بلغ الثالثة من العمر . وتجلى وهن جسمه فى نفس السن تقريبا فهو من بداية طفولته مصاب بدوار مستمر يعاوده .

كانت حياته كلها فى الواقع خليطا من المتناقضـات وبدأت هذه المتناقضات مع ميلاده ــ فمع أنه ولد لأبوين انجليزين،فقد ولد فى أيرلندا وقضى هناك معظم حياته . وبدا فى أخلاقه ذلك الأثر المزدوج : أثر أسلافه وأثر بيئته . فقد شب انجليزى العقل أيرلندى القلب . فقد أباه وسنه ستة شهور فاذا كان شهره الثانى عشر اختطفته حاضنته . فهى لا تكاد تسمع بموت عم لهما أخلفها تراثا فى انجلترا حتى تبحر فى سفينة دون أن تخطر سيدتها وأخذت معها على ظهر السفينة طفل سيدتها . ولم يعد جوناثان الى أمه الا بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث ، وكان الطفل قد قوى فيه حب كبير للانجيل وكلف شيطانى باللهو والمزاح .

وفى السادسة التحق بمدرسة كلكنى والتحق فى الرابعة عشرة بكلية ترنيتى بدبلن وهنا أظهر شغفا بالمطالعة وانتقاضا على النظام . ولم ينـل البكالوريوس الا بشق الأنفس ولكن حيـل بينه وبين درجة الأستاذية لخلافه مع مساعد العميد فعاد الى بلدته يجلله العار .

ولكنه وفق رغم ذلك فى الحصول على منصب سكرتير لسير وليم تمبل . وهو من أوساط الأدباء . وكان مستشارا مقربا الى ملك انجلترا وكان فيما يتناقل من لغط حاقد مريب الأب الطبيعى لجوناثان نفسه ، واتاح له المنصب عشرين جنيها فى السنة ومكانا على المائدة الثـانية مع الخدم . فغنى السكرتير الألمعى جيبا واضمحل شأنا . فأقام ينسخ أفكار سيده الشيخ غير الألمعى . فاذا فــرغ لنفسه ــ وقليلا ما كان يحــدث ذلك ــ نسخ خواطره بالشعر غالبــا .

سويفت أشهر نكرة فى عصره !!

ثم تغير عمل جوناثان سويفت . فقد رسم قسيسا فى قلعة دبلن . وسر القسيس الشاب بهذا الشرف الروحى . ولكنه ضاق بالمركز المادى فهو حين قرر العمل فى الكنيســة كان يتوق الى بلوغ قمة الكنيســة الانجليزية لا أن يكون فننا على فرعها الأيرلندى . ولكن أمنيته هذه العزيزة الوحيدة وهى بلوغ منصب مهم فى كنيسة انجلترا ، كانت الشىء الوحيد

الذى ينكره عليه رؤساؤه أشد الانكار · فذلك القسيس المجنون كما كانوا يدعونه له عقل زاخر بالمفاجآت وقلم ينبو عن التقاليد المرعية ، فهو لا يصلح زعيما من زعماء العقيدة المتعارف عليها فقد يلقى بأية قنبلة فى أية لحظة على عقيـدة اخوانه فى الكنيسـة · وكان الجميع وقتئذ يعرفون أنه قد كتب سخرية ببعض الطقوس الدينية فى أوربا ، وان لم يجرؤ على نشر ما كتب وقد أطلق على هذه السخرية (قصة البرميل) ·

وهذا العنوان كما ذكر فى المقدمة مأخوذ من بعض تقاليد البحارة فهم اذا قابلوا حوتا ، ألقوا بقارب خاو ليصرفوا الحوت عن مهاجمة السفينة وانه ليتبع نفس التقاليد فيلقى بهذه القصة ليصرف الكفار عن مهاجمة الكنيسة · ثم يمضى فى الكتاب فيبين كيف انحرفت المسيحية عن دين المسيح ويوضح رأيه بصـورة رمزية لأب خلف ثلاثة معاطف متسـاوية القيمة لأبنائه الثلاثة بطرس (الكنيسة الكاثوليكية) ومارتن (كنيسة انجلترا)وجاك (الكنيسة الكلوينية) وقال لهم الأب : هذه المعاطف ستحفظ عليكم جـدتكم وصحتكم ما حييتم فارتدوها الآن وأكثروا من العناية بها · كذلك أوصى بأن تعيشوا جميعا فى منزل واحد كما يعيش الاخوة · فانكم بذلك تستيقنون النجاح وتتقون الفشـل ·

وأخذ الاخوة الثـلاثة معاطفهم ــ كما يقول سويفت ــ وسرعـان ما نسوا وصية أبيهم وأخذ كل منهم يعدل فى شكل معطفه مرات حسب تغير النظر الى شكل الأزياء ·

وأخيرا نرى بطرس وقد زين معطفه بحشايا للكتفين وأشرطة ذهبية ورفوف مزركشة حتى اختفت معالم المعطف وصار الناظر اليه لا يتبين فيه المعطف الذى أعطاه اياه أبوه ، ثم يفترض بطرس بعد ذلك أنه ــ دون شريك ــ صاحب المعطف الحقيقى الوحيد ، ويعلن فوق ذلك أنه وحده يملك بيت أبيه · وسرعان ما يقذف بأخويه الى العراء ·

يقول سويفت : وعندئذ أعاد الأخوان الطريدان فحص وصية أبيهما (الانجيل) وحاولا أن يردا معطفيهما الى بساطتهما الأصلية المعقولة ·

ثم يختتم سويفت قوله بأن مارتن قد نجح فى المحاولة نجاحا لا بأس به : فقد انتزع من المعطف كل شىء لا ضرورة له ، ولم يحرص الا على استبقاء تلك الحلى التى تغنى فى تقوية الثوب أو اخفاء عيبه · وأما جاك

فاندفع منحمسا فى تبسيط المعطف بحيث مزقه وأحاله خرقة . فاذا أتى الناس ينظرون اليها ويضحكون منها .. كفى فان البقية لأغلظ من أن يسيغها الذوق الحديث .

ولم تنشر قصة البرميل الا بعد ان مضت على كتابتها عدة سنوات ونشرت بغير اسم المؤلف . وهذه القصة وان يكن المقصود بها أن تقدم تشبيها يظهر منه المؤلف فضل كنيسة انجلترا على غيرها ، فانها قد فشلت مع ذلك فى ارضاء مطارنة كنيسة انجلترا وكبار أساقفتها ، لقد ضحكوا من سخر سويفت بعيوب الكنائس الأخرى . لكنهم استشاطوا غضبا من اشاراته الى عيوب كنيسته . وقرروا أن هذا القسيس الشاب ستجنى عليه مهارته وأنه بحاجة الى أن يدارى والى أن يراقب .

ويلقى سويفت فى شيخوخته نظرة ذات يوم على بضع صفحات من قصة البرميل ثم يهمهم قائلا : « يا الهى يا لها من عبقرية تطامنت لى حين ألفت ذلك الكتاب ! » . فهذه هى مأساته التى جلبت عليه النحس . ان عبقريته أجل من أن يفهمها معاصروه فأوجست العقول الصغيرة خيفة من العقل الكبير وعمدت الى ابقائه أسيرا فى منصب مغمور بعد منصب مغمور : من كنيسة دبلن الى ابرشية ريفية فى لاراكور ومن كنيسة لاراكور يعاد الى كاتدرائية سانت باتريك بدبلن . ولكنه لا يمنح وظيفة مطران فى انجلترا أو حتى ايرلندا ولم يجرؤوا على أن يجاوزوا به وظيفة أسقف. لقد نال الدكتوراه فى اللاهوت وكسب صداقة أعظم الانجليز نفوذا . وتعشى مع رئيس الوزراء ولعب الورق مع وزير المالية . كل هذا ولا جدوى . وكلما طلب أن يعين فى أحد المراكز الهامة بالكنيسة قوبل طلبه برفض مهذب . لقد أوغل قلبه فى الضنى والضرم . وأرسل ملتمسه ذات مرة الى الملكة مباشرة .. وكانت نفس النتيجة السلبية . وظل سويفت الأسقف أشهر نكرة فى عصره .

ولكنه يحتفظ فى ذلك كله بمظهر البشر وتمتلىء أيامه بالنكات والضحك فيما خلا الدوار الذى كان يختلف اليه دائما . وكان يحب الناس فرادى وان أبغضهم جماعات .

رجل يعلو محياه البشر ، ويضطرب صدره غضبا كأنه الأتون . فهو يدرك تفوقه على زعماء زمانه . لكن كتب أن يمثل فى حضرتهم دور التابع . لقد قدم الى لندن فى وفد جاء يدافع عن شعب أيرلندا (ويدافع هو عن ترقيته) فقابل أكبر رجلين من ساسة انجلترا هما بولنجروك وهارلى .

وحاول جهده أن ينال لديهما مكانه فالمرء فى لندن يجب أن يتسلق بأطرافه الأربعة ؛ ولكنه ظل نديمهما الأثير وان كان يهرج بلا مقابل ويكتب لهارلى نشرات سياسية كما قد فعل ديفو من قبل،ولكنه يفترق فى أنه يرفض أن ينال جزاء مما كتب٠٠وصافحه هارلى ذات مرة فتمكن من أن يدس فى يده خمسين جنيها ٠ فألقى الكاتب الثائر بالورقة فى وجه هارلى وغادر الحجرة مغضبا ورفض أن يرى هارلى مرة أخرى حتى زاره هارلى فى منزله ليعتذر له بنفسه ٠

ان سويفت لا يبغى بعمله مالا ٠ بل يبغى وظيفة كبيرة ٠ وهذا ما عجز دائما عن بلوغه سواء من هارلى أو من سواه ، غير أن اقامته بلندن وان فشلت سياسيا فقد كانت نصرا فكريا ، فغدا سويفت الفارس المعلم فى مشارب لندن التى تجتمع فيها ألمع عقول لندن يوميا للتبارز باللسان وكان (الأسقف العجوز) أمهر المتبارزين جميعا ٠ وان لم يكن أكيسهم دائما ٠ كان يضرب ضربات عميقة حادة فاصلة ، وكان حديثه يخلو من كل بلسم ملطف حين يقصد الى الايلام حقا ٠ قال أحد كتاب سيرته : لم يتطامن لأحد ما تهيأ لسويفت من عظم حظه من العقل ٠ وقلة حظه من المرونة والكياسة ٠

كان ذهنه فذا فى الأذهان ولا يتلطف فى تمزيقه ذلك الطلاء الزائف الذى يخفى قبح الحياة ٠٠ وكان ساخرا قاسيا ينزل برواء الخيال الى سخف الواقع ٠

كذلك كان العميد سويفت ذلك المتهكم الوديع الرشيق العابس ذلك الأديب الذى يصفق لعبقريته والواعظ الذى يزدرى لصراحته والمعلم الذى يستشهد بأقواله فى كل مكان ولا يفهمه أحد ٠ عاد من انجلترا محملا بالتكريم دون أن يمنح منصبا ٠ انه لجبار عملاق مقيد بالأغلال فى أرض الأقزام ٠

★★★

أصبح العميد سويفت لا يؤدى من الطقوس فى أيام ميلاده غير قراءة ذلك الفصل من الانجيل الذى يلعن فيه أيوب يوم ميلاده ٠ انه ليزيد كل يوم زراية بالانسان وخدمة لبنى جنسه ٠ فهو يتحمس لتخفيف أعباء الأيرلنديين وهو يصليهم بلسانه حربا ويعانقهم بذراعيه حبا وغدت آلام ايرلندا شغله الشاغل فى شيخوخته وصار مطمحه الذى غلبه على

كل مطمح هو أن يخفف هـذه الآلام • حـدث مرة أن اقترحت الحكومة الانجليزية قانونا جائرا بالايرلنديين : فتحدى الظلم بسلسلة من الخطابات الشديدة المفحمة ؛ فاضطرت الحكومة الى سحب الاقتراح وهـذه هى الخطابات التى أمهرها سويفت بتوقيع م•ب درابير صاحب حانوت لبيع البضـائع الايرلندية والتى كسبت لسويفت شكران الايرلنديين وعرفانهم على مر الزمن •

وأصبح ذلك من مصادر مضايقته دائما فهو لا يحب تملق الجماهير لقد ساعدهم ـ كما قال ـ لا حبا لهم بل كراهة منه للعبودية • انه يعرف تلون الدهماء فهم مستعدون لأن يهللوا لجرأته فى النضال عنهم • لكن أتراهم يحركون اصبعا لانقاذه من مغبة جرأته ؟ وهو يروى قصة لتوضيح هذه الفكرة • كان أسبانى يهودى يسير الى الخازوق ومن ورائه جمهور متحمس من الأتباع ويخشى الصبية أن يحرموا المتعة اذا هو أنكر التهمة فهم يربتونه على ظهره صائحين مشجعين : « موسى أقم على ثباتك » •

وظـل سـويفت على ثبـاته رغم الصـبية الطائشـين والفضوليين الوحشيين فى العالم ، شديد الازدراء لوحشية الجنس البشرى فى حنثه بايمانه وانفعالاته وسخافاته واحتياله وحربه • كان يذهله عدم انسانية الانسـان نحو الانسـان •

بلغ سويفت الآن أعوام الحكمة البصيرة وقرر أن يضمن حكمته تلك الرحلات الخيالية ، رحلات جليفر ، وبعث بمخطوط القصة فى ٨ أغسطس سنة ١٧٢٦ الى الناشر (بنيامين موت) وأرسل مع المخطوط خطابا بتوقيع رينشارد سمبسون ، زعم فيه أنه ابن خال لمويل جلفر وقال : لقد ائتمننى مستر جلفر منذ بضع سنين على هذا المخطوط فى وصف رحلاته •• وقد عرضتها على الكثيرين ممن رزقوا القدرة على الحكم ووهبوا الامتياز • وقد تحسب اذا قرأت بعض أجزائها أن هنـاك شيئا من التهكم فى موضوع أو موضوعين • ولكن الرأى متفق على أنها لا تجرح أحدا • ثم يمضى مستر سيمبسون فى خطابه فيعرض مائتى جنيـه ثمنا للمخطوط فاذا لم يف المبيع من الكتاب بهذا المبلغ رد باقى المبلغ الى الناشر •

ونشر الكتاب فى خريف عام ١٧٢٦ ونفدت الطبعة الأولى فى أسبوع وضحك الجميع من ذلك الهجوم المرير الذى شنه جلفر على غبـاء الجنس البشرى الهمجى ، فقد حسب كل امرىء أنه ليس المعنى بهجوم الكاتب انما المعنى جاره • فوصل ألم الكاتب ذروة لم يبلغهـا من قبل • لقد فشل

فى تحقيق ما هدف اليه « أردت أن أغيظ الناس وأستثيرهم ، لا أن أرفه عنهم وأسليهم » . وقصة رحلات جلفر هى مغامرات رجل عاقل فى عالم مخبول ملىء بالباطل والزهو . ألا ليت العالم بدل أن يستمتع بعقلائه قد أتاح لهم أن يحكموه . اذن لقل الجشع وزادت الدماثة . وقلت الثروة الشخصية وزادت الأخوة بين الناس . وقلت القسوة وزادت الرحمة وقل البهرج وزاد المجد . وقلت الوقاحة وزادت الحكمة . كتب سويفت الى اسكندر بوب يقول : طالما حاولت أن أنشىء صداقة بين عقلاء الناس جميعا، وهم قل أن يزيدوا على ثلاثة أو أربعة فى كل جيـــل ولو أمكن اتحـــادهم لساقوا العالم أمامهم سوقا .

وقبل وفاته عام ١٧٤٥ كتب دعاء وجد بعد موته فى أوراقه التى لم تنشر « اللهم انك تهب نعمتك وتصب نقمتك كما يشاء عدلك ورحمتك اللذان وسعا كل شىء ... فوجه اللهم أفكارنا الى ما نصبوا اليه من نعيم واصرفها عن ذلك البوار الذى يفوق الوصف والذى نوشك أن نمنى به » . كان دائم التفكير فى هناء الانسان .. ذلك الســـاخر الذى واجـه بنى الانسان بالعواء والشحناء .

★★★

الرحــــلات

يصرح سويفت بأن غايته القصوى من كتابه (رحلات جليفر) فى العالمين الأكبر والأصغر وممالك شتى فى آفاق الأرض « أن يوبخ الناس ويقرعهم لا أن يسليهم ويرفه عنهم » . ولكن هذا العبقرى لم يبلغ غايته هذه من كتابه هذا . فقد شاء ما فطر عليه البشر من أنانية وقصر نظر أن يقلب هذه الغاية وأبى الناس منذ نشر الكتاب فى سنة ١٧٨٦ حتى اليوم ، الا أن يجدوا فيه مصدرا للتسلية والترفيه لا يقفان عند حد ، ولم يلتفتوا الى ما فى الكتاب من زجر وتقريع وتعنيف .

وظلت الأجيال من الكبار والصغار تقبل على رحلات جليفر بروح الاستمتاع على مستويـــات مختلفة ، أما الدرس والاعتبـــار فلم يغيرا من طبيعتهم كثيرا ولا قليـــلا .

ويبدأ الكتاب على لسان جليفر فيروى طفولته ونشأته واحترافه الطب والجراحة آخر الأمر ، وركوبه البحر على متن السفن طبيبا لركابها في رحلاتها الى المشرق • وفى سنة ١٦٩٩ كانت تمخر السفينة البحار الجنوبية عندما ارتطمت بصخرة فانشقت • وظل جليفر يسبح على غير هدى ودفعه المد واتجاه الريح حتى مست قدمه الأرض فى ظلمة الليل وارتمى على شاطىء مجهدا واستغرقه النوم حتى الصباح • وحين أيقظته حرارة الشمس هم بالنهوض ، فاذا هو مقيد الى الأرض وهم بتحريك رأسه فوجدها مشدودة الوثاق أيضا وأحس شيئا يتحرك باطف فوق ساقه ثم فوق صدره فحرك عينيه الى أسفل ولم يلبث أن تبين مخلوقا بشريا لا يبلغ ارتفاعه ست بوصات (١٥ سنتيمترا) ، وفى يده قوس ونشاب، ثم شعر بعدد آخر من نظرائه يزحفون فى أثره وبحركة عنيفة تمكن جليفر من تحطيم قيود ذراعه اليسرى ؛ ولكن هذه المخلوقات الصغيرة تمكنت من الفرار قبل أن يقبض عليها فى راحة يده وأحس بمئات السهام ترشق فى يده اليسرى فكان لها وقع كوخز الابر • وظل يئن أسى وألما الى أن أقدم بعضهم على قطع الحبال التى تقيد حركة رأسه وعندئذ استدار قليلا وأبصر شخصا يبدو زعيم القوم يلقى عليه حديثا طويلا لم يفهم منه شيئا • وحاول جليفر بالاشارة أن يفهمه مبلغ ما يحسه من الجوع • ففهم الزعيم مراده وسرعان ما جىء بسلالم كثيرة ألقيت على جانبيه وصعدها مئات من هؤلاء الأقزام محملين بالطعام والشراب فيصبون سلالهم ودلاءهم وقربهم فى فمه !

ويبدو أن رسالة سريعة وصلت امبراطورهم بمجرد اكتشافه نائما على الشاطىء واجتمع مجلس البلاط وقرر العناية بتغذيته وتأمين سلامته ونقله الى العاصمة • ولهذا الغرض مزجوا الخمر التى صبوها فى فمه بمخدر فاستغرقه النوم كرة أخرى • ولاحظ جليفر أن هؤلاء القوم وصلوا الى مستوى رفيع من الاتقان الآلى ؛ فاستطاعوا بواسطة الحبال والبكر أن يرفعوه فوق آلة ضخمة فى زمن لا يزيد على ثلاث ساعات • وهذه الآلة معدة لنقل الأشجار الكبيرة وغيرها من الأحمال الثقال • وشد الى المركبة العجيبة ألف وخمسمائة جواد من أضخم جيادهم • ويبلغ ارتفاع كل منها نحو أربع بوصات ونصف (١٠ سنتيمترات تقريبا) ، وتولت جره الى العاصمة حيث حبسوه مقيدا بالسلاسل • وحضر الامبراطور لمشاهدته وعقد البلاط جلسات كثيرة احتدمت فيها المناقشات حول خطورة حجمه ، وما يترتب على تحطيمه لأغلاله واحتمالات المجاعة التى قد تنشأ عن الاحتفاظ به • بيد أن وداعة جليفر طمأنت بالهم وتوثقت الألفة بينه وبين الامبراطور • وأخذ يدرس أحوال هذا الشعب السياسية والاختلافات

التافهة بين مبادئها · فهناك مثلا خلاف حول ارتفاع كعب الحذاء · وهناك أيضا عداء بين جزيرة ليليبوت هذه وجزيرة بليفكسكو التى أعدت أسطولا للغزو · وأراد الامبراطور أن يستغل ضخامة جليفر فى سحق أعدائه فأطلقه وخاض ماء البحر الذى وصل الى ركبتيه ثم شرع يحطم أسطول الأعداء أو يأسر سفنهم ويعود بها الى حلفائه · وطمع الامبراطور فى استخدام جليفر لغزو هؤلاء الأعداء واحتلال بلادهم واستعباد أهلها ؛ فرفض جليفر أن يكون أداة لهذا الغرض الهمجى · فغضب الامبراطور وأخذ يدبر المكائد للانتقام منه وفطن جليفر الى الحقيقة فقرر الرحيل الى جزيرة الأعداء ومن هناك أعدوا له الوسائل للاقلاع عائدا الى بلاده ، وأعطوه ألوفا من أغنامهم وأبقارهم التى يشبه حجمها النمل الكبير · وأخذ معه أنواعا من الطرائف فى دقة حجمها وخصوصا من الكائنات الحية والمصنوعات المستخدمة فى الحياة اليومية والفاكهة ، على أمل أن يربى سلالات من الأغنام والماشية والخيل فى قريته وأصر الملك على تفتيش جيوبه بدقة شديدة خشية أن يخفى فيها بعض رعاياه !

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام ، لمح على البعد شراع سفينة انجليزية فظل يصرخ ويلوح وأخيرا أبصره الربان وانتشله ، بعد أن وضع جليفر فى جيوبه جميع أبقاره وأغنامه · ولكن فيران السفينة الانجليزية كانت تفترس أبقاره ·· !!

وبعد اقامة وجيزة فى انجلترا مع زوجته وأسرته عاوده الشوق الى المغامرات والأسفار ؛ فاستقل سفينة تجارية كبيرة متجهة الى الشرق أيضا · وبعد أن اجتازت السفينة مضيق مدغشقر هاجمتها الرياح الموسمية وضلت طريقها ونضب الماء العذب فنزل مع بعض البحارة الى أقرب جزيرة للبحث عن الماء · وظل يسير مقدار ميل على غير جدوى ثم هم بالعودة فأبصر رفاقه البحارة فى زورقهم يجدفون بهمة ، عائدين الى السفينة ومن ورائهم مخلوق هائل يخوض الماء الى ركبتيه فى أثرهم ·

وهكذا وقع جليفر فى أسر أهالى بروبدنجناج العمالقة الذين اجتمعوا حوله يتلهون به ويدفعونه بين السبابة والابهام ؛ ليتأملوه عن قرب وكأنه نوع غريب من الحشرات !

واحتفظ به صاحب الضيعة الذى أسره وفرحت زوجته بهذا المخلوق الصغير بعد أن صرخت لأول وهلة كما تصرخ سائر النساء لمنظر شىء يحسبنه فأرا · وزاد افتتان الزوجة به حين رأته يحسن الانحناء ويعاملها

بآداب المجتمع الراقى ، ويستخدم الشوكة والسكين اللتين كان يحملهما فى جيبه • ولم يجد جليفر عنتـا الا من ابن ذلك المزارع وهو غلام فى العاشرة مدلل يعامل الحيوانات بقسوة • أما طفله الصغير الذى لا يتجاوز عمره العام فكان يعتبره دميته المفضلة • وفى الليل نام على وسادة صغيرة فى فراش الزوجين الضخم وهاجمه فأران فى حجم كلاب الصيد عندنا ولولا براعتـه فى اسـتخدام خنجره بحيث جرح أحـدهما فلاذت الفيران بالفرار لنهشته بسهولة •

وفكر المزارع فى اسـتغلال جليفر تجاريـا فراح يطوف به الموالد والقرى والمدن ويجتمع الناس لمشاهدته فيعرض عليهم ألعابه ؛ حتى جمع الرجل ثروة كبيرة وهزل جسم جليفر من شدة الارهاق فباعه الرجل للملكة بألف قطعة ذهبية • وهكذا صار مهرج الملكة القزم واستطاع أن يرى دخائل حيـاة البلاط عن كثب لسـهولة اختفـائه تحت الكراسى وخلف الستائر وقضى هناك ثلاث سنوات • وفى بعض الرحلات التى قام بها البلاط حملته الوصيفة فى صندوق صغير خاص كأقفاص الطيور عندنا • وغفلت عنه الوصيفة على الشاطىء فحمله نسر هو وقفصـه ووقعت بين النسور معركة على هذه الفريسة فسقط الصندوق فى البحر وتقاذفـه الموج ، الى أن انتشلته سفينة انجليزية مارة من هناك فأعادته الى انجلترا ، حيث أقسمت زوجته ألا تدعه يركب البحر بعد ذلك • ولكن قبل انقضاء عشرة أيام زاره ربان كبير المقام وظل يغريه حتى قبل العمل طبيبا وجراحا على سفينته المتجهة الى جزائر الهند الشرقية • وهكذا بدأت رحلة جليفر الثالثة الى ممالك كثيرة فى الشرق الأقصى حتى وصل الى اليابان وأحاط بعادات أهلها وشرائعهم •

أما رحلته الرابعة فهى التى صار فيها ربانا للباخرة وفى مجاهل البحر ثار عليه البحـارة وحبسوه فى قمرته مدة طويلة ، ثم تركوه على شاطىء جزيرة مجهولة وسكانها هـــم « الخيول الفيلسوفة » وتعــرف عاداتهم وأحوال معيشتهم • وحاول آسره أن يعلمه لغتهم ، ثم بدأ يلقنه مفهوم الحق والباطل والصواب والخطأ فى نظر هذه السلالة من الخيول الحكيمة ويبدى اعتراضه ورفضـه للمفهوم البشرى لهذه المعانى • ثم يتطرق الحـوار الى مناقشـة أحوال الحضـارة الأوربيـة وأنظمة الحكم والدستور الانجليزى وسمات رؤساء الوزارات ، ومن خلال هذه المناقشات تبرز حـكمة هذه الحيوانات أرجح فى مواطن كثيرة من سـلوك البشر المتحضرين فى دول الغرب المتقدمة •• ويفيض جليفر فى فضـائل هذه

الحيوانات وأساليبها فى تربية الأحداث ، ونظم السياسة والحكم لديها وسائر عاداتهم فى أحوال المعاش المختلفة بما فى ذلك أسلوب البناء وشعائر الدفن . ويطنب فى وصف سعادته بين ظهرانيهم وتقدمه فى المنطق والفضيلة؛الى أن طلب اليه أن يغادر بلادهم وزودوه للسفر فارتحل حزينا على فراقهم الذى جاء على كره منه . ولولا ذلك لآثر البقاء .

★★★

الرسائل

فولتير

١٧٣٢ م

فولتير .. خلاصة حياة عصر ! !

استهل الكاتب البريطاني المؤرخ النقادة توماس كارليل مقاله اللامع الشائق عن الكاتب الفرنسي الشهير فولتير بقوله : « لو قدر للطموح أن يختار طريقه ، وللارادة في المحاولات الانسانية أن ترادف الموهبة لكان كل الرجال الطامحين حقا من رجال الأدب » .

وفي موضع آخر من المقال نفسه يقول : « اذا استثنينا الراهب لوثر صاحب البروتستانتية ؛ فانه ليس هناك أحد من رجال الفكر في العصور الحديثة قد صار تأثيره وشهرته أوربيين خالصين مثل فولتير » .

والواقع أن فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ، قد بلغ في عصره من الشهرة الواسعة والمكانة المرموقة العالية ما لم يبلغه كاتب قبله أو بعده ، حتى أصبح علما على عصره ورمزا له وليس في مستطاع انسان أن يتصور القرن الثامن عشر بدون فولتير وتأثير فولتير .

وقد كتب عن فولتير من زوايا عدة وتناقضت الأحكام في تقدير أدبه ومنزلته بين كبار المفكرين ولم يكن هناك مناص من ذلك ؛ فقد كان الرجل متعدد الجوانب وتناول في حياته موضوعات شتى وكان هو نفسه يكاد يكون خلاصة حياة عصره .

★★★

ووصفه فيكتور هوجو فقال : « ان ذكرت اسم فولتير فقد ذكرت أخص مميزات القرن الثامن عشر من أوله الى منتهاه » وقد اختصت ايطاليا بعصر النهضة ، واختصت ألمانيا بعهد الاصلاح اللوثري ؛ ولكن فرنسا اختصت بفولتير فقد كان يضم في برديه النهضة والاصلاح ونصف الثورة الفرنسية ، كما كان يجمع بين شك « مونتاني » وسخرية « رابليه » .

ووصفه لامارتين فقال : « ان الأقدار قد وهبته عمرا قد جاوز الثمانين ، فاستطاع أن يقضي على فساد عصره وقد مكنه عمره الطويل أن يحارب الزمن فلما سقط في حومة الوغى كان سقوطه سقوط الظافر المنتصر ... » . ويوم وقعت عينا لويس السادس عشر ـ وهو في سجنه ـ

على مؤلفات فولتير وروسو قال : ان هذين الرجلين قد أوديا بفرنسا ٠٠ وهو يقصد بفرنسا أسرته هو بالطبع ٠

ومن مأثور أقوال فولتير : « ان الكتب تحكم العالم أو على الأقل تحكم الأمم ذوات اللغات المكتوبة ٠ أما ما سواها فلا تدخل فى الحساب ٠٠ » ٠

مولد فولتير ونشـأته :

ما من رجل علم الكثيرين من معاصريه ومن بعد عصره أن يفكروا وأن يستغلوا قواهم العقلية مثل فولتير ، وما من قوة استطاعت أن تطفىء ذلك الضياء الذى انبثق فى أنحاء أوربا نتيجة لتعاليم فولتير والذى لا ينفك يتألق فى سمائها ٠

ولقد كان أولئك الذين لا يحبون أن يفكر الانسان لنفسه والذين يحبون أن يظل العقل البشرى جامدا يقولون ان فولتير رجل شاذ ؛ لأنه كان يصر على أن من حق الانسان أن يشك فيما لا يستطيع أن يؤمن به ٠ والذين لم يطالعوا حرفا واحدا مما كتبه فولتير يؤكدون أنه كان رجـلا ملحدا ، على أن شعر فولتير كان خير جواب على هذا الاتهام ــ وان كان لم يعن بتوجيهه الى هؤلاء القوم وانما كان يتوسل به الى الله ــ انه يقول :

يا الهى الذى لا نراه والذى تعلن عن وجوده أعماله ٠
يا الهى استمع الى كلماتى الأخيرة ٠
اذا كنت قد أخطأت فانما كنت أبحث عن قانونك ٠
وقد يضل قلبى ولكنـه عامر بك ٠

وما كان هذا الحادا ولكنه نداء قلب خاشع مستكين وما تهجم فولتير على عقيدة دينية ؛ ولكنه كان يسخر من الأضاليل المبتـدعة التى لا تمت الى العقائد بصلة ٠

ولد الطفل الذى يدعى بعد ذلك باسم فولتير (وهو الاسم الذى عرف به فى كتاباته) فى مدينة باريس يوم ٢١ نوفمبر من عام ١٦٩٤ وسمى فرانسوا ــ مارى أروا وتوفيت أمه بعد سبع سنوات من ولادته وكانت صحته منذ بداية عهده فى هذه الحياة سيئة ، ولم يستطع على مر الأيام أن ينفض عن نفسه هذا الاعتلال الصحى ، كان طفلا نحيف الجسم ذا ابتسامة شيطانية شديد الجاذبية وله ولع غير طبيعى بدروسه ٠

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره أعلن أنه اعتزم أن يصبح من رجال الأدب وكأنما كان المداد يجرى فى عروقه ، فقد كان الشعر والمسرحيات تتدفق منه فى غير توقف ٠

وكان أبوه رجلا من الطبقة المتوسطة يقترب قليلا من طبقة الأثرياء وكان طموحا من الوجهة الاجتماعية ، وأراد أن ينقذ ابنه من حياة مهينة حين دفع به الى مكتب محاماة ولكن الشاب فولتير أظهر فشله فى هذه الناحية فالحقه أبوه بالسلك السياسى وبعث به الى هولندا وسرعان ما حطم أول قاعدة فى عمله السياسى حين فر مع فتاة فعاد الى وطنه يحمل هذه الوصمة ومع هذا فقد كان لا ينفك يريد أن يكتب وصاح أبوه فيه : « انك بالكتابة ستموت جوعا » وكأنما أراد أن يساعد القدر فى مهمته ، فحرم ابنه من الميراث ، وسرعان ما خاب تنبؤ أبيه ففى خلال عشر سنوات نجح فولتير نجاحا ماليا فاق أحلام أى شاعر ٠

ولقد كان من أكبر عوامل نجاح فولتير ما عمد اليه الرقيب من مصادرة كل كتب فولتير تقريبا وما اتبعه رجال الشرطة من وقف تمثيل مسرحياته فى الليلة الثالثة من عرضها ؛ وكان من نتيجة ذلك أن كانت المسارح تغص بالباريسيين فى ليالى الافتتاح ، وان كتبه كانت تباع وتقرأ كأنها مطبوعات صادرة من مؤسسة تختفى تحت الأرض عن أعين الرقباء وتسربت الكتب الى الأقطار المجاورة فطبقت شهر فولتير هذه الآفاق الجديدة٠وكانت التهمة الرسمية الملصقة به أنه يفسد الأخلاق والمبادىء العامة ، ولكنها لم تشر أية اشارة الى الخروج عن الآداب كأن المبدأ وقتذاك أن التهجم على الحكومة وانتقاد أعمالها يعد من أسوأ ضروب (المنافاة للشرف والآداب) ٠ ومسرحيات فولتير قد وضعت على أنها وقعت فى بلاد الفرس واليونان وبيرو والصين الا أن كل انسان كان يدرك المعانى المزدوجة وما بين السطور ويضج بالضحك الساخر ، والضحك شعلة لا تستطيع الحكومة أن تعمل على اطفائها ولم تملك الحكومة الفرنسية الا أن تتبع مع فولتير طريقة استبدادية تعسفية فأودعته سجن الباستيل، ولم تكن الحكومة فى ذلك العهد ملزمة أن تثبت التهمة ضد انسان لكى تودعه السجن ، فقد كان حسبها مجرد الشك والاشتباه ويبقى الانسان فى السجن دون أن يفرج عنه الا اذا كان له أصدقاء أقوياء يبذلون جهودهم ونفوذهم فى اخراجه ، وقد مكث أصدقاء فولتير أحد عشر شهرا حتى استطاعوا الافراج عنه بعد أن ازدادت صحته سوءا وضعفا وبعد أن أصبح أشد ضراوة وخطورة ، الى حد أن أحد النبلاء السخفاء ويدعى الشيفالييه دى روهان وجه اليه كثيرا من الاهانات قابلها فولتير بما عهد فيه من السخرية اللاذعة فلم يسع الشيفالييه الا أن يسلط عليه بعض خدمه لضربه والشيفالييه يدير حركة المعركة وهو جالس فى مركبته !

وكان فى استطاعة فولتير أن يحتمل ما يحيق به من ظلم وعسف أما ما ينال الآخرين منهما فلا يستطيع احتماله ·

حين كانت أعظم ممثلات فرنسا،أدريين ليكوفريه،تحتضر كان فولتير قابعـا الى جانب فراشها يستمع الى حديثها وهى تقص عليـه كيف أن القسيس قد طلب منها أن تعلن أن فنها التمثيل هو عمل معيب وكيف أنها رفضت هـذا المطلب رفضـا باتا ؛ فتركها القسيس دون أن يمنحها الغفران الدينى ولما ماتت هذه الممثلة العظيمة أسرع رجال البوليس بجثتها ودفنوها فى حفرة وأهالوا عليها الجير الحى ·

منذ ذلك اليوم طوى بين جوانحه كراهية متأججة لا للدين المسيحى كمـا زعم البعض زورا ، بل للقسوة التى تتنـافى مع الدين السمح سواء أكانت هذه القسوة فرنسية أم غير فرنسية ، وسواء أكانت صادرة من الكاثوليك أم البروتستانت وكان يقول : « ان الرجل الذى يقول لى : اتبع عقائدى والا حلت بك لعنة الله ، سيقول لى بعد ذلك : اتبع عقائدى والا قتلتك » ·

ورجـل له مثل هذا اللسـان ، لا يمكن أن يكون فى مأمن فى بعض الاقطـار حتى فى عصرنا الحالى ؛ ولهذا فسرعان ما أودع فولتير سـجن الباستيل للمرة الثانية ثم أطلق سراحه حين وعد بمغادرة فرنسا وأبحر الى انجلترا وهو متلهف القلب فوصل لندن عام ١٧٢٦ وقد تأثر أبلـغ التأثير حين شـاهد جنازة السير اسحاق نيوتن العالم الشهير فلم يعتـد فولتير أن يرى حكومة فرنسا تبدى مثل هذا التقدير العظيم الذى أبدته الحكومة الانجليزيـة والشعب الانجليزى عند وفـاة عالم مثـل نيوتن والاحتفال بجنازته ودفنه فى هذا الاحتفال الضخم ، كذلك أدهشه فى انجلترا ما يسبغه الشعب الانجليزى على شعرائه من التعظيم والاجلال ، وما فى مجلس العموم البريطانى من القوة والاستقلال فى الرأى وأكثر من هذا وذلك ما رآه رأى العين من عدالة القضاء الانجليزى ·

وفى عام ١٧٢٩ ، وكان فولتير قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، تسلم تصريحا من الحكومة الفرنسية بعودته الى فرنسا ولم ينقض وقت طويل حتى ندمت فرنسا على هذا التصريح الذى منحته الى فولتير ·

واستطاع فولتير بما اكتسـبه من الخبرة التجارية مدة اقامته فى انجلترا أن يشتغل بتصدير البضائع الى أمريكا والهند وغيرهما من أقطار العالم فعادت عليه هذه التجارة بثروة جعلته من الأغنياء وكان بطبيعته

يحب حيـاة الرفاهية ، ومكنته ثروته من الاستمتاع بها وارتداء الثيـاب الأنيقة واقتناء المركبات ، وراح يدعو غيره من النـاس الى الاستمتاع ما وجدوا الى ذلك سبيلا ، فقد كان فولتير يحس بما يعانيه الناس من الشقاء والتعاسة ، بيد أن فولتير كان له من الآراء الأخلاقية ما هو أنبل من آراء ناقديه : لقد كان يرى أن الانسان قد خلق حرا طليقا ومسئولا عن أعماله وأن ضميره وحده هو الذى يتولى الحكم على عمله كمـا قال فى شعره :

اذا كان الانســـان قد خلق حـــرا
فلـــه وحـــده أن يحـكم نفســـه
واذا حكمـه جبـابرة ظالمون فعليـه
أن ينتزعهم من فـــوق عروشـــهم ٠

وكان فولتير يهاجم هذه المساوىء بذكائه ونبوغه هجوما عنيفا وكان يقول : « ان تجارتى هى أن أقول كل ما يجول فى ذهنى » وما جال فى ذهنه احتواه ٩٩ مجلدا ٠ قال كل ما اضطرب به جنانه فى مسرحياته وفى شعره وفى روايـاته وفى نشراته وفى مقـالاته وفى رسـائله التى بلغت ١٠٫٠٠٠ رسالة بعث بها الى مشاهير القوم فى جميع أنحاء أوربا ٠ ومن بين هؤلاء كاترين الثـانية قيصرة روسـيا ، التى بعثت اليه بهدايا عظيمة والملك كرستيان السابع ملك الدنمارك وجوستاف الثالث ملك السويد الذى وعد أن ينفذ ما أشار به فولتير وأنه سيحاول أن يرتفع بحياة قومه الى المستوى الانسانى ولم يستطع فريدريك الكبير حين كان وليا للعهد أن يغرى فولتير بالقدوم الى بوتسدام ؛ فرحل اليه متنكرا ليقدم اليه فى باريس فروض الاجلال ٠

على أنه جاء وقت على فولتير كان يتنقل من مكان الى مكان مختفيا عن الأنظار وعن العيون التى كانت تترقبه للقبض عليه ، وكان يضطر أحيانا الى الفرار من فرنسا الى الأقطار الأجنبية : فقد كان كل كتاب جديد يحدث انفجارا جديدا من الحقد والسخط عند أولياء الأمور ويصـبح الكتاب أو صـاحبه فى مأزق حرج ، وكان من أثر ثورة حكومة فرنسـا على كتب فولتير أن وجدت هذه الكتب طريقها الى الأقطار الأخرى ٠

بعد ذلك بادر بقبول دعوة فريدريك الأكبر التى ظلت قائمة وكان كل من فريدريك وفولتير يتبادل الاعجاب مع صاحبه منذ شبابهما وكان كلاهما عنيدا شديد المراس أنانيا قويا ماهرا ذكيا ٠ ولما وفد فولتير الى

بروسيا وجد الملك أن ضيفه الشهير لا يمكن أن يقبل دور النديم كذلك ثارت ثائرة فولتير على الروح العسكرية السائدة هناك وسرعان ما وقع الشقاق بينهما ؛ فوجد فولتير نفسه فى الطريق الى خارج البلاد واذا به يجد كل حدود أوربا مغلقة فى وجهه بفضل نفوذ فريدريك الأكبر ٠

وفى عام ١٧٥٥ وجد الفيلسوف الكهل ملجأ له وملاذا فى جمهورية جنوا الصغيرة وهناك ابتاع دارا أمها كل رجل عظيم فى أوروبا استطاع أن يقوم بالرحلة اليها وفى هذه الدار كان فولتير يستقبلهم استقبالا حافلا ، وفى عينيه الخابيتين بريق وعلى وجهه المجعد ابتسامته القديمة الخبيثة وكان يحتسى القهوة بشراهة ويحادث ضيوفه أشهى الأحاديث وكان الضيوف يجيئون لقضاء ثلاثة أيام فيمكثون ثلاثة شهور ٠

وكان بره بالناس أقل علانية من ضيافته وكان الكثيرون من الفقراء أو المضطهدين دينيا أو سياسيا يقدمون اليه ويفدون عليه طلبا لنجدتهم ، وبدأ فولتير تشييد دور لهم حتى أصبحت ضيعته قرية صغيرة فشيد لأهلها كنيسة ومدرسة لأطفالهم ، وعهد اليهم بالأعمال التى يستطيعون أداءها ، وكان أغلب هؤلاء اللاجئين من صناع الساعات السويسريين ، وسرعان ما وجد فولتير نفسه صاحب تجارة ساعات رابحة ٠ فكان يبيع ساعاته أقل من غيره بمقدار ثلث الثمن ٠ وكان يرسل رسالة شخصية مع كل طلب ، ومثل هذه الرسائل أغلى وأقيم من كل الساعات التى أنتجها ٠

وكان فى الامكان أن يعيش فولتير فى سلام ودعة بعد أن أصبح واسع الثراء ؛ ولكن أشد معاركه المريرة وأعظم أعماله جميعا كانا عام ١٧٦٢ حين قام المتعصبون الدينيون فى مدينة تولوز باحتفالاتهم لانقضاء مائتى عام على ذبح ٤٠٠٠ مارق من الدين وفى ذلك الوقت وجدوا شابا مشنوقا فى بيدر (جرن) وذاعت الاشاعات ان هذا الشاب كان بروتستانتيا وأراد أن يصبح كاثوليكيا ونشر المتعصبون الدينيون أن والد هذا الشاب وهو كهل فان هو الذى شنق ابنه الشاب القوى ، وبعد ضروب من التعذيب الرهيب لم يعترف المسكين بشىء وامتدت يد القانون بالانتقام من جميع أفراد الأسرة ٠

ولما اهتم فولتير بهذه القضية بدأ يكشف عن الطبيعة المرعبة للقانون الجنائى كما يطبق فى فرنسا ، بل وفى كل البلاد الأوربية ما عدا انجلترا : لم يكن هناك محلفون ولا يسمح للمتهم بالاستعانة برجال القانون

ولا يسمح له بتقديم أية بينة فى مصلحته والذين يقدمون الاتهام يقدمون شهادات سرية ويقيم القضاة من أنفسهم نوابا · وعلم فولتير الى جانب كل ذلك أن مواد القـانون الجنـائى ليست كلها مكتوبة ، بل كانت فى رؤوس القائمين بالمحاكمات و « تترجم » كما يحلو لهم لاثبات الاتهام ولم يكن هذا بالأمر الجديد ، بل كان متبعا منذ العصور المظلمة · ولم يكن الأغنياء الممتـازون يعرفون شيئا عن هذا القانون ، وكانوا يحسبون أن الفقراء والمساكين الذين يعاقبون انما هم يستحقون هذا العقاب حقا ·

واندفع فولتير بكل قوته ونبوغه فى الهجوم على رجال القـانون ورجال الكنيسة والملوك وجميع الصحف الأوربية ، يطالبهم جميعا باعادة التحقيق فى تلك القضية ولم يسع الملك الا أن يخضع للجماهير التى أثارها فولتير خلال ثلاث سنوات قضاها فى هجومه لم يهدأ له بال ولم تغمض له عين ولم تبتسم له شفاه وأعيد التحقيق فى القضية وثبتت براءة الأموات والأحياء·وأرادت محكمة تولوز أن تمحو هذه القضية التى وصمتها بوصمة العار من سجلاتها وأعيد النظر فى قانون الجنايات الذى ظل ٨٠٠ عام لا يفـكر أحد فى دراسته وكان كل ذلك بفضـل ذلك الرجـل الكهل « فولتـير » ·

وما كاد يصدر الحكم بالبراءة فى تلك القضية ، حتى هرع كل مظلوم فى القضايا القديمة الى فولتير فانطلق يكشف عن المآسى الرهيبة والمخازى ولا يهدأ له بال حتى يجرى العدل مجراه ، وراح يطالب بابعاد الدين عن السـياسة وعن القـانون وأن يعكف رجال الدين على الأعمال الدينيـة والروحيـة التى طال اهمالها · وظل فولتير فى حملته يفسر الفرق بين مخالفة القانون وبين الخطيئـة ويقول ان الله سيعاقب مرتكب الخطيئـة اذا أراد أما من ناحية القانون « فاننا نحب القوانين ويجب أن نكون فى خدمتها وأن نحمل كل أعبائها وكل من ينتهك حرمة القانون يكون انسانا لا يحب وطنـه » ·

وجاء يوم اشتد فيه حنين فولتير الى وطنه وعظم شوقه الى رؤية باريس قبل موته ، وفى أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٧٧٧ وقفت مركبة أمام ضابط الجمارك الذى أراد أن يرى هل تحمل هـذه المركبة أشياء ممنوعة واذا به يسمع ضحكة خفيفة وصوتا يقول له : « لا شىء ممنوعا داخل المركبة عداى » وبادر الضابط وفتح باب المركبة وصاح : « يا الهى انه مسيو فولتير ! » ، لأن تلك الابتسامة المغضبة كان يعرفها الملايين الذين لم تقع أنظارهم على شخص فولتير ·

واستقبلته باريس استقبالا رائعا ، وفتحت الأكاديمية الأهلية التى حاربته طويلا ذراعيها لذلك الأديب الثـائر العظيم واصطف كل موظفى مسرح « الكوميدى فرانسيز » أمام الباب لتحية المؤلف المسرحى العظيم ٠

وقضى هذا الأديب الثائر نحبه وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وكان ذلك فى مايو عـام ١٧٧٨ وكانت آخر كلمـاته التى أملاها على سكرتيره هى :

« اننى أموت وأنا أعبد الله وأحب أصـدقائى ولا أكره أعـدائى وأزدرى الخرافات » ٠

وكان خير جزاء ناله فولتير حين قامت الثورة الفرنسية وأخرج الناس جثته ووضعوا نعشه فوق أنقاض الباستيل مدة ليلة ، فقد كان ليديه الضعيفتين الفضل فى القضاء على هذا السجن العتيد الرهيب ٠

★★★

فولتـــير المـــؤرخ

ولقد كان فولتير من أشد المهتمين بالتاريخ فكتب فيه لكن بعين الفيلسوف لا بعين المؤرخ التقليدى الذى يقتصر التاريخ بالنسبة له على مجرد سرد الحوادث وتوخى الدقة فى التأريخ لها والالمام بتفصيلاتها ، فلقد كان التاريخ الانسانى بالنسبة لفولتير وحدة واحدة ينظر اليه ككل ويرى أن جوهره هو التقدم المطرد الذى يحققه الانسان فليست فى التاريخ معجزة لا يمكن تفسيرها ؛ لأن ثمة عوامل ثلاثة تؤثر على فكر البشر ومن ثم على صناعتهم لتاريخهم هى المناخ ونوع الحكم والدين ٠ وان وضعنا هذه العوامل فى الاعتبار استطعنا تفسير لغز هذا العالم ، فان انتصارات البشرية على الأشياء وتناحر الجماعات البشرية وتقدم الأخلاق والعلوم والفنون كل هذا جرى بصورة طبيعية ، وكل هذا سيستمر متزايدا كلما توسع أفق العقل البشرى وكلما أحـرز قدرا أكبر من التقـدم العلمى والصناعى والفنى والأخلاقى والسـياسى مما يتناسب أكثر مع حاجات الانسانية لا فرق فى ذلك بين انجـازات أمم الشرق القديم وانجـازات الغربيين المحدثين ، الا فرقا فى درجة التطور الذى وصلنا اليه وزيادة كم الاكتشافات والمخترعات التى ساهمت فى السيطرة أكثر على الطبيعة ، وفتحت الآفاق بصورة أكثر اتساعا أمام الانسان ٠

وهكذا تبلورت لدى فولتير نظرية فى تفسير التاريخ هى ما يمكن أن نطلق عليه نظرية التقدم ، وهى نظرية تركز ــ كمــا اتضح لنا ــ على الانجازات العقلية للبشر وتتبع تطور هذه الانجازات فى مختلف الميادين فالتاريخ بالنسبة له خط مستقيم سار فيه جميع البشر منذ الأمة المصرية القديمة والى اليوم وكل الأمم ساهمت فى صنعه بأقدار متفاوتــة وعلى حساب ما تمتاز به شعوبها ٠

★★★

الخطابــــات الفلســفية

فى عام ١٧٣١ قضى على فولتير أن ينفى مرة أخرى ٠ كانت أدريين ليكوفرير ممثلة عظيمة أعجب بها فولتير ولما ماتت ، رفضت الكنيسة أن تقام لها الطقوس الدينية وكذلك كانت تفعل مع الممثلين جميعــا ، كما أسلفنا القول ، ثم دفنت مدموازل ليكوفرير على شاطىء السين فى أرض موات ٠ فسخط فولتير وشيع الجنازة ثم احتج قائلا :

« آه ! هل أرى دائما أمتى ضعيفة »
« غير واثقة من رغباتها تعيب ما تعجب به »
« وأخلاقنا وقوانيننا فى تعارض دائم » ٠
« والفرنسى الطائش تطويه دواما دولة الخرافات ؟ » ٠
« ماذا ٠ ألا يجرؤ الناس على التفكير » ٠
« الا اذا كانوا فى انجلترا وحدها ؟ » ٠
« يا لك من منافسة لأثينا!أى للندن!!أيتها الأرض الطيبة! » ٠
« لقد عرفت كيف تتخلصين من الأوهام المخزية التى » ٠
« سببت الحروب الأهلية كما قضيت على الطغاة » ٠
« فوق أرضــــك يستطيع الانسان أن يفضى بكل ما يجول بخاطره » ٠
« وأن يتحمل فى سبيله كل شىء » ٠
« لا يمتهن فيك فن ولكل نجاح مجده » ٠
« فصاحب النصر فى تلار ، ابن النصر » ٠
« ودرايدن الجميل وأديسون الحكيم » ٠

« أوفلس الظريفة ونيوتن الخالد » .
« كل أولئك قد خلدت ذكراهم » .
« ولو كانت ليكوفرير فى لندن لكان لها قبر » .
« بين ذوى المواهب والملوك والأبطال » .

« هذا التمجيد لفتاة من فتيات المسرح اعتبر شركا كبير » . ففر فولتير والتجأ الى قرية من قرى نورمانديا . وبعد قليل طبعت فى روان سرا « خطابات فلسفية » عن الانجليز كان كتابا عجيبا ذا أثر خطير وان كان بسيط العبارة . لم يكن من المستطاع أن يقال ان الكتاب عميق أو أن معلوماته قد روعيت فيها الدقة الشديدة ، غير أنه حقق الغرض الذى كان يرمى اليه المؤلف : وهو أن يعرف الفرنسيين انجلترا التى كانوا يجهلونها، وأن يحملهم على التفكير فى عيوب نظمهم ويغير آراءهم الدينية والسياسية.

بدأ كتابه بخمسة خطابات عن المذاهب: الكويكر والإنجليكان والبرسبيتريان والسوسينيان والاريوسيين . وهذا الموضوع كان مفضلا دائما عند فولتير . ومن اليسير أن نعلم سبب هذا فهو حين يبين اختلاف العقائد الدينية يظهر ضعف كل منها . ومن ناحية أخرى كان فى استطاعته أن يؤيد آراء ينسبها الى الذين يصفهم من أشخاص ولو عرضها هو لتعرض للخطر .

وبعد الموضوعات الدينية عرض المسائل السياسية : فكتب خطابين عن البرلمان والحكومة وكانت قوة مجلس العموم وانعدام بعض الامتيازات يرضيان البرجوازى أرويه كل هذا يبعث فى نفس التاجر الانجليزى كبرا مشروعا ويحمله على أن يجرؤ فيقارن نفسه بالمواطن الرومانى . وهو يكاد يكون محقا فى هذا . « والابن الأصغر لأمير من أمراء المملكة لا يحقر التاجر ... » .

بعد هذا يأتى ما يمكن أن يسمى خطابات التبسيط : فيتناول أحدها فلسفة لوك التى تعد فرصة سنحت لفولتير ليبسط لأول مرة نظريته الخاصة به . انه يؤمن بالله ولكنه لا يقبل إننا لا نعرف عن الله الا انه موجود وأنه خلق العالم . يؤمن بخلود الروح لأنه ضرورى لخير المجتمع ؛ ولكنه لا يجد أثرا فى الطبيعة لتلك الروح ويثنى على لوك حين يقول فى تواضع :

« ربما لن نستطيع بتاتا أن نعرف ما اذا كان المخلوق المادى الصرف يفـكر أو لا يفـكر » .

ثم يعرض بعد ذلك للخطابات العلمية التى تتناول نيوتن ونظام الجاذبية وعلم الضـوء واللانهائى . وكل هذه الخطابات تدل على حب الاسـتطلاع وعلى معلومات غزيرة . ثم يختتم الكتاب بخطابات تتنـاول المأسـاة والملهاة . وهو يكشف للفرنسيين عن شكسبير ، الذى يعـده الانجليز مثل سوفوكليس . كانت له عبقرية قوية واسعة لا تصنع فيها وتنطوى على الروعـة ولكن ليسـت له أية ذرة من حسن الذوق ولا أية معرفة للقواعد . غير أن فولتير وهو يشكو من شكسبير كان يجهل القواعد، كان يلوم أولئك الذين لم يعلموا الفرنسيين الا هذه الأخطاء وحاول هو نفسه أن يترجم شعرا قطعة من أجمل ما كتب شكسبير . فوقع اختياره على مناجاة هاملت لنفسه : « يكون أو لا يكون ... » فسلك فيها مسالك كربون ، وأحل محل لغة شكسبير القوية عجمة مجردة وهذه الاهتزازات المنتظمة لأوزان الشعر تهدهد القارىء :

« تريث يجب أن تختار وأن تعبر فى الحال » .

« ومن الحياة الى الموت وأن تستحيل من كائن الى العدم » .

« يالرحمة الآلهة اذا كان الأمر كذلك فأمدونى بالقوة » .

« أيجب أن يهرم الانسان وتحنى ظهره تلك اليد التى تستبد بنا ؟» .

« هل لى أن أتحمل أو أن أضع حدا لشقائى ومصيرى ؟ » .

« من أكون .. ما الذى يوقفنى ؟ .. ما الموت .. ؟ » .

« انه خاتمة آلامنا انه ملاذى الأوحد » .

« انه لنوم هادىء بعد تلك الفورات الطويلة » .

« الانسان ينام وكل حى يموت ... » .

واذا كانت ترجمته ليست صادقة فتعليقاته تنطوى على الذكاء : « النبوغ الشعرى عند الانجليز يشبه حتى الآن شجرة كثيفة الأغصان غرستها الطبيعة تلقى بآلاف الأفنـان حيثما اتفق وتنمو بقوة لا تعادل فيها . وهى تموت لو أنك جعلت منها غير ما فطرت عليه ، وأردت أن تجعل منها شجرة فى بساتين مارلى » .

ولم يكد الكتاب يظهر حتى طاردته الشرطة وسجن صاحب المكتبة فى الباستيل واضطر فولتير الى أن يلجأ الى اللورين • وأصبحت الخطابات الفلسفية بقرار من البرلمان « محكوما عليها بأن تمزق وتحرق فى فناء المحكمة أسفل هذا السلم الكبير ويشرف على هذا المجلس العالى وذلك لأن فيها فاحشة ، ولأنها تخالف الدين والخلق القويم وما ينبغى للسلطات من احترام » ونفذ هذا الحكم فى ١٠ من يونيو عام ١٧٣٤ •

وهذا العمل يكاد يكون بمثابة ما اذا أحرق سياف فى أمريكا كتابا يتناول نظريات آينشتين •

★★★

رسائل فولتير تكشف حبه للحقيقة

من النظر فى حياة فولتير المتناقضة التى عاشها ، نفهم فولتير الذى كان فكره مرآة لشخصيته والعكس ، فقد كان محبا للحقيقة أكثر من حبه لحريته ، محبا للانسانية أكثر من حبه لنفسه محبا للصدق دون نفور من الكذب ، فقد كان يقول : « ان الكذب ليس ذنبا الا حين يضر بشخص ما ، أما حين يفيد الانسانية فانه أكبر الفضائل طرا » فقد كان كثيرا ما يتصنع بسخريته وتهكمه الايمان بما ليس يؤمن به ، وكثيرا ما نشر أعمالا من تأليفه تحت أسماء مستعارة ينكر نسبتها اليه أحيانا ثم يعود ويعترف بها فيما بعد ، ويفاخر بها • ورغم كل ما يقال عن مظاهر التناقض فى حياة وشخصية وفكر فولتير ، الا أن أحدا لا ينكر أنه كان شديد التأثير فى معاصريه بآرائه الايجابية البناءة وبآرائه السلبية الناقدة الساخرة فى آن معا وكذلك فهو كما قلنا فى البداية كان علما على عصر بأكمله •

وبامكاننا اذن أن ننظر الى فلسفة فولتير باعتبارها ذات جانبين : جانب نقدى وجانب ايجابى بناء ، وان الجانب الأول هو الأهم فى فكر فيلوسوفنا فقد حقق من خلاله أهدافه فى ايقاظ الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة من غفوتهم وبدد الظلمة التى كانت تغشى أعينهم •

ولقد كانت من أقسى حملات فولتير ورسائله النقدية حملته على الدين فى ذاته ؛ بل الهجوم على كل عقيدة لا تعرف التسامح وتضع الايمان فوق العقل • وان كنا لا نعفى فولتير من مغبة تهجمه الشديد والمباشر على

الكتب المقدسة فى مثل قوله فى العديد من مؤلفاته ان المسيحى يسلم أمره دون قيــد الى كتابين ، يعتقد أنهما مقدســان هما التوراة والانجيل ويعتقد اعتمادا على ما ورثه من أقوال أن الله قد أوحى بهما ، على حين يرى فولتير أنه لا أساس لهذا الاعتقاد ، اذ كيف يمكن الاعتقاد بأن موسى كان لديه ما يكتب به فى الصحراء حيث لا توجد حتى أشجار لينقش عليها ! وبالاضافة الى ذلك فكاتب أسفار موسى يقول انه يكتب من وراء الأردن،فى حين أن موسى لم يدخل أرض الميعاد أبدا • كما أن فى النص أسماء لمدن ومواقع لم تعرف بها تلك المدن الا بعد موت موسى بوقت طويل • وفى التوراة عبارة تقول : « لم يأت بعد موسى نبى يضاهيه عظمة » وهذه جملة لا يمكن أن يكون كاتبها هو موسى ، كما أننا نقرأ فى أسفار موسى قصة موته كاملة !! فكيف يمكن التوفيق بين تلك المتناقضات !!

أما الأناجيل ، فانها — فى رأى فولتير — لم تحرر رأسا فى زمن المسيح ، بل كتبت بعد وفاته بمائة عام • وفضلا عن ذلك فان ما تعتبره الكنيسة منها حقيقية كانت ترافقها أخرى تعتبرها مزيفة • فما سر قبول بعض الأناجيل ورفض بعضها الآخر ؟ • وبالاضافة الى ذلك ، فان الأناجيل الأربعة لا تتفق فيما بينها على نسب المسيح ولا على أحداث طفولته ولا على معجزاته ولا على أقواله • فكيف يمكن اذن اعتبارها جميعا صالحة وذات قيمة ؟ •

ويشكك فولتير فى الأصل الالهى لهذين الكتابين حينما يقول : اذا كان الله هو الذى أملى التوراة والانجيل ، حق لنا أن نعجب اذ ان الله ذو أفكار خاطئة جدا فى علم الفلك كما أنه يجهل علم تاريخ الحوادث ويجهل الجغرافيا جهلا تاما ويعتقد أن الأرانب تجتر ويناقض نفسه بنفسه فيما يخص الأخلاق •• فهل فى الامكان أن يظن المرء أن الرب ذاته يفرض مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » فى التوراة ثم يأتى الانجيل فيأمرنا « أن نمد خدنا الأيمن لمن يصفعنا على خدنا الأيسر ، وأن نعطى رداءنا لمن سرق ثوبنا » وأن لا نقــاوم الشرير •• فهــل هذه أوامر تتفق وأوامر التوراة ؟! •

ولا يقف فولتير عند هــذا الحــد فى التشكيك والتهجم على الدين المسيحى ، بل يشكك فى كل المعجزات التى وردت فى الكتابين المقدسين ويعتبرها خرافات وأساطير ينبغى الحذر منها وعدم الأخذ بها ؛ لمنافاتها العقل فهو لا يرى فى تلك الكتب المقدسة المسيحية شيئا يعتد به سوى الأخــلاق التى تبشر بها ، أما كل ما عداها فهو أكاذيب ينبغى أن يتحرر منها فكرنــا •

وينتقل فولتير الى رجال الدين المسيحى ، موضحا أنهم خرجوا على التعاليم الدينية الأصلية التى بشر بها المسيح وأنهم كثيرا ما يناقضون بأفعالهم ما يؤمنون به ويرددونه بأفواههم فلقد استنكر المسيح التفرقة بين الكهنة ولكن الكنيسة تقوم على نظام الدرجات ، حيث الرؤساء يتمتعون بالسلطة المطلقة وصغار الكهنة يحيون حياة بائسة · ولقد امتدح المسيح الخشوع والندامة ولكن الكنيسة تضرب المثل بالكبرياء والخيلاء والبذخ الفاضح · ولقد استنكر الجشع ولكن البابا وكبار الأكليروس يعيشون فى بحبوحة ورغد ولا يفكرون الا فى زيادة ثرواتهم ، ولقد امتدح المسيح اللطف والغفران ولكن الكنيسة اخترعت التعصب وزرعت بذور التفرقة والخلاف فى كل مكان وشنت الحرب على المنشقين والهراطقة والبروتستانت واليهود والمفكرين الأحرار وأذاقتهم الاضطهاد وأهلكت آلاف البشر فكانت من أعظم المصائب التى عرفتها الانسانية ·

ولا يخفى علينا بالطبع أن تلك الانتقادات التى يوجهها فولتير لرجال الدين والكنيسة المسيحية ، كانت موجهة لكنيسة القرن الثامن عشر التى كانت كثيرا ما تقف فى وجه التجديد فى مجالات العلم والفكر ·

ولقد شغل فولتير بالرد على هجمات بعض المتعصبين ضيقى الأفق الذين يهاجمون الفلسفة بحجة أنها دائما ضد الدين ، فى حين أن الأمر فى حقيقته قد يكون عكس ذلك فقد هاجم بعضهم فلسفة جون لوك ورد فولتير بقوله انها فلسفة حكيمة متواضعة لا يجب أن يثوروا عليها · فهى ليست مباينة للدين بل تصلح دليلا له اذا ما احتاج اليه ، فأية فلسفة تكون أكثر دينا من التى لا تؤكد الا ما تتمثله بوضوح كما تقر بعضها فتقول بانه يجب أن نلجأ الى الله اذا ما بحثنا عن الأصول الأولى للكون · وفضلا عن ذلك ، فانه لا ينبغى أن يخشى من أى فكر فلسفى على أى دين فى أى بلد كان ، فالفلاسفة لا يكتبون مباشرة للعامة · وقد دلل فولتير على ذلك بقوله انه ان قسمنا الجنس البشرى الى عشرين جزءا لرأينا تسعة عشر جزءا من هؤلاء يعملون أعمالا يدوية ولا يعرفون رجلا فى العالم يدعى جون لوك وما أقل من يقرءون فى الجزء العشرين الباقى ·· وتجد من بين هؤلاء القراء عشرين يطالعون روايات فى مقابل واحد يقرأ فلسفة فعدد من يفكرون قليل للغاية ولا يستطيع هؤلاء أن يكدروا صفو العالم · وليس مونتانى ولا لوك ولا اسبينوزا ولا هوبز ·· الخ هم الذين حملوا مشاعل الشقاق فى أوطانهم فاذا ما جمعت كل كتب الفلاسفة فى الأزمنة الحديثة لم تجدها قد أحدثت من الضوضاء فى العالم ما أحدثه جدال الكرادلة فيما مضى حول شكل كمهم وغطاء رأسهم ·

وهكذا كان فولتير دائم النقد ساخطا على كل شيء يحتسب المناسبة التى يتحدث فيها والهدف الذى يسعى الى تحقيقه فاذا كان فيما سبق يبدو ساخطا على الدين ورجاله ، فانه نسى أنه فى غمرة ذلك قد قلل من قدر الفلاسفة ، كما قلل من شأن تأثيرهم فى العالم وهو اذا كان قد حمل على الدين ورجاله ، فان حملته على الفلاسفة السابقين والمعاصرين له كانت أشد ضراوة فبقدر ما كان حبه لبعض هؤلاء الفلاسـفة شديدا كما كان شأنه مع فرنسيس بيكون وجون لوك ، بقدر ما كان هجومه ضـاريا على الآخرين من أمثال ديكارت وبسكال وجان جاك روسو • فهل كان لديه معيار يقيم به هؤلاء الفلاسفة ؟ • وهل كان لديه معيار لتقييم مشـاهير الناس فيعلى به قدر بعضهم ويحط من قدر آخرين ؟؟

معيار التنوير عند فولتير •• ونقده للفلاسفة

ان معيار التقييم عند فولتير هو مدى ما قدمه أى انسان سواء أكان من الفلاسفة أو العلماء أو الحكام أو القادة من أعمال استهدف بها خدمة الانسانية عامة وتنير الطريق للبشرية • فالعظمة الحقيقية ــ كما يقول فولتير ــ تقوم على عبقرية جبارة من السماء وعلى الانتفاع بهذه العبقرية لتنوير الانسان نفسه وتنوير الآخرين•وان سألنا فولتير ــ على ضوء هذا ــ اى هؤلاء الرجال أعظم من الآخر : قيصر أو الاسكندر أو تيمور لنك أو كروموبل •• الخ ، لكانت اجابته ان اسحاق نيوتن هو أعظمهم بلا شك فان رجلا مثل نيوتن الذى لا يكاد يظهر مثله كل عشرة قرون يكون هو العظيم ؛ لأن هؤلاء السياسيين والفاتحين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا الا أشرارا ، فنحن نجل ونعظـم من يسيطر على النفوس بقوة الحقيقـة لا أولئك الذين يصنعون عبيدا بالاكراه والقهر ، نجل ونعظم من يكشفون لنا أسرار الكون لا أولئك الذين يشوهونه •

ويرتبط معيار التنوير عند فولتير بمعيار آخر هو النفـع للوطن أو البشرية عامة ، فهو يرى أنه لا ينبغى أن نبالغ فى احترام وتقدير أصحاب الألقاب دون أصحاب المهن خاصـة النافعة للدولة ، فقد كتب رسالة عن التجارة وأهميتها فى المشاركة فى عظمة الدولة وجعل مواطنيها أحرارا يقول فيها ساخرا : « أى الرجلين أكثر نفعا للدولة : أيكون السنيور المبودر الذى يعرف وقت نهوض الملك ووقت نومه بكل دقة والذى ينتحل أوضاع

العظمة بتمثيلية دور العبد فى غرفة انتظار الوزير أم التاجر الذى يعنى بلده ويصدر من غرفته أوامر الى سوريا والقاهرة ويساعد على سعادة العالم ؟! » .

وعلى ضوء هذا المعيار « التنوير والنفع للبشرية » كان نقد فولتير للسابقين من الفلاسفة : فأرسطو مرفوض لأنه صاحب مذهب مستغلق غامض ، مما جعل تلاميذه يفسرونه على وجه ، أما ديكارت فقد ولد لاكتشاف أغاليط القرون القديمة ولكنه استبدل بها أغاليطه ، ذلك أنه سار على منهاج يعمى أعاظم الناس فقد خيل اليه أنه أثبت أن النفس عين الفكر، فان الانسان يفكر دائما وأن الروح تحل فى الجسم مزودة بجميع مبادىء ما بعد الطبيعة عارفة بالله وحائزة جميع الآراء المجردة زاخرة بروائع العلوم التى تنساها مع الأسف عند خروجها من بطن أمها !!

وقد انتقد فولتير ذلك الرأى الأخير لديكارت بقوله : « انه لن يجعلنى أعتقد أننى أفكر دائما ولا أجدنى أكثر استعدادا منه لأتصور أننى كنت بعد بضعة أسابيع من الحمل بى روحا بالغ العلم عارفا ألف شىء فى ذلك الحين فنسيته عند الولادة ، واننى كنت حائزا فى الرحم من المعارف ما أفلت منى عندما أصبحت محتاجا اليه واننى صرت عاجزا عن تعلمه ثانية بعد ذلك » .

وان كان فولتير ينتقد ديكارت هذه الانتقادات العنيفة الساخرة ، فانه لا ينسى أن يقر لديكارت ببعض اللمحات العبقرية : فهو يمتدحه باعتباره من أوائل الذين استنفروا العقول الى التفكير الحر فقد « أنعم ديكارت بالبصر على العمى فرأوا أغاليط القرون القديمة وأغاليطه وصارت الطريق التى فتحها كبيرة بعده » .

وهكذا كان حال فولتير مع بسكال ، فقد كتب فى احدى رسائله أنه يقدر عبقرية بسكال وبلاغته ولكنه كلما قدره اقتنع بأنه كان لابد من تصحيح الكثير من « أفكاره » فهو يرى أن ما كتبه بسكال فى « الأفكار أو الخطرات » كان مجرد خواطر ألقاها على الورق كيفما اتفق دون تدقيق « وقد كانت الروح التى كتب بها تلك الأفكار – فى رأى فولتير – هى اظهار الانسان من ناحيته الممقوتة فهو ينهمك فى وصفه لنا جميع الأشرار والأشقياء ، وهو يكتب ضد الطبيعة البشرية كما كان ضد اليسوعيين، وهو يعزو الى جوهر طبيعتنا ما لا يكون الا لدى القلة من الناس وهو يصب الشتائم على الجنس البشرى ببلاغة ؛ ولذا فاننى أتعصب للبشرية مجترئا على هذا المبغض الأعلى للانسان » .

ولقد كانت أشد حملات فولتير ضد الفلاسفة،ضد معاصره وقرينه فى حركة التنوير جان جاك روسو ، فقد كتب الى دالمير قائلا عن روسو : « انه لا يحب آثاره ولا شخصه » ، ويصفه « بأنه ممسوس،مجنون،صبى مضر ، مسخ يجمع بين الخيلاء والانحطاط والفظاعات والمتناقضات » . ويبدو أن كل تلك السخرية والشتائم كانت لكره فولتير لمبدأ روسو الشهير أن من الخير للانسان العودة الى الحالة الطبيعية التى كان يعيش فيها قبل أن ينتقل الى حياة المدينة التى يعيش فيها . ان فولتير يعبر عن رفضـــه لهذا المبدأ قائلا : كيف يمكن القبول بمبدأ اذا سرنا على حرفيته يجعلنا نلعن المدنية ونرفض حسناتها ونقبل بأن نسير على أربع ؟! كيف يمكن أن نؤمن بما يتمتع به « رجل الطبيعة » من طيبة كاملة وسعادة كبيرة ، ان الانسان المتوحش كما يعرفه الرحالة مخلوق بائس وهو ليس سوى طفل متين البنية له جميع ما فى الطفولة من رذائل وما يتخللها من تذبذب وقسوة فكيف نقبل بأن نخطىء كل العلوم والآداب والفنون وكل ما يضمن سيطرة الانسان على العالم ونتخلى عن لذائذ العيش ؟ ثم كيف يقول روسو فى معرض حديثه عن العصور الأولى : « آه ما أحلى عصر الجليد .. !» وكيف يقول : « ان الثمار هى لجميع الناس وان الأرض ليست لأحد » ان هذا المبدأ يهدم أهم حق فى حياة الانسان وهو حق الملكية .

وهكذا ، فان روسو نال أكبر قسط من نقد فولتير دون جملة اطراء واحدة فسائر ما كتبه عدا خمسين صفحة من كتابه المعروف (أميـــل) يقدرها وتســـتحق فى نظره أن يكون كاتبها رجلا حرا وليس روسو — لا يستحق أكثر من النسيان .

أما أهم رسائل فولتير النقدية فكانت على الفلاسفة الملحدين فقـــد كان يرى — رغم حملته على الدين المسيحى ورجاله — أن من الجنون أن يرتمى المرء فى أحضان الالحاد كما فعل أمثال « ديدور » و « هولباخ » ، لأن الرأى القائل بوجود الله قد تكون فيه صعوبات ، الا أن الرأى المعاكس أصعب ، فالملحد مضطر الى أن يقر بضرورة كل شىء كما فعل اسبينوزا وعليه أن يقبل بأن كل ذرة من الغبار حتم عليها أن تكون كما هى وان توجد بالضبط فى النقطة التى توجد فيها فى اللحظة التى توجد فيها وهو مجبر على أن يرى فى الحركة احدى الخصائص الجوهرية للمادة فاذا كانت المادة لا تتحرك فكيف السبيل الى تفسير انها بدأت فى الحركة فى وقت ما ؟ ان المرء مجبر كذلك على اللجوء الى « المصادفة » لتفسير النظام الذى يسود الكون وظهور الأحياء فى العالم وما يمتازون به من غائية خارقة فى تكييف أعضائهم مع الوظائف اللازمة للمحافظة على الأفراد والأجناس .

ولكن كيف يمكن أن نقبل أنه اذا وضعنا كل الأحرف التى تتألف منها قصيدة الالياذة فى كيس ثم أفرغنا الكيس خرجت منه الالياذة كاملة بكل حوادثها وأشعارها ؟ . ان هذه الظاهرة بعيدة الاحتمال حتى ولو افترضنا لها وقتا لا متناهيا وعددا من التجارب لا متناهيا واذا كان ذلك كذلك أليس أبعد عن الاحتمال أن يكون العالم الذى نعيش فيه مع جميع المخلوقات وليد المصادفة البحتة ؟ .

ان الالحاد فى رأى فولتير ـ لا يفسر شيئا والعالم يصبح لغزا مطبقا لا يمكن حله والملحد يظن أنه يعرف كل شىء وهو فى الواقع لا يعرف شيئا فهو جاهل مرتين : مرة لأنه لا يعرف ما يؤكده ، ومرة أخرى لأنه لا يدرك حدود معارفه .

ولعلنا نخرج من ذلك كله بأن فولتير يرى أنه من الواجب تنظيف الذهن من الخزعبلات المسيحية والتخيلات الديكارتية والتأكيدات الالحادية وشخافات جان جاك روسو وخطرات بسكال التشاؤمية ، بأية وسيلة ممكنة : سواء بالجدل المنهجى الهادىء أو بالسخرية اللاذعة .

ومما سبق يمكننا أن نستنبط آراء فولتير الايجابية فهو لا شك يؤمن بالتجربة الانسانية وبالعقل الانسانى ايمانا جازما وان كان يؤمن فى نفس الوقت بتواضع امكاناتهما المعرفية ، فهو يرى أن عقلنا حين تقوده وتدعمه التجربة يتيح لنا أن نثبت عددا صغيرا من المبادىء الأساسية اثباتا يقينيا أو يقترب من اليقين . وان ظلت بعض هذه المبادىء غامضة وقابلة للشك ، فيجب أن نعترف بقصورنا عن البرهنة القاطعة عليها فالفيلسوف الحق يجب ألا يتردد فى كثير من الأحيان فى أن يقول : لا أدرى ؟!

واستنادا الى هذا المنهج يقرر فولتير مبدأين لا شك فيهما لديه أولهما : وجود الله ، وثانيهما : القيمة المطلقة لشكل معين لفهم الأخلاق. أما عن المبدأ الأول فهو يقول : « حين أرى النظام والآلة العظيمة والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تسود الكون والوسائل والغايات التى لا عدد لها لجميع الأشياء ، يسيطر على الاعجاب والاحترام وأرى حالا أنه اذا كانت أعمال الشر وحتى أعمالى تضطرنى الى أن أقر بوجود العقل فينا ، وجب على أن أقر بوجود عقل ذى نشاط أكبر فى هذه الآثار التى لا حصر لها ، وأقر بوجود هذا العقل الأعظم دون أن أخشى أحدا بغير رأى فليس من شىء يهز اعتقادى بهذا المبدأ : كل عمل يثبت وجود عامل » .

ويقدم فولتير برهانا آخر على وجود الله يسمى لدى الفلاسفة منذ أفلاطون ببرهان « الاله الصانع » حينما يقول متأملا ذاته : « نحن قطعا من صنع الله والبرهان على ذلك ملموس فكل شيء واسطة وغاية في جسمي ، كل شيء رفاص وبكرة وقوة متحــركة وآلة مائية وتوازن ســوائل ومختبر كيمياء • اذن فكل هذا من ترتيب عقل وليس ذلك الترتيب من عقل أبوي؛ لأنهما قطعا لم يكونا يعرفان ماذا يفعلان حين وضعاني في العالم ، ولم يكونا سوى الآلات الصماء التي استعملها ذلك الصانع الأزلي الذي يحرك دورة الأرض ويدور الشمس حول محورها » •

وحــدة الأخــلاق الانســانية عنــد فولتير

أما عن المبــدأ الثــاني ، فهو يقول مؤكدا وحدة الأخلاق الانسانية : « كلما ازداد تبصري بالناس المختلفين باختلاف الطقس والعادات واللغة والقوانين والعبادة باختــلاف ذكائهم ، ازدادت ملاحظتي لوحــدة أساسهم الأخلاقي : فانهم جميعا يملكون مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم ، دون أن يعرفوا كلمة من اللاهوت وهم جميعا اكتسبوا تلك المفاهيم في السن التي يتفتح فيها العقل ، كما أنهم اكتسبوا جميعا كيفية رفع الأثقال بالعصي ولذلك بدا لي أن فكرة العدل والظلم فكرة لازمة للبشر ؛ لأنهم جميعا يتفقون على هذه النقطة طالما أمكنهم أن يعملوا ويفكروا • فالعقل الأعظم الذي خلقنا أراد أن يسود العدل على الأرض •• والا كيف أمكن للمصريين القــدماء والآشــوريين البــدائيين أن تكون لديهم نفس المفــاهيم الأساسية المتعلقة بالعدل والظلم لولا ان الله قد أعطاهم منذ الأزل ذلك العقل الذي نما ومكنهم من أن يدركوا نفس المبــادىء الأخلاقية •• فجميع الشعوب مهما كانت كليــة من البدائيــة تقول بوجوب احترام الوالدين والأمر بالمعروف والنهي عن الشرور والمنكرات،وتلك مفاهيم واحدة يخلصون اليها عن طريق عقلهم النــامي » •

والى جانب تلك المبادىء الميتافيزيقية والأخلاقية ، كان فولتير عاشقا للحديث عن الحرية بكافة أنواعها وقد بهرته التجربة الانجليزية ، فكتب ينتقد الوضع الفرنسي ويحاول دفع مواطنه الى استبدال النظام الانجليزي به ؛ فلقد أعاد النظام الانجليزي الى الانسان كافة حقوقه الطبيعية التي فقدها في ظل الأنظمة الملكية بفضل تنوير الفلاسفة ونضال الشعوب وهذه الحقوق هي : الحرية المطلقة في التصرف بشخصه وأملاكه والتحدث الى الأمة عن طريق قلمه وعدم محاكمته في أية قضية جنائية الا أمام محلفين

مستقلين وحسب المنطوق الدقيق للقانون · وضمن النظام الانجليزى لأفراده كذلك حرية العقيدة فللفرد حرية اعتناق أى دين يحلو له فى أمان ·

★★★

تأثير فولتير

ليس هناك شك فى تأثير فولتير على عصره تأثيرا كبيرا وان كان من غير الميسور تحديد مداه بدقة ، وليس هناك شك أيضا فى أن فولتير كان يتأثر بدوره من ايحاءات عصره وان كان تأثيره فى كثير من الأمور هو تأثير الوسيط الذى يضع قوة شهواته المعدية وقوة نبوغه الساحر فى خدمة الأفكار التى يخدمها دون أن يخلقها ·

ان فولتير يؤثر كفنان وكفيلسوف · ففى عالم الأدب نراه يؤثر بوجه عام بذوقه ولسانه كمهيج أولا وكملهم ثم كمحافظ وأمين على المبادىء الكلاسيكية · فالعقول التى يكونها تتمتع بذوق سليم ، وتعبر بعبارات واضحة جافة وتحافظ على صحة البيان وبلاغة العبارة · ان أتباع فولتير يثورون على أسلوب كأسلوب شاتوبريان ، ويحتقرون الكتاب الرومانتيكيين والقرن التاسع حافل بهؤلاء الفولتيريين وبصفة خاصة فى الجامعة والقضاء ·

أما فى عالم الأدب المسرحى ، فان معاصريه يضعونه فى مصاف راسين وكورنى وسيظل السيد الآمر فى الشعر الرقيق والغزل · وأما فى التاريخ ، فان تأثيره قد تلالأ وتجاوز فرنسا فقد ألف مدرسة للمؤرخين الفلاسفة الذين يعاب عليهم بأنهم ضحوا بالوقائع فى سبيل التفكير ، كما ضحوا بأبحاث النقد فى سبيل الحزبية ·

وقد اقتبسوا عنه قصصه الفلسفية فى القرن الثامن عشر أما فى القرن التاسع عشر ، فقد نقل شاتوبريان وجورج صاند وبلزاك القصة الى ميدان آخر بعيد عن ميدان كانديد ·

وقد تجلى تأثير فولتير العظيم فى رسائل الهجاء والصحافة ، فقد كان أستاذا فى فن السخرية اللاذعة · وأخذوا عنه فن المراوغة وطريقة تحليل المواضيع الهامة المعقدة وتعليلها بما يجعلها بسيطة هادئة وكيف تترجم رسائل الخصوم وتحول الى عروض سخيفة لا تحتاج الى نفى · وكيف يستطيع الكاتب أن يعيد ويكرر ما قال وما كتب بأوضاع مختلفة شيقة

ورموز غريبة ؛ لاقناع القارىء دون أن يعتريه سأم أو يتطرق اليه ملل . لقد كان فنانا عظيما فى مؤلفات خلت من عبارات الفن كما كان رائدا لكثير من كتاب القرن التاسع عشر . وعندما انتقل أناتول فرانس من كتابة القصة الى النقد الاجتماعى تجلت ميوله الفولتيرية وبدت أضعاف ما كانت عليه .

واذا استثنينا أدب المناقشة والمناظرة ، أمكننا القول بأن فولتير كان أستاذا بارعا فى علم الانشاء واللغة والبلاغة لكثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يتذوقوا الأدب الرومانتيكى ولم يجاروه .

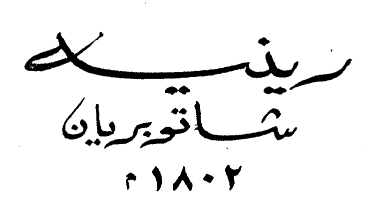
وقد ساروا خلفه عندما نادى بمبدأ الملكية المطلقة ، بشرط أن تقف نفسها على خدمة البلاد والأمة . وعند جاهر باسراف العدالة . وأسرع الى اغاثة المظلومين ونصرة الضحايا وعندما حارب اسراف الادارة وأشار الى الاصـــلاحات المفيدة وعندما أعلن كراهيته للحرب وطالب بملكية تحب السلم وتعمل فى سبيل الرخاء العام وتنظيم التجارة والزراعة .

ومجمل القول أن فولتير قد أثر على عصره بتنميـــة روح النقـــد فى الجمـــاهير . فقد استعرض أمامها جميع الوسائل الادارية والحكومية ، والمواضيع السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية ، وعلمها كيف يجب أن تعتبر نفسها مختصة فى جميع المواد فجعل من الرأى العام قوة هدامة لما لا يرتضـــيه .

وكيف كان تأثير فولتير عندما اندلعت نار الثورة الفرنسية . فقد سارت الحوادث بسرعة فائقة حتى لقد تجاوزت أفكاره وسبقتها ، فقد كان الوقت للحماس والشهوة والمشاعر ،لا للتفكير والتأمل ثم جاء عهد القنصلية والامبراطورية فعاد نشـــاط الروح الفولتيرى . ثم جاء عهد الملكية بين ١٨١٥ ـ ١٨٣٠ فعاد تأثير فولتير وعمت أفكاره وانتشرت مؤلفاته وأقبل الناس على قراءتها .

ولم يكن تأثير فولتير فى الخارج بأقل من تأثيره فى فرنسا فقد كان صداه يتردد فى أسبانيا والبرتغال وتجاوزهما الى ألمانيا وبلغ أشده فى ايطاليا ، حيث كانت الحاجة ماسة الى الاصلاحات الاجتماعية ، والى الحرية، والى الوحدة . أما انجلترا فان الفكرة الفاشستية كانت متوطنة فيها قبل أن يبدأ فولتير . فاذا كانت لم تأخذ عنه شيئا ولم تسايره فى شىء ، فانها قد تتبعته فى جميع أطواره وحكمت على أعماله واعترفت بنبوغه العظيم وعبقريتـــه الفـــذة .




رينيه
شاتوبريان
١٨٠٢م

اذا اســتعرضت الأدب الفرنسى من أوله الى آخره وجدت عاملين يظهر أحدهما آنا ويختفى آنا ليظهر مكانه العامل الآخر فاذا ما اجتمعا فى أديب أو فى طائفة من الأدباء كان الكمال ، فأما أولهما فرغبة فى الدقة أضفت على النثر الفرنسى خصائصه من حيث الوضوح وتوخى الصــدق ومتابعة الواقع ، وأما الآخر فميــل الى زخرفة اللفظ والعناية به لذاته ، فترى الأديب يحب اللغة التى يلهو بألفاظها على سنان قلمه لا لأنه يريد أن يزيل معنى عن صدره لا يطمئن الا اذا أخرجه ، بل لأنه يستمتع باللعب بالألفاظ نفسها فيجد لذته فى رصها على نحو معلوم وتزويقها على صورة معينة ، وقد حدث لهذين العنصرين أن اجتمعا فى القرن السابع عشر فحد المعنى من اللفظ وخــدم اللفظ المعنى فى اتزان عجيب فنرى فى أدب « راسين » و « لافونتين » واقعية تنشد صدق الأداء · لكنها تعرف كيف تستخدم من أجل ذلك لغة جميلة تفتن القارىء بما فيها من روعة الفن فلا يقال اللفظ الفخم لفخامته ؛ ولكنه يقال لأن المعنى المراد يتطلبه · ذلك الالتقاء بين العنصرين كان على أيدى فحول الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر فلما جاء القرن الثامن عشر ذلك القرن الذى كتب فيه الكتاب ونظم الشعراء لينشروا فى كتابتهم وفى نظمهم مذاهب فكريه أرادوا لها أن تشيع بين الناس ، تغيرت الحال : فلم تعد العناية باللفظ واجبة على الأديب فلا عليه أن يستخدم هذا اللفظ أو ذاك هذه العبارة أو تلك ما دام المعنى واضــحا ، ومثال هذا تراه فى فولتير وذلك هو ما وجده رجــال الأدب الابتــــداعى عندما شبت الثورة ، وجدوا واقعية ذهبت الى حد التطرف فماذا تظنهم فاعلين ؟ الثورة لقلب الوضع من النقيض الى نقيضه فلئن عنى أدباء القرن الثامن عشر بالمعنى وحده وبالواقع وحده فلنذهب نحن اليوم الى الطرف الآخر فلا نعنى الا بجمال العبارة والا بروعة الخيال · لم يقف الثائرون موقفا وسطا فيه اتزان واعتدال ، لم يقلدوا أدباء الاتباع فى القرن السابع عشر فيعــدلوا القســمة بين اللفظ والمعنى ؛ لأن الاتزان والاعتــدال قلما تجدهما عنــد جماعة ثائرة وقد وجــدت هذه الحركة الجديدة لسانها المعبر فى « شاتوبريان » ·

شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى

كان الكاتب الفرنسى اللامع فرانسوا رينيــه دى شاتوبريان زعيم الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى من كبار الكتاب العالميين ، وقد

امتــاز فى عصره ببــلاغة الأســلوب وبراعة الأداء وعمق الشاعرية والقدرة الباهرة على تصوير المشاهد والمشاعر وتعدد جوانب الشخصية فقد جمع بين مميزات الكاتب القدير المخلص فى أداء رســالته والتعبير عن آرائه ومعتقداته ، وبين السياسى والدبلوماسى البارع الحريص على كرامته الى الحد الذى حمل فيكتور هوجو على أن يقول عنه انه فى الوقت الذى انحنت أوروبا جميعها أمام نابليون ، كان شاتوبريان أحد الشــعراء والمفكرين القلائل الذين وقفوا منتصبى القامة حينما ركع العالم جميعه على ركبتيه أمام البطل المنتصر ولم يكتف نابليون بغزو الدول التى غزاها وانتصر عليها ، بل حاول كذلك غزو شاتوبريان ولكنه عجز عن ذلك ، ولم يكن شاتوبريان يجهل عظمة نابليون أو ينــكر بطولته ولكنه أبى مســايرته والانضمام الى حاشيته حينما أبطرته السلطة ، وأحالته حاكما مستبدا طاغية وقد تقلبت به الحياة بين الشدة واللين والعسر واليسر وظل فى الأحوال المتعارضة وفيا لآرائه ومعتقداته معتزا بشخصيته وابائه وكرامته، حتى رمى بفرط الكبرياء والاعتداد بالنفس ، وأعانته تجاربه ورحلاته على انتاج غرر التصانيف وروائع الأسفار طوال حياته الثرية المنوعة ٠

وقد ولد فرانسوا رينيه دى شاتوبريان فى سان مالو سنة ١٧٦٨ فى ليلة اشتد فيها عصف الرياح من ليالى شهر سبتمبر ، بمقاطعة بريتانى الفرنسية ونشأ فى قصر كومبور مهد أسرته العريقة وكان والده الكونت دى شاتوبريان من طبقة الأشراف الشديدة التمسك بالتقاليــد وكانت والدته يغلب عليها الحزن ولا تكاد تعلو ثغرها ابتسامة ؟

ولم يكن يقيم فى هذا القصر الموحش سوى والديه وأخته لوسيل وخادمتهم وكان بطبيعة الحال لهذه النشأة أثرها فى بث الاكتئاب الذى كان غالبا على مزاج شاتوبريان ٠ ويقول شاتوبريان عن نفسه انه أمضى طفولته على الشاطىء مع أستاذيه : الرياح والأمواج ، وقد أرسل فى بادىء الأمر الى مدرسة دول ثم الى مدرسة الجزويت فى رنز وتبع ذلك فترة من التردد درس فيها فى برست ليعمل فى البحرية ، ثم ألحق بكلية دينان ليكون من رجال الدين ثم ترك المشروعين وأعرض عن المحاولتين وأمضى عامين فى ضيعة الأسرة الاقطاعية فى كومبورج (١٧٨٤ ـ ١٧٨٦) مع والدته المريضة ووالده القليل الحديث وأخته لوسيل اللامحة الذكاء والعصــبية المزاج ٠ وكان للعامين اللذين أمضاهما فى هذه العزلة تاثير كبير فى تطور تفكيره وتكوين شخصيته ، فقد عمقت عزلة الأسرة فى كومبورج نزعة الحزن الغالبة عليه ، كما قوت جولاته المنفردة فى الغابات المحيطة بالمنطقة التى كان بها القصر الواسع الأرجاء ، ميله الى الطبيعة وشجعته أخته لوسيل على كشف موهيتبه ٠

وفى سنة ١٧٨٦ ترك كومبورج فى شهر أغسطس لينضم الى فرقة نافار بوصفه ملازما ثانيا واستمتع بالحياة فى الجيش ، لأنها كانت تتيح له فرص الاجازات التى كان يقضيها مع شقيقاته المتزوجات بمنازلهن فى مقاطعة بريتانى وفى فرســاى حيث قدم البلاط وفى باريس حيث كان يجتمع بالكتاب أمثـــال فونتين ولاهارب · واكتسب صـداقة والد زوجة أخيه القاضى والوزير مالزرب وبتشجيع من مالزرب ، عقد العزم على أن يقوم برحلة كشفية فى العالم الجديد · وفى ٧ أبريل سنة ١٧٩١ أبحر على السفينة سان بيير ذات القلعين الى أمريكا ·

وكان دافعه الى مبارحة فرنسا والقيام بهذه الرحلة ضيقه بالأحوال من ناحية وطموحه من ناحية أخرى ، ولم يكن راضيا عن اتجاه الثورة التى بدأت فى سنة ١٧٨٩ ، وخال أنه يستطيع أن يظفر بالشهرة والمال والمجد لفرنسا اذا استطاع أن يكتشف الطريق الشمالى الغربى بين أمريكا وآسيا وكتابه ملحمة عن المستوحش النبيل ، الذى كان يتوقع وجوده وهو يعيش فى حالة الطبيعة التى لم يشبها الفساد ؛ ولكنه عجز عن تحقيق ما كان يحلم به : فحالما وطئت قدماه الأراضى الأمريكية وجد أنه تنقصه التجربة ويعوزه المال والأهبة والاستعداد للقيام بالرحلة الكشفية · وكان أول من لقيهم من المستوحشين فى احدى الغابات يتلقون دروسا فى الرقص من أحد الخدم السابقين ، والرحلات التى قام بها فى أمريكا منذ وصوله الى بالتيمور فى ١١ يوليو سنة ١٧٩١ الى عودته من فيــلادلفيا فى ١٠ ديسمبر من السنة نفسها عرضة للشك ويبــدو أنه رأى شلالات نياجرا والبحيرات العظمى وبتزبرج وليس من الأمور المؤكدة انه رأى أوهيو والمســيسبى وفلوريدا كما أكد بعد ذلك ، ولكن مما لا شك فيه أنه أفاد من هذه الرحلة حصيلة من التأثر بالمناظر الطبيعية الأمريكية عظيمة القيمة وقد انتفع بها وأحسن الاستفادة منها فى قصتيه المشهورتين آتالا ورينيه ·

ويرجح أنه بدأ تأليف كتابه « الناتشيز » وهو فى أمريكا ويشتمل الكتاب على قصة مستعمرة الناتشيز فى لويزيانا ، التى انتهت بمذبحة فى سنة ١٢٧٧ وقد قصد بها أن تكون ملحمة « لرجل الطبيعة » وربما يكون قد بالغ فى تأكيده انه كتب آتالا فى أكواخ المستوحشين فى القفار ، ويرجح أنه قرأ جزءا منها على مالزرب حين عودته الى فرنسا فى يناير سنة ١٧٩٢· وبعد تسرعه فى الزواج من امرأة لم تجلب له ثروة ولم يكن عنها جد راض، انضم الى جيش الأمراء المهاجرين وكان يحمل معه رواية آتالا وقد ذكر فى مذكراته التى كتبها فيما بعد أنه احتفظ بأصولها فى جراب وقائى أنقذه

من رصاصتين صوبتا اليه فى حصار تيونفيل٠قال فى ذلك : « ان آتالا مثل الابنة المخلصة لابيها وضعت نفسها بين أبيها وبين رصاص الأعداء » وقد تعرضت القصة بعد ذلك لنقد شديد من الأب موريلليه ٠

وأعفى من الجيش لما أصابه من مرض وجروح دامية مع التقدير لما أبداه من اقدام وشجاعة وذلك فى أكتوبر سنة ١٧٩١ ، وشق طريقه فى صعوبة وهو يعانى الألم الى انجلترا ، حيث وصل فى مايو سنة ١٧٩٣ واستعان على تحصيل ما يقيم أوده باعطاء دروس فى اللغة الفرنسية،والقيام بالترجمـة وفى الوقت نفسـه بدأ تأليف كتابه عن « الثورات القديمة والحديثة » وفى سنة ١٧٩٤ عين بوظيفة مدرس فى سفولك ٠

واضطر للذهاب الى لندن وبها أخذ يتسلى فى عزلته ويعالج ما أصابه من الحزن والأسى وخيبة الرجاء بكتابة قصة رينيه ٠

ولكن أول كتاب قدمه للطبـع لم يكن الملحمة النثريـة وانما كان الكتاب الذى ألفه عن الثورات،وقد ظهر سنة ١٧٩٧ وأذاع اسمه فى أوساط المهاجرين فى لندن ، ولم يطل سروره بظهور هذا الكتاب فقد بلغه من أخته جولى خبر وفـاة والدته وانها كانت عند وفـاتها كسيرة الخاطر شديدة الحزن ؛ لاطلاعها على الآراء الالحادية التى أبداها فى رسالته عن الثورات ٠ ويقول شاتوبريان انه حينما سمع ذلك بكى وآمن ، والواقع أنه كان متجها صوب الدين فى هذه الفترة٠وحينما ظهر كتاب « حرب الآلهة» ، وهو قصيدة الحادية من نظم الشاعر بارنى ، حفز ذلك شاتوبريان الى النهوض بالدفاع عن المسيحية فكتب رسالته عن النواحى الشعرية والأخلاقية الجميلة فى الديانة المسيحية ، وكانت هذه الرسالة هى الأساس الذى أقام عليه كتابه الذى اشتمل على مجلدين عن « عبقرية المسيحية » ٠

ويرى المؤرخ البريطانى الكبير جـ٠ب جوش أن سنوات حكم نابليون، كانت سنوات جدب أدبى وان كتابـات شاتوبريان كانت تطلق ينابيـع العواطف وتوسـع آفاق الخيـال وتثير الحماسة التاريخية ، وأن ازدهار الدراسات التاريخية فى فرنسـا بعد عهد الثورة يرجع الفضـل فيه الى شاتوبريان قبـل أى انسـان آخر وقد أكمل فى الأدب رسـالة روسو وبرناردين دى سان بير ، وأعظم ما أداه للتاريخ هو أنه فتح أبـواب العصر الوسيط ٠

وفى ١٨١١ اختير شاتوبريان عضوا فى الأكاديمية الفرنسية فى المكان الذى خلا بوفاة أندريه شينييه؛ولكنه فى الخطاب الذى أعده للالقاء عند استقباله أشار الى ذكريات عن الثورة ضايقت نابليون ولما رفض أن يقرأ الخطاب ، تأخر دخوله الأكاديمية الى عهد عودة الملكية .

وفى سنة ١٨١٤ كتب رسالة شديدة اللهجة عن نابليون والبوربون، واختاره لويس الثامن عشر وزير دولة ولم يمنعه ذلك من كتابة رسالة فى نقد النظــام الملكى ؛ لاقدام الملك على حل المجلس الاستشــارى فى سنة ١٨١٥ ، وقد حوله ذلك الى صف المعارضين فى انتقاص النظام الملكى لحقوق الشعب . ولم تتحسن العلاقات بينــه وبين النظام الملكى الا فى سنة ١٨٢٠ بعد موت الدوق دى برى وقد اختير فى السنة نفسها سفيرا لفرنسا فى برلين ثم سفيرا فى انجلترا سنة ١٨٢٢ ، وقد أسهم فى انهاء الحرب الاسبانيه بوصفه وزيرا للخارجية ، وفى سنة ١٨٢٤ عاد الى صفوف المعارضة وأعلن خصومته لوزارة فيلليل وكتب فى جريدة الديبان مدافعا عن حرية النشر واستقلال اليونان واكتسب بذلك شــعبية وأعيد طبــع كتابه «الناتشيز» وكتاب «آخر أيام بنى سراج» ورحلاته فى أمريكا .

وحينما سقطت وزارة فيلليل اختير سفيرا فى روما فى سنة ١٨٢٨؛ ولكنه قدم استقالته حينما جاءت وزارة بولنياك وبعد ثورة ١٨٣٠ دفعه وفاؤه لشارل العاشر الى أن يقف موقف المعارض للملكية الجديدة . ومن هذا الوقت بدأ يعيش حياته الخاصــة مكتفيــا بكتابة بعض مقــالات فى الصحف ، ناقدا الحكومة الجديدة وموزعا وقته بين بعض الأعمــال الأدبية وزياراته لصديقته القديمة مدام ريكامييه وقام بترجمة الفردوس المفقود التى نظمها ميلتون الى اللغة الفرنسية ، وأتم كتابه الذى اشتمل على ترجمة حياته ، وهو كتاب « مذكرات ما وراء الرمس » وقد توفى فى ٤ يوليو سنة ١٨٤٨ ودفن حسب وصيته فى جزيرة جران بيه الواقعة أمام سان مالو .



عبقريــة المســيحية :

هو ذلك الكتاب الخالد الذى قال عنه مؤلفه شاتوبريان : « انه جاء بلسماً وفى وقته » ولقد صدق شاتوبريان فى قوله . فهذا الكتاب كان بمثابة القبلة للقرن الجديد المولود الذى ابتدأ يحبو فى دورة الزمن .

كان من الواضح أن المسيحية فى حاجة ماسة الى من يرمم هيكلها ويعيد اليها اعتبارها ، فطبقة النبلاء فى القرن الثامن عشر كانت قليلة التدين أو على الأصح كانت تعتنق التيارات (اللادينية) التى وجدت أعظم الرواج فى سوق البلاد وكذلك كانت الطبقة الوسطى (البورجوازية) تلك الطبقة التى ابتدأت تخرج من ظلمات الجهل الى نور العلم والمعرفة . كانت الحالة كذلك لان الفلاسفة كانوا قد أخرجوا للناس معتقدا جديدا ، جعل المسيحية فى نظر الجميع غريبة فاسدة وحشية لا يؤمن بها الا قلة من الأغبياء .. !!

وهكذا أصبح من أقدس الواجبات خلق أحد المعتقدات القوية المؤثرة؛ ليضاد المعتقد الأول ويقف فى سبيله كالصخرة الشماء . هذا ما رآه شاتوبريان بجلاء ورأى أمامه الفرصة السانحة تدعوه وتلح فى هذه الدعوة فلم يسعه الا القبول .

كانت فكرته الأساسية من وضع « عبقرية المسيحية » هى أن يثبت أن الديانة المسيحية هى الأكثر شاعرية ، الأكثر انسانية ، وانها هى ألصق الديانات بالحرية والفن والأدب التى هى من ضرورات العالم الحديث ... وأنه لا يوجد أكثر قدسية من أخلاقها ، ولا أكثر محبة من أسسها وقواعدها وتعاليمها ومذاهبها . فهى تنمى العبقرية وتصفى الذوق وتقوى الاحساس بالفضيلة وتعطى قوة وطاقة للتفكير وتقدم هياكل نبيلة للكاتب وقوالب رائعة للفنان .

اذا نظر الباحث الى « عبقرية المسيحية » من وجهة نظر الفلسفة والمنطق ، وجد هذا الكتاب ضعيفا هزيلا فشاتوبريان لم يستخدم المنطق السليم أثناء دراسته ، بل تراه مولعا بالعلل الغريبة التى توصله من غير شك الى معلولات غريبة أو أغرب . لقد كان شاتوبريان يكتب ما يكتب وفى نفسه اعتقاد وفى قلبه اعجاب وبذلك استطاع أن يجعل القارىء يعجب ... ويعتقد !

لقد كانت دعائم المسيحية مشيدة من قرن مضى على أفكار غريبة شاذة ، فحولها شاتوبريان بكتابه هذا الى أفكار أخاذة متنوعة فخمة .

يقول لانسون :

لسنا نعرف على وجه الدقة هل أفلح شاتوبريان فى انتقاء الوسائل التى تحقق له أغراضه من انشاء هذا الكتاب أم لم يفلح ، ولكننا نعرف أن الكتاب نفسه قد قطع الطريق بسهولة الى قلوب القراء وأثر فى نفوسهم

أكبر الأثر ، وذلك لأن شاتوبريان أقام هيكل الاعتقاد على صرح فنى وشعرى ٠

ولهذا الكتاب أثره القوى فى عالم الأدب من ناحيتين هامتين :

الناحية الأولى هى ناحية الكتاب التحليلية التى ضمنها شاتوبريان عواطفه ووجداناته ، أى ضمنها عواطف ووجدانات الفنان الملهم والأديب العبقرى ٠ وكذلك صورة الطبيعة ولوحاته الفنية التى رسمتها ريشته وهى متأثرة بمشاهدات الرحلة فى بريتانى والعالم الجديد ٠

الناحية الثانية وتتلخص فى تلك الصبغة الشاعرية المستحدثة ، التى شاعت فى هذا الكتاب ٠ فهذه الصبغة الشاعرية قد أكسبت الكتاب طرافة خاصة ، تظهر عند مقارنته بما كتب وألف من كتب دينية من عهد المسيح الى أوائل القرن التاسع عشر ٠ فكل هذه الكتب أساسها المنطق الجامد والتقيد بالتاريخ وحوادثه ٠ أما « عبقرية المسيحية » فيمتاز بذلك الاطار الفنى الشاعرى الذى سبقت الاشارة اليه ٠

قصص آتالا ورينيه والشهداء :

تصادمت قصة شاتوبريان « آتالا » بتيارين معارضين : أحدهما تيار نقد شديد لاذع وعدم ارتياح لظهور مثل هذه القصة ، ويمثل هذا التيار فئة الفلاسفة الذين قالوا :

« ان الأب « سافويار » يتكلم بحرية أكثر وفلسفة أكثر من الأب أوبرى الذى هو فى الحقيقة متعصب دينى لا أكثر ، أما التيار الآخر فهو تيار الاعجاب الشديد والرضى التام عن « آتالا » ، ويمثل هذا التيار النساء : فقد وجد فيهن شاتوبريان ضالته المنشودة ، لقد استطاع بسحر بيانه أن يحرك عواطفهن ويضرب على الوتر الحساس من قلوبهن ٠ لقد بكين وبذلك أعربن عن حبهن « لآتالا » ومؤلف آتالا ٠٠

وكما أن شاتوبريان قد أخذ مادة قصته « آتالا » من سياحته القصيرة الأمد فى شمال أمريكا ، فقد استخلص مادة قصته الثانية « رينيه » من قصر « كومبورج » ٠ ان (رينيه) بطل القصة هو نفس (رينيه) دى شاتوبريان ٠ فى هذه القصة يتحدث شاتوبريان عن نفسه وعن أخته لوسيل فهو قد أمضى فترات طويلة فى بهو القصر القديم مع أخته ٠ ولذلك خيل اليه أنه قد حدد شخصيتها ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ٠ فرينيه قد حدد

شخصية أخته ولكن بطريقته الخاصــة · لقد رسم هذه الشخصية كما تخيلها فى أحلامه التى تشوبها الاثرة لا كما هى فى الواقع·والآن لنعد الى البطل « رينيه » ان السر فى متاعبه وحياته المملوءة بالاشباح الشاحبة المزعجة وفى لياليه الطويلة المسهدة ، يرجع الى أن الحب ينقص روحه الواسعة التى تحتوى العالم كله ·

ولقد أدرج شاتوبريان قصته هذه « رينيه » بشجاعــة زائفة فى كتابه « عبقرية المسيحية » عام ١٨٠٥ ·

أما قصـــة « الشهداء » ، فقد حاول شاتوبريان فى هذه القصة أن يواجه عالمين : العـــالم القديم والعـــالم الجديد ··· عالم الالحاد وعالم المســيحية · وبعبارة أخرى أراد أن يبين لنا طبيعــة الرجل القــديم المستوحش وطبيعة الرجل المتدين أى المتمتع بالمدنية الأوربية · والظاهر أن شاتوبريان قد تلقف هذه الفكرة من جان جاك روسو · ولكنه لم يتركها على حالها بل وسع دائرتها وأضاف اليها عناصر جديدة ·

★★★

القصــــة

تمتاز مؤلفــات شاتوبريان بالعمق والتحليــل النفسى والتصــوير العاطفى ، وبأنها كانت أول الكتب التى وضعت أيدى القراء على مساوىء العصر التى صورها فى « رينيه » على ما سيجىء ، وبأن حب الطبيعة وتذوق جمالها بارزان فيها بروزا واضحا ، وهذه الظاهرة الأخيرة لم تتضح قبل ذلك الا فى كتب « روسو » وبرناردان دى سان بيير « مؤلف رواية بول وفرجينى » ·

كتب شاتوبريان أثناء نفيه فى انجلترا مؤلفا ضخما يقرب من ألفى صفحة وعنوانه (الناتشيز) وهم سكان احدى ولايات المسيسيبى · وبعد أن أتم نسخ هذا الكتاب فقدت منه النسخة الوحيــدة التى كان يملكها وظلت مفقودة عدة سنين،ثم عثر عليها وفى أثناء فقدها اقتبس من حوادثها ما جعله موضوعا لروايتيه الفخمتين «آتالا» التى نشرها فى سنه ١٨٠١ ، و « رينيــه » التى ظهرت ســنة ١٨٠٢ والتى هى موضــوع تلخيصنا وتحليلنا فى هذا الفصل ·

يكاد النقاد يجمعون على أن هذه الرواية تعتبر نموذجا قيما لانتاج الرومانسيين ، وسجلا دقيقا شاملا لمحامد أهــل الجيل الذى ألفت فيه ومساوئهم • ففيها يلفي القــارىء الأخيلة المحلقة فى سماء « اللانهاية » والأحــلام المتغلغلة فى ليل الأبدية وملائكة السعادة المرفرفة بأجنحتها النورانية فى فراديس الهناء • وشياطين البؤس مهمهمة متمتمة فى غياهب الظلمات والجحيم ، وفيهــا يلتقى بالعواطف الحادة والأحاسيس الملتهبة والرغبات الملحة والأهواء العنيفة • وفيها يعرف القارىء آلام الحياة وشقاء العيش ويذوق مرارة الصعوبات ويدرك قسوة العقبات وبالاجمال : هى لوحة أمينة لذلك العصر الثــائر المضطرب المفعم بالقلق الملىء بالضجر ، وهو عصر الثورة الفرنسية الهائلة المجتاحة ، التى كانت بمثابة حد عملاق فصل به التاريخ بين القديم والحديث •

لقد ترددت فى البيئات الأدبية فى كثير من الأحيان أن « رينيه » بطل هــذه الرواية هو شاتوبريان نفســه ، وأن المؤلف لم يزد فيه شيئا على رسمه صورة لحياته الخاصة فى أدق دقائقها وأعمق تفاصيلها •

ألف شاتوبريان هذه الرواية فى لندن (سنة ١٧٩٦) ، ولما عاد الى فرنسا نشرها مع « عبقرية المسيحية » فى سنة ١٨٠٢ ، كان ذلك قبل انفجار الرومانسية فى فرنسا فساهم بها مساهمة فعــالة فى نشأتها وانتشارهــا •

ومجملها أن « رينيه » وهو شاب فرنسي ــ قد ارتحــل الى أمريكا ليدفن نفسه فى عزلتها وانضم الى قبيلة هندية فى تلك البلاد ، وعاش فيها عيشة بدائية تتفق مع تلك البيئة• وهناك جعل يقص على الأب «سويل» ، وهو أحد المبعوثين الكاثوليك فى تلك الأصــقاع وعلى الرئيس الهنــدى الشيخ « شالتكس » كيف تخلى عن الحياة العملية وعلى أثر أية فاجعة غادر أوربــا •

وتتلخص قصة هذا البطل فى أنه ولد ونشأ فى قصر عتيق منعزل وسط غابات مترامية الأطراف• وفى هذا القصر قضى طفولته ومبدأ شبابه الى جانب شقيقته « أميل » التى كانت أسن منه قليــلا والتى ألف بينها وبينه اتفاق الذوق وتشابه المزاج تأليفا محكم الأواصر والعرى فشبا معا ؛ وجعلا يتقــاسمان لذة النزهات ويتذوقان حب الطبيعة وينعمان بجمال الشعر الذى كان رينيه قد وهبه ذات نفسه منذ الطفولة الناعمة •

بيد أن هذا الهناء البرىء لم يلبث أن ذوت أزهاره ، وجفت أوراقه : فقد توفى والدهما وسرعان ما انتقلت ملكية القصر وما اليه الى أخيهما الأكبر • ولم يكن اذ ذاك بد من أن يوكل أمر هذين الناشئين الى بعض الأقارب ليكفلوهما ويقوموا على تربيتهما • وقد قلب هذا الحادث كيانهما رأسا على عقب وصدمهما صدمة عنيفة قاسية ؛ جعلتهما يفيقان فجأة من أحلامهما اللذيذة ويهويان بغتة الى أرض الحياة العملية المليئة بالألم والشر والمفعمة بالبؤس والتعاسة •

وعلى أثر انتباههما من دوار هذه الصدمة فكرا فى أن يقذفا بنفسيهما فى حظيرة الرهبانية ؛ ليقطعا كل روابطهما بهذا العالم الأسود الشرير ويخلصا لمالك الملك المشفق الرحيم ، ولكن الفتى لا يستطيع لذلك صبرا ولا يقوى على رياضة نفسه على تنفيذ هذا العزم وترغب نفسه الجامحة فى الفرار من هذه البيئة المحدودة ويشتاق قلبه المحزون الى مخاطر الأسفار والمغامرات ؛ فينفذ هـذا التصميم فعلا ويرتحل بعـد أن يسجل تسجيلا مشوبا بالألم والضنى أن شقيقته يبدو عليها أنها مستريحة لرحيله ان لم تكن مغتبطة سعيدة •

ومهما يكن من الأمر ، فانه يقذف بنفسه الى العالم الطويل العريض فيزور الآثار القديمة فى مختلف الأصقاع ويستمتع بالمناظر الجميلة فى متبـاين البـلاد ، وينعم بالمدن الكبرى ومن يقطنها من العظماء والأفذاذ ويتـأمل كل هذا تأملات دقيقة عميقة • وهنا لا نجـد بدا من تنبيـه شاتوبريان الى أن رينيه ـ على أثر موت والده ـ كان فقيرا معدما وانه هو وأخته قد وكل أمر الانفاق عليهما الى بعض أقاربهما ، وأنه بالتالى لا يستطيع القيام بنفقات تلك الأسفار الطويلة البعيدة فمن أين يأتى بكل هذا المال الذى يمكنه من تحقيق رغباته ؟ ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن شاتوبريان • فى رواية رينيه ـ يصور لنا حياته الخاصة فينسى أن بطل الرواية كان فقـيرا •

ومهما يكن من الأمر ، فان الذى لاريب فيه هو أنه لايحس فى قرارة نفسـه بالسعادة ، بل هو لا يشعر بالرضى والاطمئنان والسر فى غيبة السعادة من حياته هو أن هذه الرحلة الطويلة قد كشفت كثيرا من غوامض الوجود فأخذ يفكر فى خفاياه ومعمياته ، حتى صار لا يرى الا الحياة على حقيقتها وأننا لسنا الا أشياء ضئيلة وطفق يسأل نفسه قائلا : « الى أين ذهبت تلك الشخصيات العظمى التى طالما أحدثت ذلك الضجيج المدوى فى أنحاء المعمورة ؟ وكأنه يجيب نفسه على هذا التساؤل فيقول : « ان الزمان قد خطا خطوة فتجدد وجه العالم » •

وفى هذه الرحلة يقف بنا فوق بركان « اتنا » فى صقلية ؛ ليرسم لنا صورة شاب ملىء القلب بالأهواء الحادة وقد جلس على حافة فم البركان يندب حظ الفنانين من بنى الانسان الذين يرى مســاكنهم فى أســفل الجبل ، ثم يضيف الى ندبه قوله : « على هذا النحو فى كل حياتى تمثلت أمام عينى خلقا هائلا وغير ممكن الانكشاف والى جانبى هوة فاغرة فاها » ·

وبعد هذه الرحلة يعود الى وطنه وكله أمل فى أن يكون قد قضى على هذا القلق العنيف المتغلغل فى أعماق نفسه وتلك الرغبة الحادة التى تتعقبه فى كل مكان ؛ ولكنه لا يكاد يستقر فى أرض الوطن حتى يباغته ذلك السلوك الغريب من جانب شقيقته؛فيحدث فى نفسه من الاضطراب أضعاف ما كان يشعر به قبل رحيله وكان من بوادر هذا السلوك المدهش انها عندما تعلم بعودته الى الوطن واعتزامه زيارتها ، تكتب اليه ألا يفعل بحجة أنها ليست مستيقنة من استقرارها فى مكان معين بسبب أعمالها وشواغلها · واذ ذاك يحس بأن ذلك الاغضاء من جانبها أو ذلك النسيان أو التناسى لحنانهما القــديم يجرحه فى صميم فؤاده ويحــز فى نفســه ؛ فيعتزم أن يعيش فى الوحدة التامة والعزلة المقفلة فريسة لفقدان الثقة الذى يمزق نياط قلبه ·

وفى هذه العزلة يحس كأن عاطفة سوداء غامضة تنهش فؤاده ويخيل اليه أنه قد خلق لأحداث فاجعة ؛ تتكشف عن موت وتنتهى الى سفك دماء ، وأن هذه الأحداث هى التى ستهيىء له أن ينشر جناحيه ويطير نحو أمكنة مجهولة يتوق قلبه الى رؤيتها وهو يرسم لنا هذه العاطفة الملتهبة فيقول : « انهضى وهبى ودمدمى أيتها العواصف التى يجب أن تحمل رينيه فى أجواء حياة أخرى » · ثم هو يسير فى خطوات واسعة ووجهه يلتهب حمرة والريح تصفر فى شدة ، دون أن يحس بردا ولا مطرا كأنه مسحور معذب أو كأن به مســا من شيطان قلبـــه ·

وانه لعلى هذه الحالة اذ بضعف شديد يصيبه فجأة ؛ فييأس ويصمم على الانتحار ·

وعلى أثر هذا يكتب الى « أميلى » رسالة بقصد تنظيم أعماله ولكن هذه الأخيرة ــ لانها معتادة على أن تقرأ ما بين طيات القلب الأخوى من أسرار ــ لا تجد عسرا فى أن تتنبأ بكل ما أعتزمه · وفى الحال تسرع اليه غارقة فى دموعها وتهتف به قائلة : أيها الجاحد أتريد أن تموت وأختك على قيد الحياة ؟ أأنت تتهم قلبها ؟ اننى فهمت كل شىء كأنى كنت معك · ثم لا تزال به حتى تستقسمه بكل محرجة من الأيمان ألا يحاول بعد الآن

العدوان على حياته ؛ فلا يسع رينيه الا أن يعود الى الحياة لأن مشهد هذه الاخت المحبوبة التي تلقت من الطبيعة شيئا الهيا ، كان يسحره ويغمره بالغبطة والسعادة ٠

بيد أنه مع الأسف لا يلبث أن يلمح أن « اميلى » تفقد الهدوء والصحة وهكذا لا تنقضى بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى تأخذ حالتها فى الهبوط يوما بعد يوم وأخيرا ترتحل خفية ، بعد أن تترك له كتابا حزينا مؤثرا تقول له فيه انها يجب عليها أن تدخل الدير لتشبع الهامها الديني وتذكره بقسمه ، أو لينيم هذا الارتباك على أقل تقدير ٠

واذ ذاك يستولى اليأس على رينيه ويهرول الى الدير ليحارب هذا المشروع اذ كان الوقت لا يزال فيه متسع لذلك ؛ ولكنه لا يستطيع أن ينفرد بها ؛ لأن قواعد الدير القاسية تحول بينه وبين أمنيته فلا يسعه الا أن يكتفى بمشاهدة الطقوس الأخيرة التى تسجل انقطاعها لربها ، وبينما هو منحن على التابوت الذى مدت فيه « أميلى » كما يمد الجثمان فى القبر اشارة الى تخليها عن عالم الحياة ، اذ به يسمع بضع كلمات تفوه بها أخته فتقع على قلبه وقوع الصاعقة ، حيث يفهم منها بغتة أنها كانت تحبه حبا غير أخوى وانها تتمنى الموت عقابا لها ٠

وأخير يشعر رينيه بانفعال مأساوي واقعي ليس من نوع الأخيلة التي تطوف به عادة وحينئذ تنقض عليه أهواء وأحاسيس قاسية انقضاض الوحش على فريسته ولا تزال تنهش قلبه وتقضم فؤاده ، حتى تنزل به أعنف ألوان التعاسة والشقاء ٠ ومن العجب أنه اذ يصل الى هذه الحالة المريرة يفقد الرغبة فى الموت؛ولكنه يصمم على أن يهجر أوربا نهائيا ويرتحل الى أمريكا ٠ وهناك يتسلم كتابا من رئيسة الدير تنبئه فيه بأن « أميلى » قد توفيت ضحية الاحسان والاخلاص فى العناية بمعالجة المصابات بالأدواء المعدية من صاحباتها ٠

★★★

هذا هو موجز تلك الرواية الساحرة وفى بطلها المحزون المعذب يرى القارىء جيلا كاملا ماثلا للعيان ، بصورة أكثر قتامة واسودادا من صورة « فريز » فان رينيه ـ اذ يوصف هذا الوصف الدقيق ويحلل ذلك التحليل العميق بأسلوب شاتوبريان الذى لا يقارن ـ تتجسد فيه كل آلام العصر المكونة من عناصر شديدة التباين مليئة بالمفارقات : فمن انهيار فى الثقة واليقين الى موت عنيف الى خيبة أمل أخلاقية أو علمية الى أحلام

اسانية سامية لا تكاد تحلق فى عالم النور ، حتى تهوى كلمى صريعة من ضربات الأحـداث الواقعية المتوحشة ، وتنسحق تحت سنابك التجـارب العملية الى بأساء قاسية شديدة الوطء وترزح تحت القوى الممتازة ، الى نفى مفعم بالعزلة المريرة الوحشية،الى غيبة تامة للمواساة والتأسى ، الى فقدان كامل للايمان العملى المنتج الى تأليهية عائمة متموجة لا تحدد غاية ولا تعين نهـاية ، الى أهواء هائجة ثائرة غير ممكنة الاشباع والارواء · وتلك هى العناصر الأساسية التى يتألف منها مجتمعة جوهر القلق والضجر والحزن والانقباض وما الى ذلك من الأعاصير التى اجتاحت ذلك العصر وأصابت كل أهل ذلك الجيــل وكانت عنوان تلك الحقبة ، والتى استطاعت ريشة شاتوبريان أن تصـورها فى رينيه فتبـدع التصـوير وتحددها فتحكم التحديـد ·

★★★

بيرجينت

أبسن

١٨٦٧ م

فى عالم المسرح الأوروبى عمالقة كبار سطع بريقهم فى سماء الأدب والفن الرفيعين فاستولوا على الافئدة والأبصار وظلوا نجوما ثابتة براقة على ممر الحقب والعصـور ، لا يخبو نورها أو يصيب بريقهـا الضعف والزوال . واذا حق للانجليز أن ينظروا الى شـاعرهم الروائى الأكبر شكسبير نظرتهم الى نعمة من نعم السماء اختصهم بها الخالق دون غيرهم من البشر ، واذا كان للألمان أن يفخروا بجوته باعث نهضتهم الأدبية ورافع فنهم المسرحى الى أعلى السماء والذرى ، فان للنرويجيين تراثا أدبيا وفنيا خالدا يدينون بمعظمه الى عملاق أدبهم المسرحى « هنريك ابسن » .

ولد ابسن فى قرية صغيرة من أعمال النرويج فى عام ١٨٢٨ ؛ ولم يتسن له أن يتلقى تعليمـا عاليـا بالمعنى الصحيح لضيق ذات اليد ؛ فاضطر الى أن يعمل أجيرا لصيدلى فى بلدته الصغيرة وهو لم يتعد الخامسة عشرة من العمر . وكان ابسن يمقت عمله هذا أشد المقت وكان يشعر فى قرارة نفسه بأن مجاله الرحب الفسيح هو ميدان الأدب والشعر ؛ ولهذا كان يعكف فى أوقات فراغه وكلما سنحت له الفرصة العابرة على نظم القصائد وهو بعد فى أول ربيع الشباب .

وفى عام ١٨٥١ ، حنا عليه الدهر حينا فنال بعض ما كان يتمنى : فقد انتقل الى بلدة برجن فى النرويج وأثار اهتمام علية القوم فيها ؛ فاختاروه ليشرف على اعـداد الروايات المسرحية لمسرح المدينة وظل ابسن يشغل هذا المركز حتى عام ١٨٥٧ . ولم يستطع ابسن أن ينال حظوة حقيقية لدى مجتمع الطبقة البرجوازية السائد آنذاك فى « برجن » ، بل لقد أثار نقمة المجتمع عليه وسخطه لجرأته فى القول والنقد وخاصة فى روايته المسرحية « كوميديا الحب » . وكان لابسن فيما لاقاه من جحود وعزوف أسوة فى كبار أئمة الأدب الذين سبقوا عصرهـم بمراحل وأشواط بعيدة أمثـال الشاعر الانجليزى شيلى فآثر ابسن أن يرحل عن وطنه فترة من الوقت تجول فى أثنائها فى ربوع ايطـاليا الساحرة الجميلة ، تلك الربوع التى طالما كانت ملاذا لأمثـاله من الأدباء والفنانين ثم ألقى عصا الترحال فى ألمانيا وأقام أكثر وقته فى مدينة ميونيخ ما بين عامى ١٨٦١ الى ١٨٩١ . وكان أن أنتج هذا الزمن القاسى عليه ، الذى قضاه أشبه ما يكون بالمنفى أشهر رواياته المسرحية : بيرجنت والدمية ورواية أعمدة المجتمع .

وفى عام ١٨٩١ عاد الى وطنـه وكان النـاس قد بدأوا يعترفون بفضله فقضى أواخر حياته فى هدوء وطمأنينة ، الى أن وافاه الأجـل فى

عام ١٩٠٦ ، بعد مرض دام أربع سنوات كاملة وهد قواه الجسدية والعقلية معـــا ٠

ابسن مجدد الأدب المسرحى فى أوربا :

ويعتبر ابسن بحق مجدد الأدب المسرحى فى أوربا ، بعد أن نزل هذا الأدب الى الدركات ، ذلك أن ابسن آثر أن ينفض عن الدراما غبار التقاليد المتراكم الذى جعل منها دراما ميكانيكية روتينية تهتم بالشـكل والمبنى دون الروح والمعنى ٠ وكان محور مسرحيـات ابسن يرتكز الى فكرتين أساسيتين جعل منهما الكاتب هدفه المنشود ٠

أما الفكرة الأولى فايمانه العميق بقيمة النفس البشرية،ذلك الايمان الذى دفعه ساعيا بكل ما أوتى من جهد فكرى لاعلاء حرية الفرد ولاصراره على أن الفرد اذا ما أتاحت له حريتـه الصحيحة أن يختار طريق البعث بواسطة الثقافة الرفيعة والخلق القويم المتين ، سعى الى انقاذ نفسـه ، ومن ثم عمل على تطوير المجتمع واصلاحه وانقاذه ٠

أما الفكرة الثـانية فهى تمسـكه بقيمة الحب الحقيقى الخالص من شوائب النفاق والأثرة والتمويه ٠ واعتقد ابسن أن غاية ما يصيب الفرد الانسانى من مأساة فى هذه الحياة انما هو حرمانه من أن يهب وأن ينال مثل هذا الحب الحقيقى سواء بسواء ٠

وقد عد ابسن فى عصره الذى عاش فيه متشائما متوحدا ٠ ولكنه كان فى الحقيقة من أكبر المتفائلين لا بالنسبة لعصره وحده ، ولكن بالنسبة الى أمله فى الانسانية وما يستطيع الانسان عمله فى سبيل بناء مستقبل أفضل ومجتمع أمثل يقوم على المحبة والصدق ٠

★★★

مســـرح ابســـن

ابسن أول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح

لم يكن الكاتب النرويجى « هنريك ابسن » هو مبتـكر المـــذهب الواقعى فى الأدب كما يزعم كثيرون ، ولكنه كان صاحب أقوى دفعة بهذا المذهب نحو الحياة المتحررة ٠ وقد اختار « ابسن » خشبة المسرح ليكون معرضا لمذهبه الجديد كما اختارها من سبقوه فى هذا الميدان أو بتعبير أدق كما اختارها من سبقه ، وأعنى به « موليير » على وجه التحديد ٠

كانت مسرحيات « موليير » هى اللبنة الأولى فى صرح الواقعية ، فقد صور بقلمه النارى عيوب مجتمعه الفاسد الذى اشترك فى تلويثه وافساده من كانوا يسمون أنفسهم رجال الدين والنبلاء وتضافرت على اتلافه قوى الرجعية والتقاليد البالية ٠

ولم يكتف « موليير » بمجرد التصوير بل أخذ يهدم الأصنام ٠٠ أصنام التعفن والفساد والتقاليد ٠ وكانت وسيلته فى ذلك الهدم هى كوميدياته الخالدة التى أخذ يقدمها كوميدية تلو كوميدية ؛ فتلقى أكبر التجاوب من الجماهير وتهز معاقل الرجعية هزا عنيفا ٠

وعندما مات موليير ، لم يأت بعده من يخلفه أو يدين بدينه،ولم يعرف المسرح مؤلفا يمسك بالمبضع ليشرح المجتمع الذى يعيش فيه ولم يحاول كاتب من كتابه السير فى الطريق الذى مهده موليير ٠٠٠ ومضت السنون وتتابعت الأجيال حتى كان النصف الأخير من القرن التاسع عشر عندما ظهر خليفة موليير الذى حمل لواء الواقعية وجرد قلمه؛ليصور عيوب مجتمع عصره على خشبة المسرح وليهدمها عيبا عيبا بمثل القلم المر الذى حمله الكاتب الفرنسى الكبير ٠

صور « ابسن » أكبر رذائل عصره وهو النفاق وشن عليه حملة شعواء ٠ ولم يترك لونا من ألوان النفاق ٠٠٠ هاجم نفاق السيد للمسود ونفاق الزوج للزوجة ونفاق رجال الدين وحارب الانتهازية والوصولية التى جعلت من الفرد آلة صماء يحركها غيره ويفرضون عليها أفكارهم ٠

خاض «ابسن» معركة من أعنف المعارك ، ولفت اليه أنظار المفكرين فى أنحاء العالم كله واستطاع أن يوقظ الأفراد فأيدوه فى كل قضية اجتماعية أثارها ؛ لأنهم أدركوا أنها مشاكلهم ٠٠٠ ومن ثم ثار عليه المحافظون ، وزعموا أنه تعرض لمناقشة أمور لا يجوز لأحد مناقشتها ، فكان جوابه عليهم وعلى ما زعموا أنه قد آن الأوان لثورة الانسانية على كل ما يقف حائلا بينها وبين التقدم ، وأنه لا يعطل ركب الانسانية الا التقيد بالتقاليد البالية ٠

وقد انتصر « ابسن » فى كل قضية خاضها وتحرر العالم أو معظمه من ألوان العبوديات التى حاربها كلها ٠ ولهذا السبب أصبحت معظم مسرحياته غير ذات موضوع فى أيامنا هذه ؛ لأنها تعالج مشاكل لم يصبح لها وجود فى العصر الحديث ٠٠٠ غير أن هذا لا ينقص من قيمتها الفنية بحال من الأحوال كما لا يجردها من فضيلتها الكبرى ، وهى أنها كانت تدعو الى تحرير الأفراد حتى تحرروا ٠

غير أن « ابسن » لم يبدأ بكتابة المسرحيات الواقعية عندما أخذ يكتب للمسرح ، بل بدأ بمجاراة أسلوب عصره الرومانسى فكتب فى عام ١٨٥٠ تراجيديا « كاتيلينا » التى تصور حياة الثائر الرومانى المعروف بهذا الاسم ٠٠٠ ولعله قد اختار شخصية ذلك الثائر القديم ليخفى وراءه شخصية الثائر الجديد أى شخصيته هو ٠ ثم كتب مسرحية رومانسية أخرى من فصل واحد هى « قبر المخارب » وأعقبها بمسرحية « أمسية سنت جون » وهى كوميدية من النوع الرومانسى كذلك ، ثم بمسرحية «ليدى أنجر» و «وليمة سولهوج» ، وكانتا دراماتين رومانسيتين لا تختلفان عن درامات ذلك العصر الا بأنهما بنيتا على أساس من القصص الشعبى النرويجى القديم ، وأنهما كانتا حافلتين بالاغانى الشعبية التى كانت منتشرة على ألسنة الناس حينئذ ٠ وقد ترجمت «وليمة سولهوج» الى اللغة السويدية ومثلت فى السويد وبلجيكا والدانمارك ؛ فكانت سببا فى شهرة ابسن خارج بلاده ٠

غير أن النجاح الذى لاقته « وليمة سولهوج » لم يتكرر عندما قدم مسرحيته التالية « أولاف ليلجكرانز » وهى دراما رومانسية تصور صراعا عاطفيا بين امرأتين على حب فارس من الفرسان تفوز فيه الغانية اللعوب على الخطيبة المحبة الطيبة القلب ، ولكنه لم ييأس فقدم بعد عام واحد مسرحية « قراصنة هليجلاند » وهى تراجيديا مأخوذة عن أسطورة معروفة تصور امرأة قتلت حبيبها ثم انتحرت فبعث هو حيا ، وتحولت هى الى عروس من عرائس البحر ٠

وقد أجمع نقاد المسرح على أن بوادر الاتجاه نحو الواقعية فى مسرح ابسن ، قد تجلت فى ومضات ومواقف من تراجيديا «القراصنة» هذه ، غير أنها لم تتضح تماما الا فى مسرحية « كوميديا الحب » التى كتبها فى عام ١٨٦٢ ، وان كان قد أخطأ خطأ كبيرا عندما كتبها شعرا ، فأفقدها كثيرا من واقعيتها ٠٠٠ اذ ان الناس لا يتبادلون الحديث فى حياتهم العادية منظوما مقفى٠ وفى هذه المسرحية عرف الكاتب نفسه ورسالته٠٠٠ أعلن سخطه على النفاق الاجتماعى ، ودعا الى حرية الفكر والعلم كما سخر من الأسس المفتعلة التى تقوم عليها العلاقات الزوجية ٠

تتلخص المسرحية فى أن أرملة تملك منزلا كبيرا استأجره عدد من الرجال المتزوجين بينهم القسيس والموظف والتاجر وفيهم شاعر شاب ذو أفكار متحررة ٠ انهم جميعا يدعون الى حفل ساهر فى حديقة المنزل ، وهناك يدور الحديث عن الحب والزواج فيطلق ابسن العنان للشاعر

ويجرى على لسانه حديثا جريئا يتهم فيه الحاضرين جميعا بالرجعية والمادية والنفاق ويهاجم الأسلوب الذى انتهجوه فى حياتهم الروجية والمعيشية ثم يعلن أن مجتمعهم ليس الا مجتمعا زائفا مزورا ··· وتنتهى المسرحية نهاية أكثر جرأة وأكثر سخرية اذ يقرر زوجان ـ نتيجة لما سمعاه ـ أن ينفصلا وينهيا حياتهما الزوجية ، خوفا من المصير المحتوم لتلك الحياة !!

وقد قوبلت هذه المسرحية عند ظهورها بعاصفة من الاستياء وهوجمت هجوما عنيفا ، أدى الى حرمان « ابسن » من منحة حكومية كان مقدرا أن ينالها بصفته شاعرا وكان يعاونه على نيلها صديق له من الوزراء٠

كان النقد الرجعى الذى وجه الى مسرحية ابسن الواقعة الأولى هو أنها تقدم أول مرة على خشبة المسرح شخصية القسيس الموقرة فتسخر منها أو على الأقل لا توقرها التوقير الواجب ، وأنها استهترت استهتارا معيبا بالقاليد واستخفت برابطة الزواج المقدسة ، هاجمها الرجال الدين هجوما عنيفا لا هوادة فيه وتطلع « ابسن » الى المثقفين والى القلة الواعية من المفكرين ولكنهم خذلوه ، حتى ان الفيلسوف «مونارد» وصف المسرحية بأنها « ليست كوميديا ولا عملا قنيا بل هى مجرد هجوم وهجاء وسب علنى ! » ٠

واضطر الى كتابة مسرحية جديدة « المدعون » فى آخر عام ١٨٦٤ ، وقد لقيت اقبالا كبيرا خفف من حدة ثورته وجعله يرجىء هجرته فترة من الزمن ٠

وعندما ذهب الى ألمانيا لم تعجبه غطرسة الجنود الألمان الذين ملأهم النصر غرورا ٠ فاتجه لتوه الى ايطاليا حيث اختار روما مقرا نهائيا له ٠ وهناك كتب مسرحية « براند » فى عام ١٨٦٦ وأرسلها الى النرويج حيث مثلت ولاقت نجاحا كبيرا ، حمل الحكومة هناك على منحه ما كان يطلق عليه حينئذ « معونة الشاعر » ، وهو مرتب شهرى يضمن للشعراء المبرزين حياة مستقرة كريمة ٠

لم يكن ظهور مسرحية « براند » أقل من ثورة فكرية ، ولم تكن شخصية بطلها اقل من صرخة مدويه تشهد بافلاس روح المجتمع ولم يكن « براند » نفسه سوى ابسن ، فقد اعترف الكاتب الكبير ذات مرة بقوله : « ان براند هو نفسى فى أروع حالاتها » ٠

وفى عام ١٨٦٧ م كتب « ابسن » مسرحية « بيرجنت » وهى ــ على النقيض من « براند » ــ تقدم شابا وضيع النفس كذوبا أنانيا وصوليا يؤمن بالانتهازية وأن الغاية تبرر الواسطة ٠٠٠ واذا كانت مأساة « براند » قد نتجت عن عناده وتمسكه بمثله العليا ، فان مأساة « بير » قد ولدتها أنانيته كما ولدها جبنــه ٠٠٠ انه يغرى عروســا فى ليــلة زفافها وهو يراقصــها ويهرب بها الى مكان جبلى بعيد حيث يعتدى عليها ثم يتركها وحيدة لتجابه آلام الندم وعار الخطيئة ، أما هو فيهرب من النرويج ويجوب أنحاء الأرض ثم يعود ليلقى مصرعه فى عاصفة هوجاء ٠

وفى عــام ١٨٦٨ كتب ابسن مسرحيــة « عصبة الشباب » ، وهى شديدة الشبه بمسرحية « بيرجنت » وبطلها « ستنسجارد » هو « بير » نفسه منقولا الى عالم السياسة ٠٠ ٠فهو محام وصــولى يؤثر منفعتــه الشخصية ويخدع الطبقات الفقيرة بعباراته المعسولة ووعوده البراقة حتى اذا ما وصل الى غايته وأصبح من كبار الساسة ، تنكر لمبادئه ثم مثل الدور نفسه فى الطبقة الجديدة التى ارتفع اليها وحاول خداع ثلاث فتيــات دفعة واحدة ، ولكنهن اكتشفن أمره فى اللحظة الأخيرة ٠٠٠ وقد أثارت هذه المسرحية جماعات الاشتراكيين ؛ لأنهم وجدوا فيها تعريضا بهم ٠

وفى عام ١٨٧٣ ، عاد ابسن الى كتابة المسرحيات التاريخية ، فكتب « الامبراطور والجليلى » التى تقع فى جزءين وهى تصور الصراع فى نفس الامبراطور « جوليان » وعقله بين المسيحية والوثنية ٠٠٠ وليس فى هذه المسرحية أكثر من الصراع بين عقيدتين فى نفس انسان ٠

وفى عام ١٨٧٧ بدأ كتابة أولى حلقات سلسلة مسرحيات اجتماعية فقدم « أعمدة المجتمع » التى تصور قنصلا غنيا ، يتمتع بسمعة طيبة تجعله دعامة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ولكنه كان فى الحقيقة شريرا فاسدا يخون ابن شقيقة زوجته ويتهمه بالسرقة وفى اللحظة التى يقرر فيها ابعاده على سفينة معطوبة لينفرد بزوجته ، كان الجمهور يتجمع حول بيت القنصل هاتفــا بحياته فيطــل عليــه هذا من شرفة ليفاجئه معترفــا بالحقيقــة الرهيبة ٠٠٠ غير أن الجمهور المنافق سرعان ما يتغاضى عن « حماقات » القنصل ٠ أما زوجة ابن شقيقة زوجة القنصل فتصر على الرحيل ٠

وفى عام ١٨٧٩ ، قدم ابسن مسرحية « بيت الدمية » التى أثارت جدلا كثيرا واختلفت بشأنها الآراء اختلافا شديدا ٠ ان بطلة المسرحيــة « نورا » هى زوجة محام وأم لثلاثة أطفال ، نشأت فى بيت والدها مسلوبة الحقوق ثم عاشت فى منزل الزوج مسلوبة الحقوق كذلك حتى أصبحت

مجرد دمية ليست لها ارادة ٠٠٠ ولكن المسرحية لا تنتهى حتى تعلن فى قوة أنها لن تبقى فى هذا البيت وأن حياتها كدمية قد انتهت ؛ لأنها ستبدأ حياة جديدة تسترجع فيها ارادتها وشخصيتها وحريتها ٠

كان ابسن فى هذه المسرحية يتنبأ بأن المعجزة ستحدث ، وأن العالم سيشهد عهدا تتساوى فيه المرأة بالرجل٠٠٠ولكنه اتهم بأنه هادم الأسرة ومفسد المجتمع ٠

وفى عام ١٨٨١ ، كتب ابسن مسرحية «الأشباح» ، التى يقدم فيها طرازا آخر من النساء فى شخصية « مسز الفنج » ٠ انها تختلف عن « نورا » بطلة « بيت الدمية » اختلافا جوهريا ٠٠٠ فقد كانت الأولى قطة متوحشة أما هذه فسيدة دمثة الأخلاق لينة الجانب تقدس الزواج تقديسا وتخضع للمجتمع ٠٠٠ لقد اكتشفت بعد الزواج أن زوجها مدمن على الخمر ومصاب بمرض الزهرى ، وأنه غرر بخادمتها فأنجبت منه طفلة ٠

وفى عام ١٨٨٢ ، قدم ابسن مسرحية « عدو الشعب » التى برهن فيها على أن الأقلية الواعية قد تكون على حق وأما الأغلبية الكبرى فهى دائما على ضـــلال ٠

ان مسرحية « عدو الشعب » تبرهن على أرستقراطية ابسن الفكرية وهو اذ ينهيها بقول بطلها الطبيب : « ان أقوى رجل فى العالم هو الذى يواجه الحياة وحيدا » انما يدل على طبيعة تفكيره ٠

وفى عام ١٨٨٤ ، قدم ابسن مسرحية «البطة البرية» ، وهى مسرحية تميل الى الرمزية وأتبعها فى عام ١٨٨٦ بمسرحية « روزمير العجوز » ، وفكرتها أن التقاليد لا تفعل الا أن تشل ارادة الانسان ٠ ثم بمسرحية « سيدة البحر » فى عام ١٨٨٨ وفيها يدعو الى الحريـة مع المسئوليـة الكامـلة ٠

وفى عام ١٨٩٢ ، قدم مسرحية « البناء العظيم » وهى دراما رمزية أخرى ضمنها ابسن كثيرا من تجاربه ٠

وفى الفترة من عام ١٨٦٦ حتى عام ١٩٠٠ ، كتب ابسن مسرحيات هى « أيولف الصغير » و « جون جبرييل بوركمان » و « حين نبعث نحن الموتى » ٠

وتمتاز مسرحيات ابسن بميزات واضحة هى :

١ ـ أن المسرحيات التاريخية منها تبدأ بداية عاصفة . أما المسرحيات الاجتماعية فتبدأ هادئة مشوقة معتمدة على الحوار الدقيق .

٢ ـ أن ابسن لزم فيها وحدة الزمان والمكان كما وضعها اليونانيون .

٣ ـ أنها محكمة البناء المسرحى احكاما دقيقا لا يجاريه فيه مؤلف آخر .

٤ ـ أن الحبكة فيها تبدأ بالقرب من نقطة الزمن ، مما يساعد على اخضاع المسرحية للوحدات الفنية المسرحية الثلاث وهى الزمان والمكان والحدث .

٥ ـ أن شخصياتها من النماذج الانسانية العالمية الطبيعية .

قال برنارد شو : « ان أستاذى النرويجى هو أول من رفع مشكلات المجتمع الى خشبة المسرح وقد ظل حتى آخر حياته الأدبية قادرا على انتزاع الاعجاب ويتمتع بعقليه خصبة » .

ان ابسن له فضل كبير على المسرح الحديث ، فهو فضلا عن أنه أول من عالج المشكلات الاجتماعية فى مسرحياته ، كان أول من كتب مسرحية الفكرة التى قلده كثيرون فى كتابتها فيما بعد .

★★★

مسرحيـــة بيرجنـت

● يبـدأ زمان أحـداث المسرحيـة فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وينتهى حوالى عام ١٨٦٧ .

● وتدور الأحداث فى أمكنة عديدة مختلفة مثل جدبر اندسدال والجبال المحيطة بهـا فى النرويج ، شاطىء مراكش ، الصحراء الكبرى بأفريقيا ، مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة ، وفى البحر .

● تعتبر بيرجنت قصيدة خيالية طويلة ، لم يقصد ابسن أن يضعها لتمثـل على المسرح ؛ ولكن المخرجين فتنـوا بشعرها الجيـد الرائع فراحوا يتبارون فى اخراجها على المسرح اخراجا شاعريا رمزيا .

● كتبت هذه القصيدة عام ١٨٦٧ وفى عام ١٨٧٦ أعدها ابسن اعدادا مختصرا لتعرض على مسرح كريستيانيا،حيث صاحبتها موسيقى من

تأليف جريج وبالتدريج أصبحت هذه المسرحية من المعالم الهامة فى أعمال المسارح الاسكندنافية الرئيسية ٠

● طبعت أول ترجمة لهذه الرواية باللغة الألمانية عام ١٨٨١ وباللغة الانجليزية عام ١٨٩٢ وبالفرنسية عام ١٨٩٦ ٠

● مثلت فى فرنسا وانجلترا على أساس الاعداد المختصر لها ٠

● فى سنة ١٩١٦ أخرجها رتشارد مانسفيلد فى شيكاجو بدون أى تعديل أو اختصار ٠

● تعتبر بيرجنت من المسرحيات الرمزية الساخرة، بالرغم من أن مؤلفها كتب عنها يقول : « ان بيرجنت شخص حقيقى عاش فى « جدبر اندستال » فى أواخر القرن الماضى أو أوائل القرن الحالى (التاسع عشر) ان اسمه لا يزال معروفا بين الفلاحين فى تلك المنطقة أما رحلاته فلا يعرف عنها شىء أكثر مما يوجد فى القصص النرويجية الخيالية » ٠

★★★

كان بيرجنت غلاما نرويجيا مزارعا فى الثامنة عشرة من عمره ، مفتول العضل ممتلئا حيوية وهو مع حيويته هذه غلام كسول متراخ جعجاع كذاب يقطع أيامه فى الأوهام والأحلام ومفاخرة الناس بالباطل ولا يفتأ يخاشنهم ويتشاجر معهم لأتفه الأسباب ، وبالاضافة الى كل ذلك كان أنانيا نزقا مراوغا لا عهد له ولا وفاء عنده ، أما ميزته الوحيدة فهى أنه كان يتمتع بقوة خيال شاعرية كانت تضفى عليه سحرا لا يقاوم ٠

وفى ذات يوم أخذت أمه الأرملة « آسى » توبخه من أجل كسله وتراخيه واهماله شئون المزرعة ، فما كان منه الا أنه أخذ يسخر منها ويستهزىء بها قائلا : « يا أمى يا حبيبة القلب يارثة الهيئة يا بشعة المنظر ٠ انك صادقة فى كل ما تقولين فلا تحملى همى أبدا وما عليك الا أن تتذرعى بالصبر وتأخذى بأهداب الأناة ، فلسوف أصبح يوما ما قيصر عظيم الجاه رفيع الشأن آمر وأنهى وأتصرف فى شئون الخلق » ٠

ولكن أمه تنظر اليه شزرا ثم تعيره بأن كسله وتراخيه قد ضيعا عليه « انجريد » ، تلك الفتاة الجميلة الفاتنة التى ستزف الليلة الى عريسها٠ وما يكاد بير أن يسمع ذلك من أمه حتى يهدد ويتوعد ٠٠٠ انه يحب هذه الفتاة حبا جنونيا ، ولذلك فهو يقسم بالذهاب الى العرس ليجعله عرسا مشئوما على أصحابه ! ٠

ثم ينطلق الغلام الى مكان العرس بعد أن حمل أمه بيديه القويتين ليضعها فوق ذروة من العشب ؛ كى لا تحول بينه وبين ما يريد من شر .

ويحاول بير أن يقتحم مكان الاحتفال ، ولكن المشرفين عليه يحولون بينه وبين الدخول لقذارة ملبسه ورثاثة هيئته ، ولما يعرفون عنه من ميله الى المشاكسة والعراك فينتحى بير ناحية حيث تعطف عليه الفتاة سولفيج احدى الوافدات على العرس؛ولكنها لاتكاد أن تسمع من صويحباتها ما يلوكه الناس عنه حتى تعرض عنه هى الأخرى فيشتد غيظه ويحس بالاهانة تدمى فؤاده فينطلق الى حيث يعب كثيرا من الخمر ملتمسا السلوان فى الكأس بعد أن فقده فى الناس . ثم يعود بعد قليل الى مكان الحفل وفى نفسه ما فيها من الحنق والغيظ ولا يكاد أن يحس الناس منه ما يعتزمه من فتك وبطش؛حتى يتقدم اليه العريس بنفسه راجيا منه أن يذهب الى حيث حبست العروس نفسها فى أحد مخازن الحبوب ليأتى بها بالرغم منها . ويرحب بير بهذه الفرصة المواتية وينطلق الى المخزن الذى حبست العروس فيه نفسها .

وتقبل بعد ذلك آسى والدة بير وهى تحمل هراوة غليظة وتقول انها انما جاءت لتخلع على ولدها لقب الفروسية بدقه بهذه الهراوة دقا عنيفا موجعا ، وبينما هى تقول ذلك اذا بولدها يحمل العروس انجريد على كاهله العريض القوى ويجرى بها فوق الجبل القريب فتصيح به أمه : « أسأل الله أن تسقط سقطة يدق بها عنقك ... انتبه لنفسك أيها الغبى وقدر لرجلك قبل الخطو موضعها ... احذر أن تنزلق أيها الشيطان » . ولكن بير لا يبالى بشىء .. لقد فاز بالفتاة وقضى منها وطره ! .

ولكنه سرعان ما يزهد فيها فيتخلى عنهـا ليبدأ سلسلة عجيبة من المغامرات . لقـد قامت ضد بير كل البلدة وعلى رأسها هجستاد والد انجريد التى سلبها شرفها وتركها حطاما ، فلم يكن هناك بد من أن يهجر بير البلدة ويهيم على وجهه فى الجبال والفلوات .

ويشعر بير بالوحـدة والضياع وبالتدريج يفقد احساسه بالواقع وأحلامه ويتفتح عقله لعلاقات أخرى مع عالم آخر .. عالم لا يمت للواقع بصلة وبينما هو هائـم على وجهه يلتقى بفتاة من عالم الخلائق الشـائهة فيسحر بها؛بالرغم من أنها تحمل ذيلا كذيل البقرة وتقوده الفتاة الى والدها الملك الذى يعلمه الفرق الأساسى بين الانسـان والمخلوق الشائه . يقول

له الملك ان الانسان يدين بالفلسفة التى تنادى بمعرفة الانسان لحقيقة نفسه ، ولكن مفتاح السر فى مملكة الخلائق الشائهة هى أن تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء ٠

ويتزوج بير ابنة الملك ثم يهجرها بسرعة ويطلق ساقيه للريح وبينما هو فى طريقه يقابله مخلوق غامض شائه المنظر ، لا يتبين أحد رأسه من ساقيه ولا وجهه من قفاه هذا الغول المفزع العجيب المدعو بويجن يأخذ على بير سبيله فلا يدعه يمضى كما يريد ٠٠ انه فى طريقه أينما ذهب وكيفما سار ليحول بينه وبين هذا الجبل الشامخ الذى يحاول أن يرقاه ٠ ويأخذ الضيق والملل ببير كل مأخذ ، وفى لحظة من لحظات غضبه يتحدى بويجن فى عزة وكبرياء أن يبارزه ولكن الغول الشائه يسخر من بير قائلا : « ان بويجن العظيم ينتصر دائما ولا يحارب أبدا » ويأخذ بويجن فى اسداء النصح لبير قائلا : « لا تذهب فى حياتك فى الطريق المستقيم٠اختر دائما الطريق الملتوى لا تقل رأيك واضحا وحاول دائما أن تصـل الى ترتيب أو اتفـاق مع الآخرين ، لتكون وراءك قنطرة تسـير عليها اذا تأزمت الأمور » ٠

★★★

وينطلق بيرجينت ليذرع وجه الأرض من جديد ، فها هو ذا يبيع العبيد فى أمريكا والأصنام فى الصين كما يبيع فيها الخمر والانجيل ! وتمر الأعوام فيقتنى الأموال الجمة التى ينشـلها منه بعض النشالين ؛ فيحتال لاستعادة ما فقد بأن ينتحل شخصية أحد الأنبياء العرب ، ليبتز ما تصل اليه يده من أموال من تجوز عليهم حيلته من العربان الضاربين فى الصحارى الأفريقية ! ٠

لقد مضت الآن قرابة عشرين عاما منذ أن بدأ مغامراته فى الخارج انه لم يعد يؤمن بفلسفة « اعرف نفسك » ، فهو فى الواقع يسير حسب مبادىء الخلائق المشوهة ٠٠ تلك المبادىء التى جعلته يفقد نفسه فى طريق الانانية وحب الذات وفى هـذا الموقف يستعمل ابسن تعبيرا جميلا من تعبيرات شكسبير فى مسرحيـة رتشارد الثالث ؛ ليوضح نفسية بيرجنت التى أصبحت تنزع الى سياسة التوافق والتراضى والالتواء التى نصحه بها بويجن ! ففى وسط الصحراء الأفريقية نبتت فى ذهنـه فجأة خطـة جريئة يكسب من ورائها مالا وفيرا؛ولكنه لايستطيع أن يصبر على تحقيقها ٠٠٠ بل يريد أن ينفذها فى الحال ٠٠٠ ولكن لابد له من جواد ليطير به

الى حيث يريد وعندئذ يصيح كما صاح رتشارد الثالث « جواد !! أعطى مملكتى فى مقابل جواد ! » . ولكنه يتوقف لحظة ويصحح كلامه قائلا : « نصف مملكتى فى مقابل جواد » .

وعلى هذا النحو يضرب بيرجينت فى بيداء حياته التى لا يهدف فيها الى شىء فنراه يتوج ملكا على المجانين فى مستشفى الأمراض العقلية ، ثم يصبح عالما من علماء الآثار وهو بين يدى أبى الهول والأهرام فى مصر .

ويحس بيرجينت بالوحدة والشـقاء بالرغم من ثرائه ، فيفكر فى العودة الى وطنه النرويج فيستقل سفينة تمخر به عبـاب اليم ، ولكن السفينة ترتطم ببعض الصخور بسبب عاصفة هوجاء فيعلق بير ومعه طباخ السفينة بلوح ضعيف من الخشب لا يكفى الا لانقاذ شخص واحد فحسب ويدرك بيرجينت ذلك ، فلا يتورع من أن يركل الطباخ البائس ركلة تبعده عن لوح الخشب وتهوى به الى قرار البحر لينجو بنفسه من براثن الموت ، ويصل بيرجينت أخيرا الى النرويج بعد جهاد طويل متصل ضد كل شىء حتى ضد نفسه .

والآن وقد عاد بيرجينت الى مسقط رأسه بعد جهد وتعب ، ينظر المسكين فى صحيفة حياته فيجدها سلسلة من المغامرات والضرب بالقيم الأخلاقيـة عرض الحائط فيتمنى لو استطاع أن يقضى مغرب العمر فى راحة وصفاء بال وفى عزلة من الناس .

ولكنه يخرج يوما الى الفلاة فيلتقى بسباك حاملا صندوق أدواته وبوتقة كبيرة ليصهر الحديد .

السباك : مرحبا بك أيها الريفى العجوز .

بيرجنت : مساء الخير يا صديقى .

السباك : تبدو عليك العجلة الى أين أنت ذاهب ؟

بيرجنت : الى جنازة ميت .

السباك : حقا ؟ اسمح لى أن أسألك : هل تدعى بير ؟

بيرجنت : ان اسمى هو بيرجنت .

السباك : يا للمصادفة السعيدة ! انه بيرجنت بالذات ذلك الذى أبحث عنـه .

بيرجنت : ولماذا تبحث عنى ؟

السباك : الواقع أنني سباك كما ترى ويتحتم عليك أن تسقط في بوتقـــتي ٠

بيرجنت : لماذا ؟

السباك : لكي تصهر ٠

بيرجنت : أصهر ؟

السباك : نعم ان بوتقتي نظيفة وفارغة ٠ لقد حفر قبرك وأعد لك الكفن وسيصبح جسمك طعاما شهيا للديدان ، لقد أمرني المولى أن أبحث عن نفسك في الحال ٠

بيرجنت : مستحيل يحدث لي هذا بدون أي انذار ؟

السباك : لقد جرت العادة أن يختار يوم الميلاد ويوم الموت دون أن يخطر الضيف في أية حالة من الحالتين ! ٠

بيرجنت : هذا حق ، ان رأسي تدور ٠ أنت ٠٠٠

السباك : لقد سمعتني أقول لك اني سباك ٠

بيرجنت : أفهم الآن ٠٠ ليس لك اسم في حين أن الطفل المدلل تطلق عليه عدة أسماء ٠ والآن يا بير ٠٠ هكذا تكون نهاية رحلتك ومع ذلك فهذه خدعة دنيئة تستخدم معي ٠ اني أستحق شيئا أكثر رحمة فلست شريرا بالدرجة التي تظنها ٠ لقـد فعلت بعض الحسـنات القليـلة في هذه الدنيا ٠٠ وعلى أسوأ الفروض قد أكون رجلا سيئا ولكني لست فاجرا ولا أثيما بأية حال من الأحوال ٠

السباك : ولكن هذه هي المشكلة أيها الرجل ٠ فأنت لست فاجرا أثيما تستحق أن تلقى في قرار سقر ، ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى في بوتقتي ٠

بيرجنت : سمها كما تشاء ٠٠ بوتقة أو قرار سقر فالمعنى واحـد ومرارتهما واحدة في الفم ٠ اليك عني أيها الشيطان ٠

السباك : أنت لست فظا بحيث تظنني رجلا شريرا ٠

بيرجنت : رجلا شريرا أو ثعلبا ذا مخالب ٠٠٠ اختر ما يحلو لك منهما ٠ والآن ارحل واتركني ولا تتدخل في شئوني ٠٠ اتركني !

السباك : أنت يا صديقي واقع تحت تأثير خداع كبير نحن الاثنان في عجلة من أمرنا ولكي لانضيع الوقت سـأشرح لك

المسألة ٠٠ أنت كما سبق أن قلت بنفسك لست فاجرا كبيرا وانما تقف موقفا وسطا بين الخطيئة والصلاح وربما ٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) أنت الآن تقول كلاما معقولا ٠

السباك : تمهل قليلا أعتقد أننى لا يمكن أن أدعوك رجلا فاضلا ٠

بيرجنت : وأنا لا أدعى هذا بالتأكيد ٠

السباك : فلنقل اذن انك شخص وسط ٠ ان الفجرة بالمعنى الكبير لهذه الكلمة لا نقابلهم كثيرا فى هذه الأيام فان الاغراق فى الخطيئة والاثم يتطلب قوة فى العقل انه مجرد اللعب فى الوحل ٠

بيرجنت : هذا حق كله ٠

السباك : وأنت على النقيض من ذلك يا صديقى كنت ترتكب الاثم فى خفة ونزق ٠

بيرجنت : بالضبط يا صديقى ٠٠ يمكننا القول بأن الوحل قد تناثر على بعض الشىء ٠

السباك : الآن اتفقنا ٠ ان قرار صقر لم يجعل لأجلك أنت الذى لعبت فى الوحل ٠

بيرجنت : اذن فالنتيجة أنك ستتركنى وشأنى ٠

السباك : أوه ٠٠ كلا يا صديقى ٠٠ النتيجة أنك ستنصهر فى بوتقتى !

بيرجنت : ما هذه اللعبة الجديدة التى اخترعتها بينما كنت أنا متغيبا خارج البلاد ؟ ٠

السباك : انها التجربة والخبرة ٠٠ هى قديمة قدم الخليقة نفسها، وقد أعدت بقصد حفظ الأشياء فى المستوى المطلوب ٠ سأضرب لك مثلا يحدث أحيانا فى أشغال المعادن ان قالبا معينا يثبت فشله ٠ اذا وجدت زرارا لا تصلح له عروة ما فماذا تفعل فى هذه الحالة ؟

بيرجنت : ألقى بالزرار مع الأشياء التالفة ٠

السباك : بالضبط كان والدك مشهورا بأنه يلقى بالأشياء عبثا ودون اهتمام طالما وجد أى شىء يلقى به ولكن المولى على النقيض من ذلك يؤمن بالاقتصاد ولذلك فهو لا يلقى أبدا بشىء تالف طالما فى الامكان استخدامه كمادة خام ٠ والآن

كان المفروض أن تكون أنت زرارا فى سترة الدنيا ينطلق منها اشعاع مضىء ولكن عروتك كانت ضائعة · ومن أجل ذلك يتحتم عليك أن تلقى مع الأشياء التالفة فى النـــار لتصهر بك بعد ذلك من جديد ؟

بيرجنت : ولكن هل تعنى أنه يجب أن أصهر مع أى شخص من الأشخاص التالفين وأصب فى القالب من جديد ؟

السباك : هذا ما أعنيه تماما ، ما فعلناه لاناس كثيرين · ونفس الشىء يحدث لقطع النقود الفضية التى أصبحت ملساء من كثرة التداول ·

بيرجنت : ولكن هذا احتقار شنيع ، ألا تدعنى أذهب وشـــأنى يا صديقى ؟ زرار بلا عروة قطعة نقود ملساء ما قيمتها بالنسبة لمولاك ؟ ·

السباك : ان مجرد امتـلاكك روحا يكفى لاعطـائك بعض القيمة الحقيقية ·

بيرجنت : كلا ·· قلت لك كلا ·· سأكافح بكل قواى ضد ما تريد فعله اننى أفضل أى شىء الا هذا ·

السباك : ولكن ماذا تعنى بقولك « أى شىء » ؟ يجب أن تكون منطقيا لست أنت بالشخص الذى يستحق الذهاب الى السماء ·

بيرجنت : أنا مسكين ·· أنا لا أتطلع حقا الى مثل هذا السمو ولكن لن أفرط فى ذرة من نفسى فلأرسل الى المولى ليحكم على بأن أقضى فى الجحيم وقتا معينا لنقل مائة عام مثلا اذا كان من الواجب أن يكون الحكم قاسيا ، فهذا شىء يمكن احتماله اذ ان العذاب عندئذ سيكون معنويا فقط ، وربما لا يكون على درجة كبيرة من القسوة انها أشبه ما تكون بمرحلة انتقال يأمل الانسان بعدها فى الخلاص والعودة لقضاء أيام أكثر اشراقا وسعادة · أما الفكرة الأخرى أن أبتلع وأضـــيع وسط كتلة من المواد الغريبـــة فى هذه البوتقة التى تقول عنها وأفقد كل الخصائص التى تميز بيرجنت فهذا يملأ نفسى رعبا ·

السباك : ولكن ليست هناك حاجة يا عزيزى بير لتبدى هذا القلق وتنفعـــل كل هذا الانفعال بصدد مســألة صغيرة كهذه لانك لم تكن يوما من الأيام مسيطرا على نفسك ولا مالكا

لزمامها فلماذا يضيرك اذن اذا اختفيت من الوجود بعد موتـك ؟ ٠

بيرجنت : لم أكن مسيطرا على نفسى ها ٠٠ ها ٠٠ أنت تضحكنى كلا يا صديقى السباك أنت مخطىء ، أنت تصدر حكمك على غير أساس لانك اذا فتشت فى داخل نفسى فلن تجد سوى بير ٠٠٠ بير ولا شىء آخر سواه !

السباك : لقد صهرت هذين الشخصين منذ تقول : « فتش عن بيرجنت الذى تحدى القدر ففشل ومن أجل ذلك يجب أن يصهر فى البوتقـة » ٠

بيرجنت : ما هذا الهراء لابد أن الأوامر تعنى شخصا آخر يدعى جنت هل أنت متأكد تماما أنهـــا تخص بير ؟ ألا تخص شخصا آخر يدعى جون أو رازمس ؟

السباك : مستحيل ان الأوامر الصادرة الى من زمن بعيد والآن هيا ولا تضيع الوقت ٠

بيرجنت : كلا لن أطيعك افرض أنك وجدت فى الغد أن هذا الأمر يخص شخصا آخر فماذا يكون العمل حينئذ ؟ يجب أن تكون حذرا أيهـا الرجل الطيب وتذكر أية مســـئولية كبرى ٠٠٠

السباك : عندى أوامر صريحة ٠

بيرجنت : اذن أعطنى مهلة قصيرة ٠

السباك : لماذا ؟

بيرجنت : سأجد طريقة أثبت بها أننى طوال حياتى كنت مالكا لزمام نفسى ٠

السباك : تثبت ذلك ؟ ولكن كيف ؟

بيرجنت : بالوثائق والشهود ٠

السباك : أخشى أنك لن تقنع المولى ٠

بيرجنت : أنا واثق من اقناعه ! وعلى أية حال ، سنتكلم بخصوص ذلك الموضوع عندما يحين الأوان يا عزيزى أرجوك أن تقرضنى نفسى لمدة قصيرة وبعدها أعود اليـك ، نحن الرجال لا نولد الا مرة واحدة كما تعلم ، ومن الطبيعى أن نكافح من أجل الاحتفاظ بالنفس التى جاءت معنـا الى الحياة هل اتفقنـــا ؟

السباك : فليكن ولكن تذكر هذا : « سنلتقى عند مفترق الطرق التـــالى » ٠

وينصرف بيرجنت وهو فى لهفة للبحث عن شاهد يشهد فى صفه فيلتقى برجل عجوز محدودب الظهر يحمل حقيبة على ظهره ويدور حديث بين الاثنين ، نعلم منه أن هذا الرجل العجوز هو ملك الخلائق الشائهة وقد سلب منه كل ما يملك وأصبح متشردا فقيرا لا يجد ما يسد به رمقه ٠ ويجد بيرجنت الفرصة سانحة ، فها هو ذا والد زوجته ولابد أنه سيشهد فى صفه ٠ ويطلب بير الى الملك السابق أن يشهد بأنه ، أى بير ، كان دائما مالكا زمام نفسه ولكن الرجل العجوز يرفض ويذكره بأنه قد وهب نفسه للشهوات وأن المبدأ الذى ينادى « بأن تشبع رغبات نفسك الى درجة الاكتفاء » منقوش على قلبه ، وانه منذ الوقت الذى تشبع فيه بهذا المبدأ منذ ذلك الوقت عاش بيرجنت كما تعيش الخلائق الشائهة عيشة تطفح بالأنانية والخضوع للشهوات ويستنكر بير جنت هذا القول معترضا على وصفه بالمخلوق الشائه ، فيجيبه الرجل العجوز بأنه ليس من الضرورى أن تكون له قرون أو يتحلى بذيل ليكون مخلوقا شائها ، ولكن يكفى أن تكون روحه مطبوعة بالشهوة والأنانية ليصبح مخلوقا شائها ٠

وترن الكلمات فى أذنى بيرجنت ٠٠٠ بيرجنت مخلوق شائه يا للهول ! ويثور بير ضد الرجل العجوز متهما اياه بالجنون وناصحا له بالعلاج فى مستشفى فيجيبه الرجل العجوز بأنه فعلا يريد الذهاب الى المستشفى لولا أن هناك أمرا هاما يشغل باله ان ابنه الأكبر له تأثير كبير على الناس فى هذه المنطقة وهو يحاول أن ينشر فيهم أنه ، أى الرجل العجوز ، ليس الا أسطورة خرافية ٠ ويستطرد الرجل فى كلامه قائلا : انه كثيرا ما سمع المثل القائل : « ألد أعداء الانسان هم أقرباؤه » وقد أصبح يؤمن الآن بصدق هذا المثل ويطلب الرجل بعض المساعدة المالية من بيرجنت ولكن الأخير يخبره بأنه قد فقد كل موارده ، ولذلك فهو يعتذر له عن مساعدته ويدهش الرجل العجوز ويبادر بالقول : « مستحيل هل أفلست يا صاحب السمو ؟ » ٠

بيرجنت : لقد فقدت كل شيء ٠٠ حتى نفسى ٠٠٠ نفس الأمير بيرجنت مرهونة الآن ان الوزر يقع عليكم أنتم أيتها الخلائق الشائهة ٠٠٠ وهذه هى النتيجة التى يحصل الانسان من صحبة السوء ٠

الرجل العجوز : وهذا أمل آخر من آمالى يتحطم سأرحل مستجديا الناس وأنا فى طريقى الى المدينة !

وما يكاد الرجل العجوز ينصرف ، حتى يجد بيرجنت نفسه وجها لوجه السباك ويطلب بير الى السباك أن يجيبه على سؤال واحد : « ما معنى أن يملك الانسان نفسه ؟ » ٠

السباك : ان تمام السيطرة على النفس هو انكار النفس ٠ ربما لا تفهم المقصود من هذا التعبير فلنقل اذن ان السيطرة على النفس هى اتباع مشيئة المولى فى كل شىء ٠

بيرجنت : ولكن أفرض أن انسانا لم يقل له ما هى مشيئة المولى ؟

السباك : بصيرته هى التى تقول له ٠

بيرجنت : ولكن بصيرتنا كثيرا ما تخطىء ومعنى هذا أننا ننتكب الطريق السوى ٠

السباك : هذا عين الصواب يا بيرجنت لأن فقدان البصيرة يعطى الشيطان أقوى أسلحته ٠

بيرجنت : انها مسألة معقدة تمام التعقيد ولكن اسمع ٠٠ أصدقك القول بأنى كنت مسيطرا على نفسى ٠٠٠ قد يكون من الصعوبة بمكان ان أثبت لك ذلك ولكنى أستطيع أن أقول لك انه بينما كنت أتجول الآن وحيدا فى هذه المنطقة أحسست بوخزة مفاجئة من حربة الضمير فقلت لنفسى : « أنت رجل آثم » ٠

السباك : لقد عدت الآن الى النقطة التى بدأت منها ٠٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) كلا أعترف اننى من كبار الأئمة والعصاة ليس فقط بالفعل بل الفكر والقول أيضا لقد عشت حياة فظيعة فى الخارج ٠

السباك : قد يكون ما تقوله صحيحا ولكن هل يمكنك البرهان عليه ؟

بيرجنت : أعطنى فسحة من الوقت وسأحضر لك براهينى مكتوبة ومصدقا عليها من القسيس ٠

السباك : اذا أمكنك أن تفعل ذلك فستنجو من الصهر فى البوتقة ٠٠ ولكن الأوامر التى لدى يا بير ٠٠٠

بيرجنت : (مقاطعا) انها مكتوبة على ورق قديم جدا ، ولا شك انها مؤرخة منذ زمن بعيد عندما كنت أعيش حياة منحلة بوهيمية والآن هل ستدعنى أحاول ٠٠٠

السباك : ولكن ٠٠٠

بيرجنت : أرجوك أن تفعل معى هذا المعروف ٠

السباك : سأتركك الى مفترق الطريق التالى٠٠ليس أبعد من ذلك٠

ويلتقى بيرجنت بعد ذلك بأحـد رجال الدين فيعترف له بأنـه من المجرمين الخاطئين ، بل من أكابر العصاه الذين أوغلوا فى الاثم فهو قد مارس تجارة العبيد ٠

القسيس : هذا شىء بسيط ٠٠ أعرف أناسا مارسوا تجارة العقول والارادة ٠

بيرجنت : وقد صدرت الأصنام بوذا الى الصين ٠

القسيس : كلام فارغ مضحك أعرف اناسا نشروا عبادة أصنام أكثر قبحا ٠٠ نشروها فى العظات والفن والأدب ٠

بيرجنت : ولكنى نصبت نفسى نبيـــا ٠

القسيس : فى الخارج ؟ هذا لا شىء ٠ كل هذه الأمور الهينة تنتهى عند الصهر فى البوتقـــة ٠

بيرجنت : ولكن اسمعنى أيها القسيس ٠٠ لقد أنقذت نفسى من الغرق على حســاب نفس أخرى كانت تكافـــح الموت وتتشبث بنفس اللوح الذى كنت ممسكا به ٠٠ ان موت طباخ السفينة يقع نصف وزره على لأننى لم أقذف به فى اليم الا لكى أضمن لنفسى البقاء ٠

القسيس : أستميحك عذرا ٠ ما فائدة الكلام عن نصف خطيئة ؟ اسمع نصيحتى أيها الصديق ٠٠ أعطيتك مأوى وزادا فما الذى تستفيده من ذلك ؟ أتعلم أنهم فى المدة الأخيرة فى باريس اخترعــوا طريقــة للتصوير الشمسى وأنهم يستطيعون أن يصنعوا للشىء صورتين : صورة موجبة وصورة سالبة ؟ الصورة السالبة تبدو للعين قبيحة ومع ذلك فهى تشبه الصورة الموجبة شبها كبيرا وبطريقــة التحميض تتحول الى صــورة موجبة ٠ وهكذا الروح ٠٠ لو أن روحا صورت نفسها صورة سالبة فانهم لا يعدمون اللوح من أجل ذلك ولكنهم يرســلونه الى لأقوم بعملية التحميض فى المحاليل الكيماوية المختلفة حتى يتم تحويله الى صورة موجبة ٠ ولكن اذا كان نصف اللوح ممسوحا كما فى حالتك ، فلا تجدى فيه المحاليل الكيماوية ٠

بيرجنت : وعلى ذلك فان المرء يجىء عنـدك وهو أسود كالهباب ويخرج من لدنك وهو أبيض كالثلج · هل يمكننى أن أسألك عن اسم الشخص الذى تنوى الآن القيام بعملية تحويل صورته السالبة الى صورة موجبة ؟

القسيس : اسمه بيرجنت ·

بيرجنت : بيرجنت ؟ حقا · هل يملك بيرجنت زمام نفسه ؟

القسيس : ان يقسم على ذلك ·

بيرجنت : هو رجل صـادق ·

القسيس : ربما أنت تعرفه ·

بيرجنت : كما أعرف اناسا كثيرين ·

القسيس : أين رأيته آخر مرة ؟

بيرجنت : فى الرأس ·

القسيس : رأس الرجاء الصالح ؟

بيرجنت : أجل ولكن أعتقد انه على وشك الرحيل من هناك ·

القسيس : يجب على اذن أن أرحل فى التو لألحق به هناك (ينصرف نحو الجنوب) ·

بيرجنب : (لنفسه) يا للغبى ! لقد ذهب مسرعا الى طريق خاطىء سوف يصاب بخيبة أمل · كم أنا مسرور اذ جعلت هذا الحمار لعبتى · انه يظن نفسه أعلى منى مرتبة دون أن يكون عنده مبرر لذلك سيفقد وظيفته ولا شك اذا لم يكن حريصـا ·· ولكن ·· لماذا لا أجد نفسى مطمئنا تمام الاطمئنان ؟ يخيل الى أنى فقدت أرستقراطية النفس الى الأبـــد ··

(يظهر نجم مضىء يقطع السماء بسرعة ثم يختفى · يومىء بير برأسه تحية له) بيرجنت يحييك أيها النجم الأخ الذى أضاء ثم اختفى ·

(يعتريه الخوف والاضطراب فيقفز مختفيا فى الضباب · بعد لحظة صمت قصيرة ينادى قائلا) :

ألا يوجد أحد فى الكون أو تحت الأرض ·· أو حتى فى السماء ؟ ·

(يتراجـع الى مكانه الأول ثم يلقى بقبعتـه الى الأرض ويأخـذ فى تمزيق شعر رأسه ويعود اليه الهدوء تدريجيا) ·

أية حقـارة وأية مسـكنة أن تعود النفس الى غيـاهب الظلمات وتصبح لا شيء · أيتها الأرض الجميلة اغفرى ان وطاتك قدماى طوال هذه السنين دون هدف · أيتها الشمس الجميلة التى أسقطت أشعتهـا المضيئة العظيمة على قوقعة فارغة لا يوجد أحد بداخلها ليسـتقبل منها الدفء والراحة ·· أبدا لم يكن صاحب البيت فى منزله · أيتها الشمس الجميلة ويا أيتها الأرض الجميلة ! عبثا كن عاقلا واستسلم للصهر فى البوتقة · لنفرض أنكما كنتما تدفئان وتطعمان أمى · الطبيعة كانت كريمة سخية بقدر ما كانت النفس بخيلة طماعـة · حياة الانسـان هى الثمن الغالى الذى يدفعه فى مقابل ولادته سأذهب الى فوق ·· الى أعلى قمم الجبال ، لأمتع ناظرى بشروق الشمس حتى يصيب الكلال عينى !

فقد يسقط الثلج عندئذ ويغطينى ، وقد يكتب على مثواى الأخير « هنا يرقد لا أحد » وبعد ذلك ·· فليكن ما يكون ·

وفجأة يجد بيرجنت نفسه أمام السباك عند مفترق الطريق ·

السباك : صباح الخير يا بيرجنت · أين قائمة خطاياك ؟

بيرجنت : أؤكد لك أنى أعلنتها بأعلى صوتى ولم أخف منها شيئا !

السباك : ألم تجد شاهدا واحدا ؟

بيرجنت : لم أجد سوى مصور متجول ·

السباك : اذن فقـد حانت ساعتك ·

بيرجنت : كل شيء قد انقضى · لقد شمت البومة رائحـة الفار · ألا تسمعها تطلق عليه النـار ؟

السباك : هذه دقات جرس الصباح ··

بيرجنت : « مشيرا باصبعه » ما هذا ؟ هذا الذى يضيء ؟

السباك : ليس الا ضوءا فى أحد المنازل ·

بيرجنت : وهذا الصوت الذى يشبه الصياح الحزين ؟

السباك : ليس الا صوت امرأة تغنى ·

بيرجنت : انها هناك ·· هناك سأجد قائمة خطاياى !

السباك : (قابضا على ذراعه) تعال معى لتنظم بيتك ·

وفى هذه الأثناء يكون الاثنان قد خرجا من الغابة ، ووقفا بجوار كوخ سولفيج وقد أخذ الفجر يشقشق ·

بيرجنت : أنظم بيتى ؟ هذا هو بيتى ٠٠ اذهب أنت ٠٠ ارحل بعيدا عنى ٠ مهما كانت بوتقتك كبيرة كالقبر فانها لن تسعنى ومعى خطاياى ٠

السباك : الى الملتقى اذن يا بير فى مفترق الطرق الثالث ولكن عندئذ ٠٠٠

يختفى السباك بينما يقترب بيرجنت من كوخ سولفيج ٠

بيرجنت : سواء سرت الى الوراء أو الى الأمام فالكون يبدو بعيدا ٠ وسواء خرجت أو دخلت فالطريق ضيق (يتوقف) ولكن ما هذا ؟ ٠ يخيل الى أنى أسمع صوتا عاليا لا يكف عن الصياح يأمرنى قائلا : ادخل ٠٠ عد ٠٠ الى منزلى ٠

ويخطو بيرجنت بضع خطوات ثم يتوقف مرة ثانية فقد تذكر فجأة ما قاله له بويجن ٠

بيرجنت : اختر دائما الطريق الملتوى ٠٠٠ هذا ما قاله بويجن (يسمع صوت غناء ينبعث من الكوخ) كلا ٠٠٠ هذه المرة سأسلك الطريق المستقيم بالرغم من كل شىء ومهما بدا لى هذا الطريق ضيقا

ويجرى بيرجنت ناحية الكوخ وفى نفس الوقت تظهر سولفيج على عتبة الباب وقد تقدمت بها السنون ٠ وكل بصرها حتى أصبحت تقودها عصاها ٠ تبدو سولفيج فى ثياب الكنيسة وقد حملت فى يمينها كتاب صلاة ملفوفا فى منديل ، ووقفت ساكنة منتصبة القامة وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ٠ وما يكاد بيرجنت يراها حتى يجثو على قدميها قائلا :

بيرجنت : أصدرى الحكم على خاطىء أثيم !

سولفيج : انه هو ٠ انه هو ٠ شكرا لله (تمد يديها لتحسس وجهه) ٠

بيرجنت : اجهرى بكل ما أسلفت اليك من آثام ٠

سولفيج : آثام ! لم ترتكب أى اثم يا ولدى العزيز ٠

السباك : (من وراء الكوخ) أين قائمة الخطايا يا بيرجنت ؟

بيرجنت : (لسولفيج) أعلنى خطاياى ٠٠ أعلنى خطاياى بأعلى صوتك ٠

سولفيج : (جالسة بجواره) لقد جعلت أيامى كلها أغنية جميلة . فليباركك الله لأنك عدت الى ، وليكن مباركا هذا الصباح المشرق الجميـــل .

بيرجنت : اذن فقد انتهيت .. مادمت ترفضين اعلان خطاياى .

سولفيج : سيمد اليك « واحد » يد المساعدة !

بيرجنت : (ضاحكا) انتهيت .. الا اذا استطعت أن تحلى لغزا .

سولفيج : وما هذا اللغز ؟

بيرجنت : اليك فاســمعى أتستطيعين اخبــارى أين كان بيرجنت منذ أن التقينا فى المرة الأخيرة حتى الآن .

سوليفج : أين كان ؟

بيرجنت : الرجل الذى كان يحمل علامة القدر على جبينه عندما فكر الله فى خلقه ! أيمكنك اخبارى أين هو ؟ اذا لم تستطيعى الاجابــة على هذا السؤال تحتم على أن أذهب الى مقرى الأخير فى أرض الظلال .

سولفيج : (مبتسمة) هذا اللغز من السهل حله .

بيرجنت : أخبرينى اذن أين كانت نفسى الحقيقيــة .. أخبرينى بأمانة وصدق أين كان « بير » الذى يحمل طابع الله على جبينـــه ؟

سولفيج : كان فى ايمانى ، وفى رجائى ، وفى حبى .

بيرجنت : ماذا تقولين ؟انه لغز هذا الذى تقولين .. هكذا تتحدث الأم عن طفلها !

سولفيج : أجل أنا أمه . أما أبوه فهو الذى يهبه الصفح من أجل صلوات أمه (يضىء شعاع من النور على وجــه بيرجنت فيصرخ فزعا) :

أوه .. أخفينى .. أخفينى فى حبك يا أمى !
(ويتعلق بها ويدفن وجهه فى حجرها . لحظة صــمت طويلة . تشرق الشمس) .

سولفيج : (تغنى برقة) : نم يا ولدى .. يا أعز أولادى ســأهز فراشك حتى تنام .... سأرعاك وأسهر عليك ... نم يا أعز أولادى واحلم أحلاما سعيدة ذهبية .

السباك : (من وراء الكوخ) ساقابلك يا بير عند مفترق الطرق الأخير وعندئذ سنرى ٠٠٠

سولفيج : (تغنى بصوت عال فى ضوء الشمس البهيج) سأهز فراشك حتى تنام ٠ سأحرسك وأرعاك فنم آمنا مطمئنا واحلم أحلاما جميلة يا ولدى ٠٠٠ يا أعز أولادى ٠

★★★

وتسدل ستار الختام ، بينما بيرجنت يبكى وينتحب نادما تائبا مستغفرا ، بعد أن وجد السلام والراحة والطمأنينة فى عودته الى حبيبته أو أمه سولفيج ، التى جعلها ابسن رمزا للكنيسة أو الدين أو الايمان ٠

★★★

ونحن اذ أمعنا النظر فى هذه القصيدة المسرحية ، أدركنا أنها رمز لهذه الملحمة اللانهائية التى تضطرب فى أعماق النفس البشرية ، أنها رمز للصراع الدائم بين رغبات النفس وشهواتها ، وبين ما تفرضه عليها القوانين والآداب والشرائع الدينية والدنيوية ٠ فلقد كانت حياة بيرجنت أشبه بالكابوس المفزع الذى يحاول النائم أن يبعده عن روحه وأن يتخلص منه بالاستيقاظ من النوم الكريه ، ولكن كل محاولات بيرجنت للخلاص من هذا الكابوس لم تزده الا تعقيدا وتمكنا له من نفسه ٠

فالعروس انجريد كانت من الرغبات الشهية الى نفس بيرجنت ، ولكنها لم تكن كل رغباته ، ولذلك فانه ما أن قضى وطره منها حتى زهدها ثم هام على وجهه أو هام به كابوسه حتى تزوج من ابنه ملك الخلائق الشائهة فماذا أطمعه فيها الا أنها ابنة ملك وما أن نالها حتى زهد فيها هى الأخرى وتركها ، لقد كان يجرى وراء غاية لا يدركها ولا يعرف كنهها كما يفعل الناس جميعا ٠ ثم ما هذا المخلوق العجيب بويجن الذى أخذ على بيرجنت طريقه ، وما معنى قوله انه ينتصر دائما ولا يحارب أبدا ٠٠ أيكون بويجن هذا رمزا للزمان ؟ أو رمزا للقضاء والقدر ؟ ٠٠ أيكون رمزا لما كتب على كل منا أن يعانيه فى هذه الحياة الدنيا ؟ أم يكون فصلا مخيفا مروعا من فصول هذا الكابوس الفظيع ؟ وهذا السراب من الطير ما خطبه ؟ وأجراس الكنيسة ما شأنها ؟ وتلك النسوة اللائى رددن الطير الجارح عن بيرجنت ، وذعر بويجن منهن بعد ذلك فأعلن استسلامه على حين فجأة ، هل يرمز هؤلاء النسوة الى الكنيسة ؟

وبعد أن عاث بيرجنت فى الأرض فسادا ومر خلال دائرة الخلائق الشائهة وخضع لقوى الشر والخطيئة وسراب الطموح الكاذب ، وبعد أن مرت السنون مسرعة به نحو الشيخوخة الكئيبة والوحدة القاتلة ، اذا به يجد نفسه مضطرا للعودة من نفس الطريق الى مسـقط رأسه ، ومكان ميلاده ، بحثا وراء حقيقة نفسه من جديد ٠ وفى طريق العودة يلتقى مرة أخرى بملك الخلائق الشائهة ، تلك الخلائق التى جعلها ابسن رمزا لقوى الشر الكامنة فى أعماق نفوسـنا البشرية الضـعيفة ولكن الملك لم يكن حينئذ الا شحاذا فقيرا متسولا ، وقد كان ذلك ايذانا بانحسار قوى الشر ٠

ويفيق بيرجنت لنفسه بالتدريج فيطرح وراء ظهره الأكاذيب الباطلة والأنانية القاتلة ، ويتخذ الاستقامة طريقـا له بدلا من الطريق الملتوى المعوج ٠ وأخيرا وبعد أن تخلص من قوى الشر التى كانت مسيطرة على روحه ، يجد فى نفسه الشجاعة الكافية والاستعداد التام لمقابلة سولفيج الفتاة الطاهرة التى تمثل قوى الخير والايمان بالله ٠ وما أن يقابلها حتى يطلب منها الصفح والغفران : لقد استيقظ ضميره وأصبح فى عنفوان قوته ، وها هو ذا بعد أن قطع طريق الندم والتوبة ، يصبح أهلا لأن يركع عند قدمى سولفيج التى بقدسيتها الملائكية تمنحه فرصة العودة الى نفسـه والخلاص من أدران الخطيئة والاثم ٠



الإدارة العلمية

فريدريك تايلور

١٩١١ م

التايلورية ٠٠ ثورة ومبادىء وطموحات

ان الدولة التى تسبق الى اكتشـــاف طرق أفضـــل لتدريب طبقـــة الاداريين والاحتفاظ بالروح المعنوية للعمال ، لابد أن تسبق الدول الأخرى فى مضمار الاستقرار والأمن والتقـــدم ٠

ومشكلة اكتشاف الأفراد الذين يصلحون للقيادة الادارية ، مشكلة أكثر أهمية بالنسبة للدول النامية عنها فى الدول المتقدمة صناعيا ، ذلك لأن المؤسسات الصناعية أو التجارية خصوصا ليست مجرد منظمات تهدف الى الوصول الى غاية اقتصادية فحسب ، ولكنها تشكيل يجمع جهود مجموعة من الناس للوصول الى غاية مثمرة فى المجتمع ومن هؤلاء الناس العمال ورجال الادارة والعملاء والمستهلكون أو بمعنى آخر المجتمع بأكمله ٠

تدل الأبحاث العلمية الحديثة دلالة قاطعة على أهميـــة الدور الذى يقوم به المدير أو المشرف ، بل ربما كان هو أهم عامل فى البيئة الاجتماعية النفسية للعمل ، اذ ان المدير يمثل الادارة فى أعين مرؤوسيه أو عماله ، كما أن درجة تكيفه النفسى ومدى مرونة شخصيته وأسلوب سلوكه ، يؤثر فى سلوك وانتاج من يشرف عليهم ويحدد مستوى الروح المعنوية بينهم ٠

القيادة الادارية الناجحة فى الواقع خليط بين أسس الادارة العلمية والعلاقات الانســـــانية ، مع الاستيثاق من أن أهداف التنظيم وأغراضه تستهدف المصلحة المشتركة لكل من يعمل فيه ، وهى فى الوقت نفسه ادارة متحركة تتصف بالمرونة وتتكيف مع الظروف المتغيرة ٠

وقد لمس فردريك تايلور واحـــدة من أهـــم مشـــكلات عصر الثورة الصناعية والتفوق الآلى محرزا بذلك انتصارا فى ميدان من أهم ميـــادين العمل الصـــناعى ٠

وفى ذلك الوقت كانت هناك مشكلة هامة تنحصر فى الشك الذى بدأ يتسرب الى النفوس فى أن الثورة الصناعية الهائلة ، أخذت تعجز عن تحقيـــق وعودهـــا ٠

فالثورة الصناعية التى أحدثت تغييرات جذرية فى أساليب الانتاج وساعدت ــ باتباع سياسة الانتاج على نطاق واسع ــ على زيادة نزوة الأمم التى اتبعت أساليبها ٠٠ هذه الثورة سرعان ما اصطدمت صداما مباشرا مع نقيضين هما :

١ ــ الحاجة المستمرة الى تحقيــق المزيــد من الربــح للمؤسســة الصناعية الراسماليـــة ٠

٢ ــ حاجة العاملين فى تلك المؤسسات الى زيادة دخولهم ٠

وبدأ تايلور دراساته التى ما لبثت أن اتخذت شكلا علميا وتبلورت فيما يعرف الآن بالادارة العلميـــة ٠

ولد « فردريك وينســلو تايلور » عــام ١٨٥٦ من أبوين أمريكيين ميسورى الحال ٠ وقد كانت أسرته تعده لأن يصبح محاميا ولكنه ــ من كثرة ما قرأ ــ أصيب وهو فى سن التاسعة عشرة بمرض فى عينيه،أرغمه على التخلى عن الدراسة ٠ وفى عام ١٨٧٥ بدأ فترة من التلمذة الصناعية استمرت ثلاث سنوات التحق بعدها بمصنع « ميدفيل » للصلب ، حيث استطاع خلال السنوات الست الأولى من التحاقه بذلك المصنع التدرج من وظيفة خراط الى منصب كبير المهندسين ٠٠ وهذه طفرة تصور لنا معدن هذا الرجــل ومدى كفايتــه ومقدرته فقــد كان مخترعــا ذكيا وصــاحب اكتشافات هامة فى صناعة الصلب ٠ وقد دفعه طموحه الى الاستزادة من العلم ولم يلبث أن حصل فى وقت فراغه على درجة ماجستير فى الهندسة٠

وقد كان يضطر خلال سنواته الأولى كعامل عادى الى مسايرة زملائه فى تعمد الحد من كمية الانتاج ٠ ولكنه بعد أن رقى الى منصب رئيس عمال آلى على نفسه أن يحمل رجاله على القيــام بنصيب عادل معقول من الانتاج وساعدته خبرته السابقة على أن يحدد ذلك النصيب المعقول ٠ ولم تكن محاولته تلك بالمهمة اليسيرة ، فقد كان تحديا لما يعتبره العمال حقا من حقوقهم التى لا تقبل الجدل أو المناقشة ، اذ كانوا هم الذين يحددون كمية الانتاج والوقت اللازم له ٠

وقد أدرك « تايلور » منذ البداية أن مشكلة الانتاج فى الصناعة الأمريكية أساسها الجهل : جهل رجال الادارة بما يستطيع العمال انتاجه بل وبما يجب عليهم انتاجه وجهل العمال بالطرق التى تؤدى الى زيادة انتاجهم لو قامت الادارة بمعاونتهم فى هذا السبيل وأن زيادة الانتــاج انما تعود عليهم بالفائدة والجزاء ٠

كذلك رأى « تايلور » أن العمل فى الصـناعة الأمريكية يقوم على وسائل ارتجالية مبنية على تقاليد بالية ، اذ كان الصانع يتعلم الحرفة فى أثناء تلمذته عن طريق تقليد زملائه فى المصنع دون تفكير أو تدريب • وما أن يتمكن من اتقان تلك الحرفة ، حتى يبدأ فى مسايرة زملائه فى طريقة العمل • ويقبل ــ دون احتجاج أو معارضة ــ ما قد يعطل انتاجه من تأخير فى ورود الخامات أو المهمات أو استعمال العدد التالفة •

وكانت الادارة لا تتدخل فى تحديد الانتاج بل تترك ذلك للعمال • فاذا رغبت فى زيادته لجأت الى وضع مكافآت مالية ، حتى تشحذ من همتهم • رأى « تايلور » كل هذه العوامل فبعث فى نفسه الرغبة فى القيام ببحث علمى اختار له أحد الخراطين ودأب على ملاحظته أثناء قيامه بالعمل محاولا بذلك تحليل عمله خطوة خطوة ، باحثا عن العوامل التى تؤدى الى بطء العمليـة • ثم انتهى من بحثـه هذا الى تقرير مبادئه المعروفـه بمبادىء « الادارة العلمية » ، وهى تتلخص فى أن الادارة يجب أن تنظر الى العمل على أنه مركب منطقى محدد بأسباب ومسببات •

ترك « تايلور » مصنع « ميدفيل » عام ١٨٩٠ وأخذ يقوم بأبحاث مستقلة فى الصناعة لعدة سنوات ثم التحق بشركة « بتلهيم » للصلب عام ١٨٩٨ ، وكانت من أكبر الشركات فى صناعة الصلب بأمريكا وقام فيها بتجربة جديدة لاختبار مبادئه • وقد أدت هذه التجربة الى نتـائج باهرة ، ذلك أنه تمكن من أن يجعل عاملا واحدا يقوم بتحميل سبعة وأربعين طنا ونصف طن من الصلب فى عربات السكة الحديد فى يوم عمل واحد فى حين كان خمسة وعشرون عاملا ــ قبل القيام بهذه التجربة ــ يحملون اثنى عشرا طنـا ونصف طن فقط فى اليوم • وتمكن بذلك من أن يوفر للشركة ٧٥ ألف دولار فى هذه العملية بالذات وأمكنه فى الوقت نفسه أن يزيد دخل العمال بنسبة ٦٠٪ ، وأثبت لأصحاب الأعمال عظم الفائدة التى تعود عليهم اذا ما عالجوا مشكلات الانتاج فى مؤسساتهم على أساس علمى سليم وذلك بدراسة طرق العمل دراسة ذكية مفصلة •

أخذ « تايلور » بعد ذلك يبشر بمبادئه • وقد ظهرت مدرسة تؤمن بتلك المبادىء ولم يحدث فى حياته العملية أن أضرب العمال احتجاجا على ما كان يقوم به من دراسات ، مع أن هدفه كان أن يتم العمل بأقل عدد من العمال وبأقـل قدر من التكاليـف •

ولكن بعض تلاميذه بلغت بهم الحماسة فى تطبيق مبادئه حدا أثار العمال ، فجعلوا يقاومونها خوفا من تنتهى الى الاستغناء عن خـدماتهم ،

وحدث فعلا أن قام اضراب كبير فى احدى الترسانات التابعة للحكومة ، وطلب « تايلور » شاهدا أمام لجنة تحقيق تألفت فى الكونجرس الامريكى لبحث التهمة التى وجهها العمال الى المشرفين من أنهم كانوا يدينون بمبدأ « التايلورية » ويحاولون تطبيقها عليهم • وكان مما قاله تايلور أمام هذه اللجنـــة :

« ليست الادارة العلمية هى ايجاد طريقة لانقاص التكاليف ولا هى صياغة قواعد لتنظيم العمل الاشرافى ولا هى دراسة الوقت أو الحركة ••• ولكنها ثورة عقلية شاملة من العامل وصاحب العمل نحو مشكلة الانتاج • وهذه الثورة تتطلب من كلا الطرفين ألا يعطيا الاعتبار الأول من تفكيرهما لمقدار الربح الذى يمكن أن يناله كل من الآخر ، بل يجب على الطرفين أن يعملا على زيادة الانتاج قبل كل شىء حتى يزيدا الأرباح ويزيد نصيب كل منهما منه • كما يجب على الطرفــين أن يعملا على القضاء على الأســاليب التقليدية البالية التى كانت تتحــكم فى سير العمل ، وأن يستبدلا بها الأساليب العلمية الصحيحة التى تعتمد على الأبحاث المنسقة » •

ولقد لقيت آراء تايلور فى انجلترا نفس المصير الذى لقيته فى أمريكا على يد اتحادات العمال •

ولعله مما يؤسف له أن المعهد القومى لعلم النفس الصناعى بانجلترا رأى أن يبــدأ عمله بضرورة الاشــارة الى أن أعماله لا تمت بصــلة الى « التــايلورية » •

ولم يزل هذا التحيز ضد مبادىء « تايلور » قائما فى كثير من دوائر العمل ، وان كانت بدأت تلقى أخيرا قدرا من التأييد فى بعض الأوســاط الصناعيــة النــابهة •

على أن تايلور نفسه ادرك فى آخر أيام حياته أن مبادىء الادارة العلمية تفتقر الى عنصر هام كى يكتمل لها النجاح • وقد حدا به ذلك أن يذكر « أن هناك نوعا آخر من البحث العلمى الذى يجب أن يلقى عناية فائقة ألا وهو الدراسة الدقيقة للعوامل النفسية التى تؤثر على العمال » •

والحق أن « تايلور » ــ بالرغم من كل ما قيل عنه ــ كان انسانا كريما واسع الصدر يحبذ سياسة دفع أجور مجزية •

وكان يرى انه من واجب صاحب العمل أن يفسح مجال الترقى أمام العامل النشيط •

وقد سجل لتايلور فى حياته ما يربو على مائة فكرة فى ميدان الادارة العلمية ، وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين (١٩٠٦)، وساهم فى تنظيم جمعية تقدم علم الادارة (١٩١١) ، التى أطلق عليها اسم « جمعية تايلور » بعد وفاته . وابتكر « تايلور » قواعد علمية لاختبار عمال مختلف الصناعات وعمال البيع . كما ابتكر أسسا ادارية أشرف بنفسه على تطبيقها حتى آتت ثمارها . وقد شرح ما وفق اليه من ابتكارات فى كتابين هما : « مبادىء الادارة العلمية » و « ادارة المصنع » .

★★★

مبــادىء الادارة العلميــة :

ظهر هذا الكتاب فى عــام ١٩١١ وكان شــاملا أبحاثــه ونظريتــه أو طريقته فى الادارة العلمية ، وقد بدأه تايلور بتحديد أهدافه من البحث فى مشكلات الانتاج الصناعى على الوجه الآتى :

أولا : توضيح الخسارة الفادحة التى يتعرض لها الاقتصاد القومى الأمريكى ، نتيجة لعدم الكفاءة الواضح فى كافة مظاهر الحياة الانتاجية ، وكان يقصد بهذا تبديد الثروة القومية نتيجة لعدم الرشد فى السلوك الانســانى للأفراد .

ثانيا : محاولة اقناع القارىء أن تيسير علاج ذلك يمكن باستخدام نظم الادارة العلمية وأساليبها وليس بالاعتماد على قادة عباقرة يمسكون بدقة حياتنا .

ثالثا : اثبات أن الادارة الحقة علم ثابت يعتمد على قوانين واضحة وأساليب ذات قواعد ثابتة لا يرقى اليها الشك ، وأن هذا العلم يمكن تطبيقه على كافة مظاهر نشاطنا الانسانى من أبسط العمليات الفردية الى أعقد الأعمال الجماعية .

فتايلور يرى أن « الثروة » متوفرة ويمكن أن تكفى الجميع من عمال وأصحاب أعمال ، على شريطة تصرف الجميع بحكمة والتصرف بحكمة هو علم الادارة فلا عجب اذن أن ينجذب تايلور المهندس تجاه الدراسات التى أصبحت تعرف باسم « الوقت والحركة » .

فبالنسبة له أصبحت تلك الدراسات بمثابة العمود الفقرى للادارة العلمية ، وقد أدى اغراقه فى ذلك الى تحويل كل اهتماماته الى الورشة الصناعية فى المؤسسة ، وبالتالى اهمال المستويات الادارية الأخرى التى قد تتعرض لخطر « الضـياع » والعمل الزائـد ٠٠ بالضـبط كالورش الصناعيـة للمؤسسـة ٠

ولكن ايمان تايلور ذلك ــ ونحن ننظر اليه الآن وبعد عدة عقود على ظهور كتابه ــ له مبرراته القويـة وتصورنا للحالة فى المجتمع الصناعى الأمريكى اذ ذاك هو وحده الذى سيساعدنا على ادراك اهتمامات تايلور ٠

لقد كانت المشكلة البارزة هى « علاقة العمال بالادارة وبأصحاب العمل » ، وكانت الأزمات المتتالية التى عانت منها تلك العلاقة والتى سبقت الاشارة اليها هى أبرز حقيقة تتضـح أمام أى منقب أو مهتم بالقضـايا الصناعية ، فليس من الغريب اذن أن يرى تايلور أن عداء العمال للادارة ولأصحاب العمل ، أدى الى اعتقاده الراسخ بأن من مصلحته ومن مصلحة زملائه من العمال أن يتباطأ فى عمله قدر استطاعته ٠ وهذا العداء ــ فى رأى تايلور ــ هو أخطر ما يواجه الحضارة الصناعية فتايلور لا يهمه من يملك المصنع بقدر ما يهمه أن لا يتوقف ذلك المصنع أو أن يهبط انتاجيته وهو هنا يذكر فى كتابه احدى الرسائل التى وجهها الرئيس الأمريكى « تيودور روزفلت » فى أحد احتفالات البيت الأبيض الى حكام الولايات ، والتى قال الرئيس فيها :

« ان الحفاظ على ثروتنا القومية يتوقف أساسا على كفاءتنا القومية »٠

وتايلور يقول ان تلك الجملة هى فى الواقع نبوءة وهى الرابطة القوية التى تشد اهتمامه فى كل صفحات كتابه ٠ فمنـذ البداية ٠٠٠ ودون أن يحاول البحث والتحرى عن الأسباب والدوافع السياسية للنظام الصناعى ، نراه ينجذب نحو نهوض المؤسسة الصناعية بعمالها وأصحابها نحو غاية للكمال ٠٠٠ وهذه هى قضـية تايلور ٠

ويبدأ تايلور كتابه بأبسط التحاليل فهو يدعو القارىء الى التفكير فى أحسن وسائل « الحرث » وليكن حرث حديقة بيته مثلا ٠ وهو يقول ان القارىء العادى لو قضى من ١٥ الى ٢٠ ساعة فى التفكير والتحليل ، لابد وأن يصل بالتأكيد الى معرفة علم حرث الحـديقة أى الى معرفة أحسن وسائل « حرث حديقة بيته » ٠ ويرى تايلور أن بساطة ذلك « العلم » هى التى تجعلنا لا نتصور أنه علم ، لأنه يبدو كقضية مفروغ منها ولكن الأمر

ليس كذلك بالنسبة لتايلور فان « علم الحرث » يعنى تحديد « المستوى النمطى » ليوم عمل وهذا يستلزم معرفة دقيقة بالحركات اللازمة لاتمام ذلك العمل • فالادارة العلمية — فى رأى تايلور — لبساطتها يجب أن تصبح أساسا تقوم عليه حياتنا اليومية ، وبالتالى يمكن تطبيق هذه الادارة العلمية على الحياة الصناعية مهما كانت درجة تعقدها •

وتايلور يبدو كفيلسوف من نوع جديد • فهو يدعونا الى تحسين حياتنا ويقول لنا ان تحقيق ذلك سهل ميسور : فنحن اذا اعتدنا على شىء من التفكير وقدر من الدقة ، أمكن لحياتنا أن تسير وفق « نظام » نسيطر فيه على حركتنا وعلى قوتنا ونحصل بموجبه على أقصى فائدة منهما ومن هذا المدخل البسيط يبدأ تايلور فى عرض نظريته ••• ان نقص كفاءة العمل هو سبب شقاء البشرية ، وعدم تمكنها من الافادة من التقدم العلمى الكبير الذى هيأته الثورة الصناعية • وفى الفصل الأول من كتابه يعرض لنا أسباب تلك المشكلة فى نقاط ثلاث :

النقطـة الأولى :

الاعتقاد الزائف المسـيطر على العاملين الصـناعيين والذى يجعلهم يعتقدون أن زيادة ناتج الأفراد والآلات ، لابد وأن يؤدى فى النهاية الى الاستغناء عن أعداد ضخمة من العاملين وتسليمهم الى مذلة البطالة •

النقطـة الثانية :

عدم كفاءة أساليب الادارة والتنظيم الذى خلق حاجزا كثيفـا بين الادارة والأفراد •

النقطة الثـالثة :

شيوع الأساليب غير العلمية فى حث الأفراد على العمل وتحفيزهم لتحقيق أهداف المشروع •

ويتابع تايلور شرح هذه النقاط بصورة أوضح •• فيقول : لقد أدى الاعتقـاد الزائف المسيطر على العاملين الى تصورهم بأن أى جهـد اضافى يبذله أى منهم يعد خيانة للمجموع ، لأنه سيؤدى الى « فصل » البعض ان عاجلا أو آجلا • ويرى تايلور أن هذا الاعتقاد مبنى على الخطأ • ويكفى للدلالة على عدم صحته أن أى اختراع فنى فى الصناعة أدى الى العكس •• أى الى زيادة فرص العمل وليس الى التقليل منها •

أما بالنسبة لتخلف أساليب الادارة ٠٠ فيرى تايلور أن فى الأخذ بأساليب نظامه فى الادارة العلمية ما يكفل تطويرها نحو زيادة الانتاجية ويؤدى شيوع الأساليب غير العلمية الى خضوع وسائل تدريب الأفراد على أعمالهم الى أهواء الملاحظين ورؤساء العمل والمهندسين ، وهذا يؤدى الى تضارب أساليب العمل وضياع جهد كبير ٠ وان استبدال تلك الأساليب بأسلوب مبنى على أسس علمية موحدة سيساعد على تنسيق جهود الأفراد وتوجيــه الجهد توجيها أمثــل ٠

فى رأى تايلور اذن أن أى عمل فى المؤسسة ، لا يمكن تحقيقه وفقا للطريقة العلمية الا بعــد تجربة أدائه مرتين أو ثلاثة حتى نصــل الى « مستواه » الصحيح ٠ فالتجربة لها المقام الأول فى نظرية تايلور وهذا ــ فى رأيه ــ يقع على عاتق الادارة العليا فهى التى « تأمر » وتوجه للانتاج، وقد نظن أن تايلور قد قصد بهذا الكلام تحويل الانسان الى مجرد آلة منفذة وقد نظن أنه يرى ترك مصائرنا بين أيدى قلة من العباقرة ٠٠٠ والحقيقة أن تايلور لا يؤمن بالمعجزات الميتافيزيقية التى تنتج لنا عباقرة من غير طينة البشر ٠٠٠ انه يؤمن بالانسان البسيط ويؤمن بأن خيال ذلك الانسان هو سر نجاحه وهو الذى يحقــق له كل تقدم فالمصــادفة لا تتحكم فى مصائرنا ، لأن الخيال لا يتحول الى واقع الا باتباع منهج علمى ٠

والرجــل الكفء هو الذى يفــكر دائما ويصر على النهوض بعملــه وتحقيقه على أفضل وجه وعلم الادارة ــ فى رأى تايلور ــ ينبع من هذا التفكير ومن هذا التســاؤل ٠

فاذا قامت الادارة العليا باتباع الأساليب العلمية والخبرات العلمية فى أعمالهــا ، فسيتطلب ذلك بالطبــع نشر الوعى الادارى بين كافــة المستويات ، حتى يتيسر للجميع ادراك الأساليب العلمية الادارية ٠

ويدرك تايلور مدى صعوبات تحقيق هذه الغاية : فهو يعرف أن الانسان كيان معقد يصعب التحكم فى سلوكه واذا كان البحث العلمى قد أرغمه على اختيار « انسان نمطى » ، فان هذا لا يعنى تشابه الجميع مع هذا الانسان النمطى الافتراضى وبين الانسان الحقيقى فلا ينبغى اطلاقا جعله مساويا للأفراد الممتازين وأفضل من هذا أن يكون ممثلا للأفراد العاديين ٠ ان مثل هذه الطريقة لا تعنى تثبيت هؤلاء الأفراد عند مستوى متوسط أو عادى ، لأن الطريقة العلمية تعنى محاولة الارتقاء بالأفراد العــاديين وتحويلهم الى عمال فوق المتوسط ٠

ولتحقيـق ذلك يعتمد تايلور أعظم اعتماد على قـادة الجماعـات الصغيرة ٠٠ أى الملاحظين والمشرفين ٠ وهو يرى « أنهم يجب أن يقضوا كل وقتهم بين الأفراد ٠٠ يحثونهم على التفكير المتقدم ويقودونهم ويوجهونهم لأداء أعمالهم على أحسن وجه » ٠ وفى رأيه أن ذلك يتطلب غاية الوضوح فى توزيع الأعمال والاختصاصـات حتى يعلم كل فرد من هو رئيسـه المباشر الذى يتلقى منه الأوامر والتوجيهات ، ولكنه يستدرج فيحذر من المبالغة فى ربط المرؤوسين برؤسائهم ولا غرابة فى هذا ٠٠٠ فتايلور من أنصار « النظام » الادارى لا « العلاقات الشخصية فالنظام الادارى يجعل التنظيم يعمل كالساعة ٠٠٠ كل جزء له وظيفة معروفة والعلاقات بين مختلف الوظائف تتم وفقا لروتين لا يتغير ٠

ومع ذلك ٠٠٠ فالانســـان فرد ، وفرديته ـ فى رأى تايلور ـ لا تتعارض مع النظام بل على العكس يصونها النظام ٠ فالضمان الوحيد للفرد هو أن عمله فى المؤسسة سيناسب مؤهلاته « الفردية » وشخصيته ومزاجه ٠٠ وتركيبه ٠ وهذا كله يتحقق بوضعه ضمن نظام علمى دقيق ومبنى على دراسة كيانه كفرد ومعرفة اتجاهاته وميوله ٠ فاذا تم ذلك ٠٠ رضيت نفســه فلا يشــعر بالكآبة والحزن ، واذا أحس بأن عمله القائم لا يرضيه نقل فى الحال الى عمل آخر يلائمه ٠ فالنظام العلمى يكفل له هذا ، ولكنه لا يحتمل منه الانتظار بل يتطلب دائما أفضـل الأعمال فى أحسن الأوقات ٠ وهنا لا تكون هناك حاجة لتدخل الرؤســاء والمديرين لفترات طويلة ولو حدث تدخل ، فانه يتم فى أضيق الحدود ٠

فالقائد الادارى ـ فى رأى تايلور ـ لا يجب أن يتلقى سوى تقارير مبسطة وملخصة ومقارنة ولكنها ـ برغم ذلك ـ تغطى كل الأمور الواقعة تحت سلطته ، وما دام النظام العام للمؤسسة يسير على روتين واضح ثابت، فان تدخل الرؤساء يكون على نطاق ضيق ٠٠ أى فى الأمور الاستثنائية فحسب على حد تعبير تايلور وهى تلك الحالات التى لم يســبق ادراجها ضمن النظام العام للمؤسسة ٠

ويشرح تايلور بعد ذلك طريقته العلمية ٠٠٠ وهو يرى أنها تقوم على ســبع دعامات هى :

١ ـ تقسيم الأعمال الرئيسية فى المؤسسة واللازمه لاتمام العملية الانتاجية ثم اعادة تقسيم كل منها الى « أعمال فرعية » وهكذا حتى نصل الى العناصر الأوليـة للأعمال المختلفـة ٠

٢ ـ دراسة وتحليل تلك الأوليات والفروع والأصول ، حتى يمكن الوصول الى تحديد ما لا حاجة له ، أى حصر العمل الزائد الذى لا تحتاجه العمليـة فعـلا ٠

٣ ـ دراسة وتحليل طرق أداء الأفراد للأوليات والفروع والأصول بحيث يمكن ـ مع مراقبة أعداد متفاوتة من الأفراد ـ الوصول الى أفضل طريقة لأداء كل حركة مع تحديد الوقت اللازم لأدائها ٠

٤ ـ انشاء سجلات للأعمال المختلفة والأوقات الزمنية اللازمة لكل منها ، حتى يمكن الوصول الى المستويات النمطية لكل الأعمال ٠

٥ ـ اضافة وقت اضافى لمواجهة المفاجآت أو الحوادث غير المتوقعة٠

٦ ـ تحديد نسبة أخرى من « الزمن الاضـافى » لمواجهة نقص التدريب أو عدم التعود على العمل ٠

٧ ـ دراسة وتحليل الأدوات والأحوال المحيطة والمرتبـطة بكل عمل ، حتى يمكن العمل على تحسينها تحت كل الظروف ووضع مستويات نمطيـة لهـا ٠

ثم يشرح تايلور هذه الطريقة بافاضـة ويعقد مقارنة بينها وبين الطريقة العشوائية السائدة ٠٠ ويقول : ان أهم ميزة لطريقتى العلمية هى أنها تعطى زمام المبادأة للادارة العليـا للمؤسسة فباستبدال طريقة الأنماط بالعشـوائية والشخصية تستطيع الادارة أن تتحكم فى سـير العمليات الانتاجية وتوجيهها وفق رغبتها وبمزيد من الدقة ، فان هذا يعنى أن لهذه الطريقة مزايا أربعا :

١ ـ أنها تجعل لكل عمل « نظاما » علميا بدلا من العشوائيـة السـائدة فى الادارة ٠

٢ ـ أنها تختار وتدرب الأفراد علميا على تأدية أعمالهم بدلا من ترك ذلك للأهواء الشخصية للملاحظين ٠

٣ ـ أنها تخلق رابطة بين كافة الأفراد ٠٠ أساسهـا « النظام العلمى » لتـأدية سائر الأعمال ولا تترك التعاون بينهم فريسـة للأهواء والظروف ٠

٤ ـ أنها تقسم المسئولية بوضوح بين الادارة والعاملين بدلا من تركها حائرة بين الاثنين ٠

ويضرب تايلور أبسط الأمثلة وأعقدها لتجربة تطبيق طريقته فيبدأ بعملية « حمل كتل الصلب » في الورشة وهي من أبسط العمليات التي لا تستخدم فيها العمال سوى أيديهم ويقرر تايلور أنه بمراقبة عمل حوالى ٧٤ عاملا يشتركون فى تلك العملية ، لاحظ أنهـا تتكون من الخطوات التاليــــة :

١ ـ الانحناء وتلقى ما زنته ٩٢ رطلا تقريبا من كتل الصلب ٠

٢ ـ حمل ذلك الوزن والسير به بضع خطوات ٠

٣ ـ الانحناء لالقاء الكتلة المحمولة فى مكان آخر تنقـل منـه الى داخـل الورشـة المختصـة ٠

ويقرر تايلور أنه بدراسة حركات هؤلاء الرجال أثناء العمل ، استطاع أن يصل الى توقيت دقيق للعملية بجميع خطواتها ٠ ثم اختار عاملا يمتاز بقوة الجسد وطلب منه العمل تحت اشرافه واتباع تعلياته بدقة وبالفعل وقف تايلور يرشد ذلك العامل ويقول له متى ينحنى ٠٠ متى يقف ٠٠ متى يسير ٠٠ متى يستريح ٠ الـخ ٠

وهكذا تحقق تفوق هائل فى كفاءة عمل هذا الفرد ، ففى البداية كان متوسط ما يحمله هذا الفرد من كتل الصلب فى يوم من أيام العمل هو حوالى ١٢ طنا ٠ وبعد ذلك ٠٠٠ وبعد تطبيق الطريقة العلمية ٠٠ أمكن هذا العامل أن يحمل حوالى ٤٧ طنا فى يوم عمل وحقق لنفسه أجرا أضافيا يوازى ٦٠٪ من أجره اليومى ٠

ويستخلص تايلور من ذلك أن صلة الانسان بالآلة قابلة للتغيير ، نتيجة للوعى الانسانى بعمل الآلة والقدرة على أقلمة النشاط الانسانى تبعا لمواصفات العدد والآلات واحتياجات العمل الأصلية ٠

وقد ظن الكثيرون من الباحثين أن تايلور قد ساعد بهذا الرأى على تسخير الانسان فى خدمة الآلة ٠ وليس العكس ٠٠ وهذا قصور بعيد عن الحقيقة ٠ فلم ينس تايلور أبدا أن الآلة من صـنع الانسان ولكن تعقد العملية الانتاجية واتساعها ، يمكن أن يحول الآلة الى عبء على الانسان ما لم يكن يعرف جيدا كيف يمسك بزمامها ويسيطر عليها ٠ والسيطرة على الآلة معناه النفاذ فى أعماق شىء جامد لا احساس فيه ومحاولة تفهم نظامه وميكانيكيته وهذا أمر شاق يتطلب جهدا كبيرا خلافا لما يعتقد ٠

ولتوضيح ذلك ، يضرب تايلور مثلا بالعامل الذى يقف فى مكان معين من خط الانتاج ويقتصر عمله على انزال يده كل فترة محددة بدقة ليضع جزءا بسيطا فى هيكل معدنى يمر أمامه بنظام ميكانيكى تحكمه الآلة التى تحمله من قسم لآخر • فالآلة فى هذه الحالة لا يمكنها فهم العامل ولن تستجيب الى رجائه وتوسلاته ، ولكنها تستجيب الى النظام الذى فرض عليها وما لم توضع طريقة تنظم صلته بالآلة ، فاننا سنفقد حتما سيطرتنا عليها ونصبح حينئذ عبيدا لها •

ويتبع تايلور نفس هذا المنطق الذى أثبت به كيف تبدد جهود البشر فى اثبات أسباب استنزاف الثروات المادية وضياعها • فالحركات الزائدة •• أو غير المنظمة •• أو غير الموجهة للناس هى المسئولة عن هذا الضياع • هذا يعنى أن الانسان هو المسئول الأول والأخير عن عمله وعن مدى ما يحصل عليه من الثروات المادية • وهذه المسئولية تقتضى ضرورة توعية الأفراد ، لأن الوعى ينبغى أن يتوفر للجميع من رؤساء وعمال على حد سواء فهو الذى سيساعد على خلق روابط سليمة بينهم •

ويضرب تايلور أمثلة لتأكيد ذلك من تجاربه الخاصة فى مصنع « ميدفال » للصلب ، فهو عندما لجأ الى وسائل الاقناع قد كسب رضاء العمال وودهم وهذا يعنى تفوق هذه الأساليب على أساليب القهر والضغط التى كان يلجأ اليها بعض الملاحظين والمشرفين فى أقسام أخرى من المصنع • والجانب الانسانى — الذى يركز عليه تايلور دائما — لا يجب اغفاله نهائيا • وقد قيل فى نقد تايلور انه قد حول العلاقات الانسانية — فى نظريته — الى شىء أشبه بالعلاقات الميكانيكية التى لا روح فيها وذلك باخضاعه العمل الانسانى لأنماط دقيقة شديدة الصرامة فى توقيتها •

وقد رد عليه تايلور عدة مرات فى كتابه وبطرق غير مباشرة حين أشار الى تفوق الانسان دواما اذا توفرت له القدرة على التحكم الدقيق فى أعماله • وليس هناك ما يمنع من مساعدة الآخرين بواسطة الخبراء على تحقيق هذا التحكم •

ويدرك تايلور ما يقال عن النفقات الباهظة التى تتكبدها المؤسسة فى حالة لجوئها الى الأخذ بالأساليب العلمية ، بسبب حاجتها الى أشرطة تسجيل ونماذج مطبوعة وكتب وخبراء دراسات وقت وحركة ••• الخ •

ولكنه يثبت لنا أن استخدام طريقته ـ رغم كافة التكاليف السابقة ـ قد حقق وفورات هائلة كما ظهر فى شركة ميدفال للصلب وشركة نبلهايم للصلب وهما الشركتان اللتان اتبعتا طريقته فترة ما ، فقد زاد الانتاج فى أحد الاقسام ووصلت وفوراته الى ما قيمته ٣٦ ألف دولار سنويا ٠

ويؤكد تايلور أن فى تعميم طريقته ما يضمن الحصول على المزيد من الوفورات ٠ وحدوث ارتفاع أكيد فى مستوى دخول الافراد العاملين فى المؤسسة ٠ وهو يستند فى هذا الرأى الى تجربته الشخصية والى النتائج التى حصل عليها عندما طبق طريقة دراسات « الوقت والحركة و « تحقيق مستويات نمطية للأداء » ٠

ويهاجم تايلور هجوما شديدا الرأى الشـائع فى بعض أوسـاط العمال بأن زيادة انتاجية العامل يؤدى حتما الى نقص العمالة ، وهو يرى أن زيادة انتاجية الفرد تساعد على زيادة فى انتاجية المجموع ورفاهيتهم ٠ ان الزيادة فى الثروة تعنى فى آخر المطاف زيادة فرص العمل وليس تقليلها ٠ ويحرص تايلور أشد الحرص على تفهم العمال لهذه الحقيقة ٠

ومن المسائل التى عنى تايلور بتأكيدها مسألة خبرة الرؤساء وخبرة الأفراد عن طريق تدريبهم ٠ فالمستويات النمطية لا تتحقق الا بالملاحظة المستمرة الطويلة والتى تتم على أسس علمية دقيقة وسـجلات تحليليـة حافلة ، ولا يتأتى نجاح الهدف من استنباط تلك المستويات الا بفهم الأفراد لها واقتناعهم بها ٠

وغنى عن البيان أن الطريقة العلمية تفوق فى مزاياها الوسـائل النظريـة التى تعتمد على الضغط والاكراه والاتصـالات الشخصـية والتقديرات الجزافية والفردية ، وقد يحسن اجمال مزاياها فيما يلى :

فمن ناحية ، تضمن الطريقة العلمية وجود علاقة عادلة بين الأجر الأساسى والجهد المبذول ٠

ومن ناحية أخرى ، الأجور التشجيعية حق مقابل لناتج اضـافى حقيقى وهذا هو خير حافز للأفراد للنهوض المستمر بالانتاج ، لأن دافع الكسب سيحثهم على مواصلة الانتاج ٠

هذا الكلام يكشف عن جوهر مذهب تايلور ومبتغاه ٠ فالمؤسسـة الصناعية ـ فى مذهبه ـ لا تبرير لوجودها الا بتحقيقها المستمر والدائب للأرباح ، فالربح هو المقياس الوحيد لنجاح المؤسسة الصناعية ، لأنه يعنى

انها أعطت أكثر مما أخذت وبالتالى عملت على زيادة الثروة القومية ٠ ولكن هذا وحده لا يكفى فمن الواجب أن يشعر العاملون بالمؤسسة الصناعيـة بأرباحها ٠٠٠ فى شكل زيادة الأجور والمهايا بقدر يتوافق مع كل زيادة فى الأربـاح ٠

وأخيرا ٠٠٠ يجب ألا يتحقق الربح للمؤسسة والعـاملين فيهـا نتيجة لارتفاع مستمر فى أسعارها ٠٠٠ والا كان معنى ذلك أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن هذا النجاح ٠

ولكن الغاية التى يسعى تايلور لتحقيقها ليست « مثالية » بأية حال ، فهو لا يدعو أصحاب الأعمال الى التضحية بأرباحهم فى سبيل « اخوانهم » من العمال ، وهو أيضـا لا يفترض أن العمال ملائكة يمكن أن يضحوا بأجورهم فى سبيل أسعار منخفضة للانتاج ٠

ان تايلور من البراجماتيين ، وهذا يعنى أنه من المؤمنين بالناحية العلمية ٠٠٠ فهو يدرك تماما أن زيادة الانتاج ستزيد الأرباح والأجور وستساعد على انخفاض الأسعار وبالتالى على اشباع الرغبات كافة ٠

وأكثر من ذلك ٠٠٠ فهو يقدم أساليب تحقيق تلك الزيادة ويقدمها بعد دراسات مستفيضة ، قام بهـا هو بنفسه واستغرقت أكثر من عشرة أعوام أمضـاها فى الورش الصناعيـة وكذلك قام بها غيره من مهندسى الصناعات بعد أن تأكدت لهم صحتها ٠

وفردريك تايلور صـاحب رسـالة ٠٠ وهى رسـالة جديدة فى مضمونها وفى أهدافها ، وقد يتصور البعض ــ وهو يقرأ لتايلور مرة ــ أنه يحاول أن يحيلنا جميعا الى مهندسين ٠٠٠ فى رعاية حدائقنا الخاصة وفى قيادة سياراتنا وفى ادارة بيوتنا وفى طرق أكلنا ونومنـا وذهابنـا الى أعمالنا ٠ وقد يكون هذا صحيحا وقد يكون نتاجا طبيعيا لعقلية تايلور فى تجربته الاجتماعيـة ٠٠٠ ولكن سرعـان ما يتبين لنا ــ ونحن نقلب صفحات كتابه ونتفهم أفكاره ــ أن المؤلف رائد حركة صناعية هامة ٠ فهو بحق رائد ثورة ، ثورة من نوع جديد لا تهدف الى نزع الجذور الممتدة فى قلب المجتمع أو المساس بعلاقات الانتـاج وانما هى ثورة تهدف الى تشكيل الأسس الصناعية تشكيلا جديدا ٠

وثورة تايلور يمكن النظر اليها ضمن اطار الثورة التكنولوجيـة التى صاحبت الثورة الصناعية وأعقبتها ، وبهذا يكون مكان تايلور بين

أنصار الثورة الصناعية ·· وليس بين الثائرين عليها · فتايلور الذى عاصر أزهى سنوات التفوق الصناعى فى الولايات المتحدة ··· وأعنفها — لم يفقـد ايمانه قط بالقيم والعلاقـات التى تمخضت عنها تلك الثورة للانســانية ·

فليس فى كتاب تايلور ذلك التمرد الذى نعهده فى كتابات المفكرين السياسيين والفلاسفة الذين عاصروا تلك الثورة ، ولهذا فان مكانه يجب أن يكون بين المخترعين أمثال « وات » الانجليزى · فثورته التى يمتلىء بها كتابه هى ثورة تكنولوجية أكثر منها سياسية واجتماعية ، لذلك مازال كتاب الادارة العلمية — حتى يومنا هذا — من المراجع الأساسية لدارسى الهندسة الصناعية والباحثين فى علم التنظيم الادارى · بل انه لم يحدث فى التاريـخ المعـــاصر أن حظى أى مؤلف فى علـم الادارة فى مجتمع « رأسمالى » بمثل ما ناله كتاب تايلور من المعسكر الشيوعى من اعتراف به وقبول لما جاء فيه ، فان لينين وستالين ، قطبى الثورة البلشيفية ، لم يعترفا بأصالة نظرية تايلور فحسب ، بل اعتبراها معا أحدث « اختراع » فى عالم الادارة ، وكررا الدعوة الى ضرورة تعلم تلك النظرية وتطبيقها بقدر الامكان فى المؤسسات الصناعية السوفيتية ·

فالادارة العلمية قد أصبحت فوق كل خلاف فى السياسة وأدخل تايلور بكتابه — لأول مرة — دراســات التنظيم والادارة من باب المعرفـة الواسع الذى دخلته من قبل فروع الدراسات العلمية الأخرى ·



مراجع مختـــارة

١ ـ قصة الأدب فى العالم — د. أحمد أمين
٢ ـ شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين — على أدهم
٣ ـ من أعلام الأدب الفرنسى — د. جلال حسن صادق
٤ ـ من أعلام الأدب الأوروبى — على كامل
٥ ـ من أعلام الأدب الانجليزى — كامل عبد المجيد ـ فؤاد فهمى
٦ ـ بديع الزمان الهمذانى — مارون عبود
٧ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى — د. اكرام فاعور
٨ ـ فى الأدب المصرى القديم — أحمد عبد الحميد يوسف
٩ ـ فولتير — سليم سعده
١٠ ـ فلاسفة أيقظوا العالم — د. مصطفى النشار
١١ ـ خطباء صنعوا التاريخ — أنور أحمد
١٢ ـ قصة الحضارة — ديورانت
١٣ ـ أعلام الفن القصصى — هنرى توماس ـ دانالى توماس
١٤ ـ دائرة معارف الشعب — دار الشعب
١٥ ـ الخطابة — نقولا زيادة
١٦ ـ أدباء العرب — بطرس البستانى
١٧ ـ أبو نواس — ابن منظور المصرى ، تقديم ودراسة عمر أبو النصر
١٨ ـ الحب فى التراث العربى — د. محمد حسن عبد الله
١٩ ـ فولتير — أندريه كريسون ، ترجمة د. صباح فخر الدين
٢٠ ـ الرسائل الفلسفية لفولتير — ترجمة عادل زعيتر
٢١ ـ دراسة الحب فى الأدب العربى — د. مصطفى عبد الواحد
٢٢ ـ الحضارة الانسانية بين الشرق والغرب — سامى اليافى

اقرأ فى هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الاعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكاياوم جابوتنسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

آلدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر· ج· فوربس و أ· ج· ديكستر هور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسترديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

قدرى حفنى واخرون
الانسان المصرى على الشاشة

أولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها - عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية
والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
اصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للاهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيرنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس
والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الأطفال « فلسفته ، فنونه ،
وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل أحمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د· السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الاخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

أ· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور
الوسطى

د· لينواير تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

د· رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د· محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
واين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

انطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكى ف٠ س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين فى العصور الوسـطى

س٠ م٠ بورا
التجربة اليونانية

د٠ عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية

رونالد د٠ سمبسـون ونورمان د٠ اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د٠ انور عبد الملك
الشارع المصرى والفكر

ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد ٠ س٠ هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثـال الشعبيـة فى عهد محمد على

الان كاسبيار
التذوق السينمائى

سامى عبد المعطى
التخطيط السياحى فى مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمى المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينمـا و التليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما فى المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية ٠ نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د٠ محمود سرى طه
الكومبيوتر فى مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف٠
وظائف الأعضاء فى الألف اليـاء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفـكر الانسـانى

جون ٠ ر٠ بورر وميلتون جولدينج
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبى
الفكر التاريخى عند الاغريق

د٠ صالح رضـا
ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

م٠ هـ كنج وآخرون
التغـذية فى البلدان النـامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د٠ السيد طه السيد ابو سديرة
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب٠ كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د٠ توماس ا٠ هاريس
التوافق النفسى ـ تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافى روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

ناجاى متشيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البى وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسمـاعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالى

أبو القاسم الفردوسى
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلى
قيام الدولة العثمانية

تونى بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور ، شين ين بنج وآخرون
مختارات من الآداب الآسيوية

ناصر خسرو علوى
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنوانى
كتب غيرت الفكر الانسانى ٧ ج

جان لويس بورى واخرون
فى النقد السينمائى الفرنسى

العثمانيون فى اوربا
بول كولز

موريس بير برابر
صناع الخلود

ريجمونت هبر
جماليــات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

تراتيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر ميكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
النقــد الســينمائى الأمر

فتالى لويس
مصر الرومانية

سيبفن اورمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

موسى برنج واخــرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فاسر بكار
لهم يصنعون البشر ج

عاد محمد الجزار
ماسنريخت

امرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فرير
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج

مورىال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهنديه

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مرجريت رور
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معــالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجــهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا – الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنســلاو مالينوفســكى
السحر والعلم والدين

ادم متز
الحضارة الاســلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ليفرى شاتوسر
كوننا المتمدد

سوندارو
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التــطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للســـادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيو
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جــورج ســتاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعيــة

محمود سامى عطا الله
الفيلم التســجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيــلم الأميركى

هارى ب. ناش
الحـــمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف يندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحله ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصــور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظريه الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى
والأمن القومى العربى ؟

ليوبوسكاليا
الحب

ايغور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينر
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٠ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت٠ ج٠ جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف٠ فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول داميز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف ومارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج٠ كونتنو
الحضارة الفينيقية

أرنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ٠ كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وأخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الوير جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الأسبانى

روبرت سكولز وأخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب٠ س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س٠ هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقية

و٠ بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جاجارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلزال

م٠ و٠ ثرنج
ضمير المهندس

أ٠ ر٠ جرنى
الحيثيون

سبتينو موسكاتى
الحضارات السامية

البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٥٢٤١

ISBN — 977 — 01 — 5654 — X